



رَجْعَةُ الْحَقِّ
سلسلة شهرية
تصدر مع مطلع كل شهر عربي

الأسئلة الفاتحة

الدكتور حسين مؤنس

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على نبيه وصفيه خاتم المرسلين

وبعد :

فإني نظرت في مصوّر الأرض أتتقرّري ما زوّي للإسلام من جِوانب هذا الكوكب فأحسست أولَ الأمر بالرضى والاطمئنان ، فقد بلغت رسالة الإسلام من نواحي هذه الأرض مبلغاً ترضى عنه النفس ويطمئن له القلب . وتفكرت في نفسي في الحساب الختامي لما كسب الإسلام وخسر من البلاد والعباد في صراع الزمان إلى يومنا هذا ، فوجدت أن نتيجة الحساب تدعو إلى الاستبشار ، فإننا في صراعنا الطويل لم نخسر من الكثير الذي كسبناه إلا القليل : خسرنا الأندلس وصقلية ومعظم جزائر البحر المتوسط ، ولكتنا عوضنا هذه الخسائر بمكاسب أخرى ، فأدخلنا دولة الروم وبلادها رحاب الإسلام بعد طول صبر وعناء ، وامتد الإسلام بنفسه ففتح إفريقية الإدارية وجزءاً كبيراً من إفريقية الاستوائية ، ومد ذراعه المباركة فوصلت إلى المحيط الهادي وضمّت إلى أسرة الإسلام بلاد أندونيسيا وماليزيا وجزءاً لا بأس به من جزائر الفلبين .

ثم ردّدت الفكر فشعرت بشيء من تأنيب الضمير ، فقد أرسل الله سبحانه وتعالى رسوله بالهدى ودين الحق ليدخل فيه أبناء آدم أجمعين ، ورسول الله صلوات الله عليه وسلم عندما أنشأ أمة الإسلام في المدينة وبدأ مغازيه استطاع في عشر سنوات أو نحوها أن يدخل في الإسلام جزيرة العرب كلها ، وهي وحدها سُدس مساحة عالم الإسلام ، وكان المأمول بعد انتفاله

إلى الرفيق الأعلى أن نواصل مغازيه حتى لا تبقى على وجه الأرض نفس إلا وقد ملأها نور الإسلام .

ولكننا توانينا وقصرنا ، ووقفنا بالمغازي عند جزء من الطريق الطويل . وصرفتنا بعد ذلك شئون الدنيا عن الغرض الأسمى ، ولكننا لسنا بعد في آخر الزمان ، ولا زالت أمة الإسلام بخير ، والله سبحانه وتعالى يبعث في قلوب أهلها من الغيرة والحمية وفحولة الأجيال الأولى ، فتواصل الدعوة حتى تحقق الرجاء ونلقى ربنا يوم الميعاد وقد قمنا بحق الله تعالى علينا ، حتى لا نقف صامتين وقد أظننا الحزني عندما نذكر قول الله تعالى في سورة التوبة : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

وأعدت النظر في المصور الجغرافي لأرى ما فتحنا بجهادنا وما فتح الإسلام بنفسه بالحكمة والموعظة الحسنة فخشعت نفسي ، لأنني وجدت أن الإسلام فتح بنفسه أضعاف ما فتحنا ، وأن دعوة الحق في تاريخنا كانت أمضى من كل سلاح ، حتى البلاد التي خضنا المعارك لندخلها كان الإسلام هو الذي فتح قلوب أهلها واستقر فيها وجعل بلادهم دياره . .

ورأيت الإسلام منذ أكرم الله الأرض به فاتحاً مظفراً يجد طريقه إلى القلوب كما ينساب الماء الطيب في الأرض فيحييها فتخضر وتخرج ثمراً زكياً . عن هذا الإسلام الفاتح أكسب هذه الصفحات وأهديها لدعوة الحق ، لأن « دعوة الحق » هي البداية وهي النهاية وهي النور والهداية وهي نعمة الله الكبرى على عباده ، له الحمد والمنة ، وهو على كل خير مستعان .

د . حسين مؤنس

القاهرة ، جمادي الأولى ١٤٠٠ هـ

مارس ١٩٨٠ م

(الباب الاول)

مداخل الاسلام ومسالكه

طبيعة فتوح الاسلام :

ديوان الفتوح الإسلامية حافل بأسماء عظماء الفاتحين ، وأولهم وأجلهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو الفاتح الأكبر ، بَشَّرَ بالرسالة والقلوبُ من حوله مغاليقُ عليها أقفالها ، فما زال يدعو ويهدي حتى فُتِحَ أقفالُ القلوب ، فانساب فيها نور الهدى ، وأشرقت بضياء الإسلام ، وخالطتها بشاشته فرحيت وسمت وصفت وخلصت من جهل الجاهلين ، وتكونت حوله صلوات الله عليه في المدينة تلك العصبة من أولي القوى ممن نقلهم نور الإسلام والأسوة الحسنة برسوله من ضياع الجاهلية والشرك إلى هدى الإيمان والإسلام ، فائتسوا برسولهم الكريم ولزموا غُرَزَهُ فَأَفَادُوا وانتقلوا من هباء الجاهلية المالكة إلى غَنَاءِ الإسلام الباقي ، فساروا مع رسولهم ما عاش فيهم ، فلما لحق بالرفيق الأعلى ساروا في آثاره وبدأوا من القاعدة المكيبة التي بناها الرسول وهي جزيرة العرب الموحدة الموحدة ، وأنشأوا نواة عالم الإسلام الفسيح الزاهر .

وكانت القاعدة التي سار عليها الرسول صلوات الله عليه في نشر الدعوة هي التي رسمها له القرآن الكريم في الآية الخامسة والعشرين بعد المائة من «سورة النحل» ، وهي السادسة عشرة من سور القرآن : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » ، لأن الإسلام نعمة من الله على عباده ، والتعم لا تفرض على الناس وإنما ينالها من يستحقها منهم ، ومن هنا فإن الدعوة إلى الإسلام لا تكون إلا بالحكمة أي بأفضل الطرق وأحكمها لإيصالها إلى القلوب ،

ثم الموعظة الحسنة والجلد الرفيق ، فإذا اقتنع الإنسان بهذا الطريق كان بها وشملته نعمة الإسلام ، لأن الله سبحانه وتعالى أعلم بمن كتبت عليه الضلالة فهو لا يهتدي إلا إذا شاء الله ، ويعلم المهتدين الذين تفتحت قلوبهم فهم يدخلون فيه طواعية .

ولهذا فنحن عندما نتحدث عن المغازي لا نتحدث عن حروب بالمعنى الصحيح للحروب ، فإن المسلمين لم يحاربوا شعباً قط ليدخلوه في الإسلام ، وإنما هم قاموا بفتح ، وذلك تطبيقاً لقوله تعالى : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » صدق الله العظيم

فهنا الآيات تتحدث عن النصر أولاً ثم الفتح ، النصر على القوى التي تحول دون وصول الإسلام إلى الناس ، ثم يفتح الله سبحانه وتعالى بعد ذلك القلوب لتلقي نعمة الإسلام .

وفي كل مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم والحروب التي تمت خلال القرن الهجري الأول لم يحارب المسلمون قوماً أو أمة أو شعباً ، إنما هم حاربوا القوى التي تحول دون وصول الإسلام إلى الناس . فقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة معه أئمة الكفر في مكة ولكنه لم يحارب أهل مكة ، وعندما استسلم رؤساء المكيين دخلت قوات الإسلام مكة دون حرب ، وعندما نادى منادي الإسلام بأن من دخل الحرم آمن ومن دخل بيته آمن ومن دخل بيت أبي سفيان آمن ، لم يطلب إلى أحد أن يدخل الإسلام ، بل قال الرسول صلوات الله عليه لأهل مكة « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، فانفتحت بذلك قلوب من بقي على الشرك منهم للإسلام فأسلموا .

وكذلك كان الأمر مع بقية البلاد التي فتحها العرب : كانت الحرب على الرؤساء ، الذين كانوا يحولون بين أهل عشيرتهم ودخول الإسلام ، فلما تم النصر عليهم جاء الفتح كما قالت الآية الكريمة .

والفتوح في العصر الراشدي وما بعده ما كانت قط حروباً على شعوب وإنما على أعداء الشعوب ، فلم يحارب العرب أهل الشام أو أهل مصر ، وإنما حاربوا الروم الذين كانوا يسخرون أهل الشام وأهل مصر لمصالحهم ومصالح دولتهم ، وكانوا يعارضون دخول الإسلام تلك البلاد حفاظاً على مصالحهم ، فلما انكسرت شوكة الروم ترك العرب أهل الشام وأهل مصر ليتعرفوا على الإسلام ويدخلوا فيه إذا أرادوا . وعندما فتح المسلمون العراق وفارس لم يحاربوا أهل العراق أو أهل فارس ، وإنما حاربوا الأكاسرة ورجالهم ممن كانوا يستعبدون شعبي العراق وإيران ولا يريدون أن تصل إليهم رسالة الإسلام ، فلما قضى المسلمون على قوة الأكاسرة وأوصلوا الإسلام إلى أهل العراق وفارس تركوهم أحراراً يختار كل إنسان منهم لنفسه الهدى أو الضلالة ، كما قدر الله عليه .

ومن هنا فإننا نخطي* عندما نقول أن هناك بلاداً فتحت بحرب وأخرى فتحت بغير حرب لأن الحروب لم تكن للاستيلاء على البلاد ، بل لاتزاعها من غاصبيها وردّها إلى أهلها وتركهم بعد ذلك أحراراً في أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا ولا إكراه في الدين .

أما ما يتحدث عنه الفقهاء من أرض الصلح وأرض العنوة فلا يتعلق بالبلاد نفسها بل بأمالك المستفيدين بالبلاد وأراضيها قبل الإسلام ، فإن أحكام العنوة لم تطبق إلا على أمالك القياصرة والأكاسرة وسدنة بيوت النار والأمالك الخاصة لمن فر من كبار رجال الدين في مصر والعراق والشام ، فقد كان أولئك الرجال يملكون أراضي شاسعة ملكاً خاصاً لا صلة له بالدين ، فاستصفت ذلك كله دولة الإسلام وتركته لمن يريد من أهل الزرع ليزرعه ويؤدي عنه العشر لبيت مال المسلمين ، أو يزرعه مناصفة أو مقاسمة أو على أي شرط أحبه ورضيه ، وتلك هي أراضي الصوافي والضبياع التي تحدثنا عنها النصوص ،

وعدله فكانوا غير العرب من أهل البلاد المفتوحة ، ولقد عجب الجاحظ في « البيان والتبيين » من قلة أموال العرب في العراق وخراسان بالقياس إلى ما احتجن الأعاجم من الأموال وما حازوا من العقار ، وقد عاب الجاحظ ذلك على العرب واتهمهم بالإسراف وقلة التدبير ، ولم يكن الجاحظ مصيباً في ذلك . فإن العرب لا يتقصهم التدبير ، ولكنهم لم يمدوا يداً إلى أموال أهل البلاد المفتوحة ولم ينصرفوا إلى شئون الكسب والمعاش انصرافاً تاماً كما فعل غيرهم وتلك شهادة للعرب ، فقد جاهدوا ونصحووا ونصروا ثم لم يفوزوا بعد ذلك بشي* يذكر من خيرات الدنيا ، وهم في هذا حالة فريدة في التاريخ .

نقول هذا لنبطل ببرهان الواقع التاريخي قول القائلين إن الإسلام انتشر بحمد السيف ، فما رُفِع سيف على رجل ليدخل الإسلام ، ولا أسلمت أمة وعلى رقاب أهلها سيف ، إنما كان السيف لأهل السيوف المسلولة على الإسلام وأهله ولمن وقف في طريق الدعوة ، وإذا كان الله سبحانه قد زوى الأرض للإسلام ، فقد كان ذلك عن طريق الإسلام نفسه ، هو الذي فتح القلوب وغزا الأفتلة . ولقد أعز الله دينه فلم يجعل لأحد عليه فضلاً ، وإنما الفضل لله وحده وللإسلام ، وصدق الله سبحانه وتعالى حيث قال : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » . (الحجرات ١٧)

الناس فيه وفي دينه ، فلا يزالون في إعجاب به حتى تهوى أفئدتهم إلى ما يؤمن به ليكونوا مثله .

وكان هذا من أقوى أسباب انتشار الإسلام خلال القرن المجري الأول ، فقد كان العرب الذين استقروا في البلاد المفتوحة قوماً على خلق وحسن سميت وإيمان بالإسلام عميق . حقاً لقد وقعت بين بعضهم وبعض حروب ومنازعات في الأمصار وخاصة في إيران والمغرب والأندلس ، ولكن هذه المنازعات اقتصرت عليهم فحسب ، فلم ينل أذاها غيرهم « ولم يعتدوا على أهل البلاد ولا هم غضبواهم أرضاً أو عقاراً ، ولا تصرفوا معهم تصرفاً غير سليم . ففي إيران مثلاً « حيث بلغت العداوة بين الشامية واليمينية مداها لم يقحم العرب من حواليهم في خصوماتهم ، ولا هم تحاربوا في أراضيهم ولا هم انتزعوا شيئاً مما كان بأيديهم « وإنما كان نزولهم في أراضي الصفايا أي الأراضي التي كانت ملكاً لكسرى وآل بيته والمرازية ، وهم كانوا كبار الدولة الساسانية القائمين بعسف الناس ، ونزلوا كذلك فيما كان موقوفاً على بيوت النار أو مملوكاً لِسِدِّ قَتِيهَا .

● نظام الولاء وأثره في انتشار الإسلام :

ونظام الولاء نفسه يدل على قيام نوع من المؤاخاة بين العرب وأهل البلاد فإن الولاء لحمية كلحمية النسب ، ومولى القوم منهم ، فإذا كانت جماعات أهل فارس قد رغبت في الدخول في ولاء تميم أو ربيعة أو تُجيب أو هَمْدَان ، فمعنى ذلك أنها أنست من أولئك العرب أَخُوَّةً وعجبة وحسن عشرة حبيبتهم إليهم ، فرغبوا في أن يكونوا أولياءهم .

وجدير بنا أن نقف هنا هنيهة عند ظاهرة الولاء التي لم يدرسها مؤرخو الإسلام حتى دراستها مع أنها ظاهرة إسلامية مرتبطة أشد الارتباط بطبيعة

الإسلام وأخلاقياته ، وكانت كذلك من أكبر الأسباب في إسلام الناس طواعية واختياراً في إيران وبلاد الترك ثم في بلاد المغرب والأندلس .

ذلك أن أهل القرى حينما ملك الأكاسرة من أرض العراق وإيران كانوا من حيث الوضع القانوني والاجتماعي رقيقاً واقنان أرض للبيت الساساني ، وكان كسرى إذا أعطى رجلاً من رجاله أرضاً أخذها بقلاحيها ، أي أن رقهم ينتقل إلى المالك الجديد ، فكان الناس عبيداً لكسرى وأهل بيته وللمقطعين من المرازبة والدهاقين والأصبهين وهم رؤساء القرى وجباة أموالها ، فكان الفلاح يزرع الأرض ولا يصيبه من خيرها إلا ما يقيم أوده ، والباقي يذهب لصاحب الأرض وهو سيده ومالك رقه .

وكان أهل القرى قد ألفوا هذا الوضع بتوالي القرون ، وأصبح عندهم أساس الوضع الاجتماعي لكل منهم ، لأن الإنسان لا يعيش قط في فراغ ، ولا بد أن يرتبط بالنظام القائم بخيط قانوني ما ، ولو كان هذا الخيط قيد رق في رقبته ، لأنه يجعله على أي حال عبد فلان أو ملك فلان ، فإذا عدا عليه عاد بلأى إلى صاحب رقه ليحميه أو ليؤمنه في بيته وأهله ، وهذا الوضع على ما فيه من إححاف بالناس كان يعطي الفقراء والمزارعين وضعاً قانونياً أو هوية اجتماعية لا غنى لهم عنها .

فلما جاء الإسلام وأطاح بالأكاسرة والمرازبة والدهاقين أصبح أولئك الفلاحون في فراغ اجتماعي : فالأرض ليست أرضهم ، ولم يعد لهم وضع معين في المجتمع لأن سادتهم قد انتهى أمرهم ، وأصبح حالهم كحال الواحد منا إذا فقد جواز سفره في بلد غريب ليست له فيه سفارة أو قنصلية ، هنا يفقد الإنسان هويته القانونية ، أي أن أهل القرى فقدوا هويتهم عقب الفتح العربي .

وكانت دولة الإسلام تستطيع أن تحل محل الأكاسرة ورجالهم وتعتبر هؤلاء الناس رقيقاً لها ، كما فعل الساسانيون عندما حلوا محل الأكمينيين في تلك البلاد .

ولكن الإسلام لا يقر هذا النوع من الرق ، ثم إن نفس العربي المسلم عافته ، فلم تدع دولة الخلافة ولا جماعات العرب في المهاجر ملك رقاب الناس « وهنا ظهر الولاء : اجتمع أهل كل ناحية ودخلوا في ولاء من أرادوا من نزل في أرضهم من قبائل العرب ، فصاروا في ولاء تميم أو معد أو ربيعة أو شيان أو عبد قيس ، ومنهم من دخل في ولاء الفاتح فنسمع عن موالي خالد بن الوليد وموالي موسى بن نصير وموالي عبد الله بن عامر ، ومنهم من دخل في ولاء الخليفة القائم فنسمع عن موالي عبد الملك بن مروان وموالي الوليد وموالي هشام بن عبد الملك ، ومنهم من دخل في ولاء قريش عامة ، فنسمع عن موالي قريش ، وهؤلاء هم الذين يقال عنهم في كتب التراجم « مولاهم » وبذلك أصبحوا أعضاء في الجماعة الإسلامية الجديدة . لأن الولاء لم يكن انتقال رق أو تملك رقبة وإنما كان إقامة وضع قانوني لأولئك الناس في دولة الإسلام . وما دامت القرية من القرى قد دخلت في ولاء أحد من العرب فقد أصبح لأهلها وضع قانوني معترف به في الخريطة الاجتماعية والسياسية لدولة الإسلام .

وكان هذا الولاء في حقيقة الأمر تحريراً للناس ورفعاً لهم إلى مقام المواطنين في دولة الإسلام ، فإن الولاء يشترط الإسلام ، فلا يدخل أعجمي في ولاء عربي إلا إذا أسلم ، ومعنى ذلك أن الولاء ، وهو نظام عربي إسلامي كان إدخالاً للناس في الإسلام ثم تعريباً لهم بعد ذلك ، وكان تحريراً للناس وفكاً لرقابهم ورداً لكرامتهم الإنسانية ، ولعلنا لا نكشف حقيقة خافية عندما نقول أن الغالبية العظمى من أهل العراق وإيران تخلصوا من الرق وعرفوا الحرية والكرامة الإنسانية مع الفتح الإسلامي .

الإسلام وأخلاقياته ، وكانت كذلك من أكبر الأسباب في إسلام الناس طواعية واختياراً في إيران وبلاد الترك ثم في بلاد المغرب والأندلس .

ذلك أن أهل القرى حينما ملك الأكاسرة من أرض العراق وإيران كانوا من حيث الوضع القانوني والاجتماعي رقيقاً واقنان أرض للبيت الساساني ، وكان كسرى إذا أعطى رجلاً من رجاله أرضاً أخذها بقلاحيها ، أي أن رقهم ينتقل إلى المالك الجديد ، فكان الناس عبيداً لكسرى وأهل بيته وللمقطعين من المرازبة والدهاقين والأصبهين وهم رؤساء القرى وجباة أموالها ، فكان الفلاح يزرع الأرض ولا يصيبه من خيرها إلا ما يقيم أوده ، والباقي يذهب لصاحب الأرض وهو سيده ومالك رقه .

وكان أهل القرى قد ألفوا هذا الوضع بتوالي القرون ، وأصبح عندهم أساس الوضع الاجتماعي لكل منهم ، لأن الإنسان لا يعيش قط في فراغ ، ولا بد أن يرتبط بالنظام القائم بخيط قانوني ما ، ولو كان هذا الخيط قيد رق في رقبته ، لأنه يجعله على أي حال عبد فلان أو ملك فلان ، فإذا عدا عليه عاد بلأى إلى صاحب رقه ليحميه أو ليؤمنه في بيته وأهله ، وهذا الوضع على ما فيه من إححاف بالناس كان يعطي الفقراء والمزارعين وضعاً قانونياً أو هوية اجتماعية لا غنى لهم عنها .

فلما جاء الإسلام وأطاح بالأكاسرة والمرازبة والدهاقين أصبح أولئك الفلاحون في فراغ اجتماعي : فالأرض ليست أرضهم ، ولم يعد لهم وضع معين في المجتمع لأن سادتهم قد انتهى أمرهم ، وأصبح حالهم كحال الواحد منا إذا فقد جواز سفره في بلد غريب ليست له فيه سفارة أو قنصلية ، هنا يفقد الإنسان هويته القانونية ، أي أن أهل القرى فقدوا هويتهم عقب الفتح العربي .

الإسلامية ولم يعد هناك مناص من أن يُعنى المسلمون بالدعوة وتنظيمها وإعداد الرجال القادرين عليها ، فيما عدا ذلك كان الإسلام هو الذي نشر نفسه بنفسه : هو الذي دعا لنفسه واجتذب قلوب الناس فأسلموا حباً في الإسلام وإعجاباً به والتماساً لرحمة الله وهداه عن سبيله . وإنه لما يستوقف النظر أن قوة الإسلام الذاتية قد غلبت تنظيمات الدعاة وأثبتت أنها أفعل وأبعد أثراً من المال الذي يتفقه الآخرون على دعاواهم ، فانتشر واتسع مداه ودخلت فيه الأمم بعد الأمم من تلقاء نفسها بمجرد وصول الدعوة إليها « ولقد كان العرب يفتحون البلد من البلاد ويعرضون الإسلام على أهله ثم يدعونهم وشأنهم حتى يقتنعوا بفضائله الإنسانية على هيئة ، حتى لقد ذهب بعض الشائنين للعرب إلى أنهم لم يكونوا يهتمون بنشر دينهم ، وأن الجزية كانت أحب إليهم من الإسلام وما إلى ذلك مما نجده مسطوراً في كتب أعداء الملة .

وما كان ذلك عن عدم حرص من العرب على نشر الإسلام ، وإنما كان سيراً على أسلوب الدعوة في عهدها الأول : أسلوب عرض الدين على الناس وتركهم بعد ذلك أحراراً إلى أن يهدي الله منهم من يشاء . ومن غريب ما حدث في بلاد مثل مصر والأندلس أن كان مسلك العرب هذا أدعى إلى دخول الناس في الإسلام ، لأنهم تعودوا ممن يتغلب على بلادهم أن يكون شديد الحرص على إدخالهم في دينه ، فما بال أولئك العرب لا يلحون على الناس في الدخول في الإسلام ، لأنهم تعودوا ممن يتغلب على بلادهم أن يكون شديد الحرص على إدخالهم في دينه ، فما بال أولئك العرب لا يلحون على الناس في الدخول في الإسلام ولا يستغلون القوة في ذلك كما كان رجال دولتي الرومان والروم يفعلون ؟ قال يولجج الراهب القرطبي المبعوض للإسلام : « فكان من مكر العرب أن تظاهروا بأنهم لا يهتمون بدخول الناس في الإسلام » فطلعت نقوس الناس إلى ذلك الإسلام وودوا لو يتعرفون عليه لعلمهم يعرفون السبب في اختصاص العرب أنفسهم به وضمنهم به على غيرهم ، فما زالوا يفعلون ذلك ويسألون عن الإسلام ويستفسرون حتى وجدوا أنفسهم مسلمين دون أن

يدروا » ولقد قال الراهب القبطي يوحنا التقبُّوس شيئاً من ذلك ، وكان متأسفاً لأن العرب لم يلجأوا إلى القوة في فرض الإسلام ، إذ لو أنهم فعلوا ذلك لزاد تمسك الأقباط بعقيدتهم على مذهب العناد وإباء كل ما يفرض بالقوة ، ولَمَّا وجد الإسلام هذا الطريق السهل الميسر إلى القلوب في مصر والأندلس وإنك لتحاول أن تدرس كيف أسلم أقباط مصر ، وكانوا من أشد الناس استمسكاً بعقيدتهم حتى لقد استشهدت في سبيلها منهم جماعات بعد جماعات على أيدي عتاة الرومان من أمثال دقلديانوس وطغاة الروم من أمثال قيرُس ، فلا تجد على تساؤلِكَ جواباً » لأن التحول إلى الإسلام في هذين البلدين — مصر والأندلس — تم في هدوء وسكون : انسابت العقيدة في قلوب الناس كما ينساب الماء في أرض الزرع فتخضر وتزهو وتثمر بإذن ربها .

وفي بلاد المغرب أسلمت قبائل البربر مبهورة بما رأت من روعة إيمان عقبة بن نافع وأصحابه ، فهذا الرجل الفريد في بابه ، الذي وهب نفسه للإسلام كان يلقي رئيس القبيلة ويحدثه ثم يدعوه إلى الإسلام فيسارع إلى الإيمان ليكون من قوم عقبة ، ثم يتبعه بعد ذلك قومه .

إن مداخل الإسلام إلى القلوب هي سماحته وبساطته وإنسانيته . إنه يقدم للمؤمن به الاطمئنان وهدوء البال » ويفتح له إلى الله سبحانه باباً واسعاً للمغفرة والأمل وثواب الآخرة ، وكل ذلك دون مقابل . في أديان أخرى تفرض عليه أموال وهدايا وقرابين ، ويلزم بطاعة رهبان وقساوسة ، ويراقب ويعاقب ويحرم من نعمة الله بقرار من رئيس الكنيسة ، لا شيء من هذا في الإسلام » من هنا كان مدخله إلى النفوس سهلاً ذلولاً .

أما مسالك الإسلام فهي دروب الأرض جميعاً : لقد انتشر الإسلام بالبر والبحر ، بالحرب والسلام » لقد اخترق الجبال والشعاب ، وأوجد لنفسه طرقاً ومسالك لا تخطر على بال أحد ، لقد اشترك في نقل الإسلام حتى الكفار ،

ومن بين المستشرقين رجل ستحدث عنه نصيح حكومته بترك الإسلام ينتشر حتى يشتغل به الناس ويتركوا التجارة والأموال للهولنديين ، وأخذت الدولة بكلامه ، فكانت نصيحة هذا الكافر لدولته سبباً في الإسراع بانتشار الإسلام في أندونيسيا . وانساح الإسلام في أندونيسيا حتى عمها كلها . وحدث أن دخلت الإسلام قبيلة من قبائل الوفقارة في غرب إفريقية على سبيل العناد مع جارتها ، فلما دخلت فيه سعدت وارتقت وسادت وتبعتها خصمتها الأولى — بفضل هذه العداوة — التي أصبحت صداقة فيما بعد — اخترق الإسلام مائتي كيلو متر من الغابات الاستوائية التي لا يخترقها أحد إلا بمشقة ، وهذه القبيلة وتسمى (الوفقارا - آيا) تعتبر في مقدمة قبائل داهومي ، منها اليوم أطباء ومهندسون ومدرسون وقضاة . لقد دخلت الإسلام دون أن تدري أي حظ كتبه الله لها عن طريق هذا الدين .

● الإسلام دين طيار :

والخلاصة أن داعية الإسلام الأكبر هو الإسلام نفسه ، فقد تضمنت عقيدته وشريعته من الفضائل ما يجعل الناس يحرمون أشد الحرص على أن يدخلوا فيها ، ثم إن الإسلام يعطي الداخل فيه كل شيء ولا يقتضيه شيئاً ، فإن الإنسان يكسب الصلة المباشرة بالله سبحانه وتعالى ويجد الطريق إليه ليقف بين يديه خمس مرات في اليوم ويدعوه دون حجاب « ويكسب الأمل في حياة أسعد وأرغد في هذه الحياة الدنيا ثم حياة الخلود في دار البقاء ، ولا يكلفه ذلك إلا النطق بالشهادتين واتباع شريعة الإسلام وكلها خير ومساواة وعدل ، في حين يتقاضاه رجال الدين في الأديان الأخرى كما قلنا الأتاوات في كل مناسبة ، فهو يؤدي مالا إذا تزوج ويؤدي مالا كلما أنجب ولداً ، ويؤدي مالا ليعمّد للطفل الوليد ، ثم مالا آخر لبشّته في الجماعة المسيحية (ما يعرف باسم Confirmation) إذا ضرب في مداخل الشباب ، بل يؤدي مالا إذا مات له ميت

لكي تصلّى عليه صلاة الجنّاز (١) ، وبالإضافة إلى ذلك يظل الرجل منهم عمره كله تابعاً لرجل الدين في كل ما يتصل بعلاقته بالله سبحانه ، فإذا أراد الصلاة صلى عنه القسيس أو القس ووقف هو يسمع ولا يملك إلا أن يقول : آمين ، فإن المسلمين وحدهم من دون أهل الأديان هم الذين يقوم كل واحد منهم بصلاته بنفسه حتى لو كانت صلاة جماعة ، وفي غير الإسلام يصلي القس مع مساعديه نيابة عن الناس .

والحق أن أصدق وصف يطلق على الإسلام في هذا المقام هو أنه دين طيار ، ينتقل من إنسان إلى إنسان ومن أمة لأمة في سهولة ويسر كأن له أجنحة قدسية تحمله وتجري به مجرى الريح « وإنك لتنظر إلى خارطة الأرض وتأمل مدى انتشار الإسلام فتعجب من سعته » ويزداد عجبك عندما تبين أن ثلث هذه المساحة فحسب هي التي فتحتها الدول ودخلت الجيوش فيها بالإسلام ، أما الباقي فقد دخلها الإسلام وملأ قلوب أهلها دون جهد منظم أو سياسة مرسومة لذلك ، إنما هو الإسلام نفسه ، جعله الله خفيفاً على القلوب قريباً إلى النفوس ، ما تكاد كلمة الحق تصافح أذن الرجل حتى يصل الإيمان إلى قلبه ، فإذا استقر في قلبه لم يكن هناك قط سبيل إلى إخراجه منه ، فهو الرّبي الذي نظمأ إليه النفوس وتستقي به « وهو الأمل الذي يخفف على الإنسان وطأة المسير في هذه الدنيا ويهون عليه الموت » فالموت ليس آخر رحلة الإنسان مع الحياة بل هو المدخل إلى الحياة الأفضل والأبقى « وبعد هذه الحياة حياة هي أسعد وأبقى لمن صدق إيمانه واتقى .

(١) وصلاة الجنّاز هذه أيضاً درجات بحسب ما ينفعه أهل الميت ، فهناك صلاة بسيطة مختصرة لاستغفر نقائق للفقير المعدم ، وهناك صلاة جنّاز يقوم بها القس وهو واقف على باب الكنيسة ، وهناك صلاة جنّاز طويلة وأبسطة حمسراء وتراتيل ويخور إذا تيسر لأهل الميت المال وجادوا به لجنّاز صاحبهم .

ولعل أكبر أسباب خفة الإسلام على القلوب هي وضوحه وصدقه .
فإنك إذ تؤمن بالإسلام لا تؤمن بأسرار أو أمور لا يقبلها عقلك كما ترى في
الآديان الأخرى ، حتى الغيب الذي تؤمن به في الإسلام حقيقة ، فإن الإنسان
لا يرى الله بالعين المبصرة وإنما يحس به في نفسه وفي كل ما حوله بالبصيرة
المنيرة ، والحقيقة الكبرى في هذا الكون هي خالقه ، فهو الحق ولا حق غيره ،
وأنت لا تؤمن بالله لأن داعيك إليه يأتي بمعجزات أو خوارق وإنما هو يلتفت
نظرك إلى عجائب الخلق وكل ما فيه معجز وخارق ، وأنت تراه رأي العين
في شخصك الذي يعيش ويتحرك ويفهم لا تدري كيف ، فإذا لم تؤمن بالله
فكيف تملح حياتك وحركة جسدك ونبض قلبك ؟ فإذا آمنت بالله لم يكن لك
مفر من أن تؤمن بنيه الذي حمل إليك رسالته ، فالله سبحانه حق ونيه صدق
وكل ما يعدك به القرآن حق وصدق ، ولست تحتاج إلى من يشرح لك حقيقة
الإسلام حتى يملأ نفسك ، وغاية ما تحتاج إليه ، من يذكرك بها ، وهذا معنى
من معاني تسمية الله سبحانه للقرآن بالذكر والذكر الحكيم .

ثانياً

مسالك الاسلام

● طرق التجارة

فإذا كانت دعوة الإسلام تلقى هذا القبول من الناس دون جهد مخصص لذلك فلا بد أن تكون هنالك مسالك تستغل الدعوة عن طريقها مثلها في ذلك مثل الماء الذي ينساب في الأرضين والحقول ، فإن الماء يسري ولكن عن طريق مسالك تيسر انسيابه ، فهو لا يصعد إلى أعلى وإنما ينحدر ، ولا بد له في تحدره مع ذلك من مسالك يجري فيها نراها إذا تتبعنا جريان الماء على منحدر ، فإن الماء يتوخى المسيل السهل وينحدر فيه ، ويدور حول العقبات ليلتقي بمسيل آخر » ولا تزال المسائل تتصل وتفصل وتتلاقى وتتجمع حتى تكون الجداول فالقنوات فالنهرات ثم يكون النهر العظيم الدافق . والأنهار الدافقة الطويلة المجاري الكثيرة الفروع هي التي يحسب لها الحساب في قضايا العمران ، أما المسائل الرقيقة التي تنحدر في مساليل ضيقة ثم تختفي فلا يقوم عليها عمران ، وإذا كنا نتساءل الآن عن مسالك الإسلام فإننا نتحدث عن تلك الطرق التي تجمعت فيها مساليل الدعوة ونشأ عنها نهر دافق من الإيمان جعل البلد كله أو غاليتيه إسلامياً ، وتلك هي المسالك التي تهتمنا في هذه الدراسة .

فأول هذه المسالك طرق التجارة ، وإذا قلنا إن الإسلام دين «طيّار» أي ينتقل من إنسان لإنسان ومن جماعة لجماعة كأنه يسري مع الهواء فلا بد أن يكون الإنسان الناقل متحركاً أو لا بد أن تكون الجماعة الناقلة متحركة أيضاً » وليس هناك أنظم في حركة البشر من طرق التجارة ، لأن التجارات سلع مطلوبة للناس على مدار الزمان ، وفي عصرنا هذا تُنقل المتاجر عن طريق السفن والطائرات والقطارات ، والتجار ينتظرون وصول المتاجر إليهم دون أن يكلفوا

أنفسهم عناء الخروج للإتيان بالسلع من مصادرها ، أما في الماضي ، فكان التجار أنفسهم يخرجون للإتيان بما يتاجرون فيه ، فلم تكن هناك شركات نقل أو تأمين على بضائع ، ومن ثم فقد كانت طرق التجارة طرق اتصالات بشرية تسير فيها القوافل الضخمة التي قد يصل عدد أفرادها إلى الآلاف ، وكل تاجر معه رجاله وأتباعه وركائبه التي تحمل بضائعه ، فكانت القوافل لذلك أنهاراً متدفقة من البشر تسير في درب مطروق عامر بالسابلة على مدار العام .

وقد كان المسلمون في العصور الوسطى أكبر رجال القوافل ، فلم يؤثر عن الهنود أو الفرس أو المغول أو الأوربيين أنهم كانوا من أصحاب القوافل المنتظمة الكبرى ، لأن بلاد الهند والفرس والأوربيين ليست فيها تلك المساحات الشاسعة من الأرض الصحراوية التي تتطلب تنظيم القوافل ، فهناك المدن والقرى على مساحات متقاربة والمسافرون والتجار ينتقلون من بلد إلى بلد أو من قرية إلى أخرى في مسافة يوم أو أقل ، ومن ثم فلم يدع الأمر إلى تنظيم القوافل الكبرى ، أما العرب فبلادهم صحراوية لا يمكن اتصال نواحيها بعضها ببعض إلا بواسطة القوافل الضخمة المحروسة أو التي تسير في أمان اتفاقات مع القبائل الضاربة على الطريق .

ثم إن البلاد التي كان العرب يجلبون منها البضائع كانت بلاداً صحاري في غالبيتها مثل هضاب إيران وصحاري وسط آسيا والصحاري المؤدية إلى الهند وبادية الشام وسيناء وصحراء مصر الشرقية ثم الصحراء الإفريقية الكبرى ، وكان العرب في صحرائهم قد أتقنوا تنظيم القوافل الكبرى قبل الإسلام ، وكانت مكة أكبر سوق تجارية قائمة على القوافل عرفها التاريخ ، وكان هاشم ابن عبد مناف جد النبي صلى الله عليه وسلم أكبر رجل عرفه التاريخ بالمهارة في تنظيم القوافل والتجارة القائمة عليها ، فقد ورث هاشم مجد جده قصي بن كلاب منشي قوة قريش وقائدها في الاستيلاء على مكة وتحويلها إلى قاعدة

للقرشيين ، وإذا كان قُصَيّ قائدًا عسكرياً وسياسياً ماهراً عَرَفَ كيف يقيم أمر جماعة مكة وما حولها ، فقد كان هاشم رجل تجارة ومال . استطاع أن يضع القواعد السليمة للتجارة المكية ، فنظم أمر المساهمات المالية التي يشترك بها أهل مكة في تجارة الشام واليمن ، ثم عقد الاتفاقات مع القبائل التي تسير فيها طرق القوافل من اليمن إلى مكة ومن مكة إلى بلاد الشام (وإلى مصر أو إلى غزة) أو إلى العراق وبهذا حقق معني «الايلاف» المذكور في القرآن الكريم » وهو بمثابة إذن المرور الذي تعطيه الدول للسابلة والتجار لكي يسيروا في أمان الدولة في أراضيها ، وقد أخذ هاشم الايلاف من رجال كسرى وقبصر ووكيل الأحباش في الشُعْبِيَّة لتأمين متاجر مكة في الحبشة .

وبفضل تنظيم هاشم بن عبدمناف انتظمت تجارة مكة قبل الإسلام وأصبحت من أكبر الأسواق التجارية في الدنيا . وفي مدرسة هاشم تعلم العرب تنظيم القوافل تنظيمًا دقيقاً ، وتوارث العرب ذلك فأصبحوا أعرف الناس بتجارة القوافل ونظمها » وعندهم أخذ هذا الفن تجار وسط آسيا من المغول والترك والإيرانيين وتجار إفريقية من أهل المغرب فيما بعد ، ومع أن اللفظ الذي أطلق في لغات العالم على القافلة كان غير عربي الأصل وهو لفظ كارفان ، وهو فارسي معناه المحطة التجارية أو الحصن في المكان القفر (وقد عُرِّبَ على قيروان) إلا أن القوافل اقترنت في تاريخ الحضارة الإنسانية بالعرب ، فهم رجال القوافل وتجارها غير مدافعين في ذلك ، ولقد تحدث المسعودي في « مروج الذهب » عن قوافل العرب ومهارتهم في إعدادها كلاماً مسهباً » وفي كلام ابن بطوطة ما يفهم منه أن العرب اشتهروا بأمر تنظيم القوافل حتى أن تجار الترك والفرس والمغول كانوا لا يولون قيادة القافلة وتنظيمها إلا عربياً .

هذه القوافل كانت مسلكاً منتظماً من مسالك الإسلام ، فالعرب المسلمون هم سادة القوافل وأربابها ، ومعظم أهل القوافل كانوا مسلمين ، وكانت

هذه القوافل تخترق البلاد حاملة الإسلام إليها ، وكلما حطت القافلة في مكان رُفِعَ الآذان وأقيمت الصلوات ورأى الناس - إن لم يكونوا مسلمين - ألوف الناس منتظمين صفوفاً يقومون بصلاتهم في نظام وسمت ووقار وخشوع ، فيكون لذلك كله أبعد الأثر في قلوب الناس . هكذا انتقل الإسلام عن طريق التجارة والقوافل إلى وسط آسيا وجنوبها وجنوبها الشرقي ، وانتقل كذلك عن طريق القوافل من إفريقية المتوسطية عبر الصحراء الكبرى إلى إفريقية المدارية كما سنبين ذلك في مواضعه .

وكما كان العرب أمهر الناس في العصور الماضية في تنظيم القوافل وقيادتها فقد كانوا من أمهر الناس في ركوب البحار ، وقد اشتهر بذلك من العرب أهل اليمن وحضرموت وعمان خاصة . هنا نجد العرب قد مهروا في كل فنون الملاحة البحرية ، فأنشأوا مراكب التجارة التي تعبر البحار والمحيطات وأحكموها رغم صغر حجمها مثل الضو والبوم ، وعرفوا عمل الأشرعة وإحكام تركيبها وتسيير السفن بها في البحار العالية ، ودرسوا مهاب الرياح ومساقط الأمطار ومواقب الأنواء وأتقنوا فن الملاحة البحرية ودرسوا البحار وطرقها وموانئها وأنواءها وظهر من بينهم ملاحون كبار يسمون بالربابنة اشتهر منهم أربعة عرفوا بلبوث البحر أكبرهم وأشهرهم سليمان المهري وشهاب الدين أحمد بن ماجد .

ومهارة عرب جنوبي الجزيرة تلك في فنون الملاحة البحرية هي التي جعلتهم سادة هذه البحار حتى ظهر البرتغاليون في القرن السادس عشر الميلادي ، وقد ثبت الملاحون العرب للبرتغاليين ، وكان أهل عمان هم أول من كسر قوة البرتغاليين وأخرجهم من الخليج .

هذه التجارة البحرية التي مهر فيها العرب كانت مسلكاً عظيماً من مسالك الإسلام ، فسفن العرب هي التي حملت الإسلام إلى شرقي إفريقية

حتى سُقالة وموزمبيق ، وهي التي حملته إلى سواحل الهند الشرقية ثم بلاد ملقا ثم بلاد المهراج وهي أندونيسيا وما يليها إلى الشمال من جزر الفلبين .

● الحج :

ومسلك ثالث من مسالك الإسلام الكبرى هو الحج ، والحج ليس طريقاً وإنما هو عبادة أساسية من عبادات الإسلام ، ولكن أداء هذه العبادة اقتضى تنظيم طرق الحجاج أو طرق الحج ، وهي طرق معروفة استخدمت طرق التجارة حيناً وانتهجت لنفسها طرقاً خاصة بها في أحيان أخرى .

طرق الحجاج هذه كانت عامرة بالنشاط على مدار العام ، لأن ميقات الحج محدد ، ولكن موعد خروج ركب الحج لم تكن محددة ، فإن ركب الحجاج المغربي كان يخرج قبل موعد الحج بعام ، وكان ركب الحجاج الغيني يخرج قبل الموعد بستين في حين أن ركب الحجاج الأندونيسي كان يخرج قبل الموعد بمدة أطول ، لأنه كان يقطع الرحلة بالبر والبحر ، وفي كل ميناء كان الحجاج ينتظرون موعد السفينة الأخرى أو موعد خروج الركب إذا كانت المرحلة التالية بالبر . ومعنى ذلك أن طرق الحج كانت عامرة بالحركة على مدار العام . وفي رحلة ابن بطوطة تفاصيل توضح ذلك بأجلى بيان . لأن الحج كان المحرك الرئيسي لابن بطوطة في رحلاته ، فكان يطوف ويطوف ثم يحج ويعود بعد ذلك إلى الطواف .

وطرق الحجاج كانت تحترق بلاداً لا يسكنها مسلمون أول الأمر . فكانت هذه الطرق سبب دخول أهلها في الإسلام . وعندما فصل إلى القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي نجد أن طرق الحج تسير في بلاد إسلامية كلها والفضل في ذلك يرجع إلى الإسلام ثم الحج ثانياً . وكانت الطرق الصوفية مهتيةً واسعاً سلكه الإسلام للوصول إلى أقطار كثيرة وقاصية ويحتاج ذلك إلى حديث خاص .

وكانت للإسلام مسالك أخرى للانتشار دون حرب منها الدعاة الذين
نذروا أنفسهم لنشر الدعوة دون أن يتسبوا إلى هيئة أو نظام ، وسنلقي
في هذا المبحث الكثيرين من هؤلاء ونرى قدر العمل الضخم الذي قام به
أولئك الدعاة .

ثالثاً : لا يخلو بلد من بلاد الله من اسلام :

ولو أننا أردنا إحصاءً شاملاً بكل البلاد التي دخلها الإسلام بالدعوة
والكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة لاستغرق البحث أضعاف هذا
الكتاب لأن الإسلام كما قلنا دين الفطرة ، ينتقل من إنسان لإنسان ومن مكان
إلى مكان في خفة الهواء ■ والله سبحانه جعله قريباً إلى القلوب حياً إلى
النفس ، فما يكاد يعرفه إنسان صافي القلب سليم السريرة إلا وتفتح له قلبه
ودخل فيه .

ثم إن الله سبحانه وتعالى جعل في دينه الحنيف سرّاً يشبه البسم للقلوب ،
فما من محزون أثقلته الأحزان ، إلا وجد في الإسلام عزاءه وشفاء سقمه ■
وهذا ما نجده اليوم كثيراً في عالمنا الراهن في المجتمعات التي أبهظتها أثقال
المادية وأرهقتها مادية العصر ، ففي إنجلترا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة
ألوف دخلوا الإسلام فراراً بأنفسهم من متاعب العصر وحيرته وضباب
سلام النفس فيه . ولقد حكى ذلك المستشرق الانجليزي ديفيد كوران
David Cowan الذي وصل إلى أرفع درجات التدريس في مدرسة
الأبحاث الإسلامية في لندن ، وحدثني بقصة إسلامه ، وكيف أن الدنيا
ضاقَتْ به ذات مرة واستعصت عليه راحة النفس ■ حتى شرح الله قلبه
للإسلام وكان يعرفه حق المعرفة دراسةً ومعايشةً للمسلمين ، فوجد فيه
راحته الكبرى ، وكان يعلم أن إسلامه سيحول بينه وبين منصب عميد

المدرسة « فزهد في المنصب ووجد في الإسلام أسمى مكان تطمح إليه نفسه .
وحكا لي شيئاً شبيهاً بذلك المستشرق أربري الذي نقل القرآن إلى الإنجليزية ،
وحرص على أن يسمي ترجمته تفسيراً (١) ، لأنه أحس في نفسه أن كلام
القرآن لا ينقل إلى البشر إلا باللفظ الذي نزل به على رسول الله ، أما تفسير
كلام الله فجائز » والتفسير قد يكون بالعربية وقد يكون بغيرها ، وهذا
هو الذي فعله هو ، وكان يقول : إن كل ترجمة ، أياً كانت ، إنما هي
تفسير « فأنت إذ تنقل معنى عبارة إنجليزية إلى العربية لا تفعل أكثر من أن
تفسر باللغة العربية ما جاء في العبارة الإنجليزية ، ولهذا تسمى الترجمة في
بعض لغات الغرب بالتفسير Interpretation ويسمى المترجم في
اللغة الفرنسية بالمُفسر Interprète ومدارس الترجمة تسمى في بلاد
الغرب بمدارس المفسرين Ecoles d'interprètes .

نقول إن الإسلام في يومنا هذا مأمّن الكثيرين من الخائفين غير الراضين
عن مجتمعات الرقي المادي والصراع العنيف على متاع هذه الدنيا ، فيقبل
الناس على الإسلام ويجدون فيه شفاء الصدور « ولقد سألت واحداً من هؤلاء
المؤمنين الألمان في أحد مساجد برلين : ودينك القديم أما كان يجلب إلى
نفسك هذه الراحة وهو فيما أعلم دين سماوي يعبد أهله الله ؟ قال : أجل
كنت قبل أن أدخل الإسلام أعبد الله ، ولكنني كنت بعيداً عنه ، كنت
لا أصل إليه إلا عن طريق القس ، أما الآن فلإني مع الله حيثما كنت ، وهو
سبحانه معي حيثما أكون : أستغفره وأحمده وأشكو إليه همي وألمي ،
وأحس أنه قريب مني فطمئن نفسي وتهدأ ، وأجد راحة كبرى ، قلت له :
أما تعلم أن الله سبحانه وتعالى قال ذلك في محكم كلامه ؟ إسمع هذه الآية :
« وإذا سألك عبادي غني فلإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ،

فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » (البقرة ١٨٧) فقال وقد أشرق وجهه : ما سمعت هذه الآية قط ولكني كنت أحسها ، كنت أحس أن الله قريب مني يستجيب لي إذا دعوته .

• • •

وقد يبدو لبعض المبغضين للحق أن يجادل فيما ذهبنا إليه من أن الإسلام لم يتشر بالقوة قط « وينكر ما ذهبنا إليه من أن الفتوح ما كانت تقصد إدخال الناس في الدين رهبا ، وإنما كان قصدها أن تزيل العقبات التي تحول دون دخول الناس في دينه رغبا ، لأن كلمة الحق التي يأتي بها الإسلام ما تكاد تصل إلى النفوس الطيبة الصافية حتى تنفذ في شغافها وتنقلها إلى رحاب الإيمان . ولسنا بسبيل الجدل مع هؤلاء المنكرين المعاندين ، هؤلاء أهل جدل وإفك ، ومهما تأتتهم به من البيانات فهم لا يؤمنون « هؤلاء أعفانا الله سبحانه من عناء جدالهم إذ قال في سورة الكهف « ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل » وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ، وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين ، أو يأتيهم العذاب قبلا ، وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا » (آية ١٨/٥٥ - ٥٦) .

ولكننا لا نترك أولئك المجادلين بالباطل يسعدون بباطلهم « بل لا نزال ندعوهم بالحسنى ونأتيهم بالبيّنات » ونجادلهم بالتي هي أحسن ، مؤتسين في ذلك بمنهج نبينا صلوات الله عليه في موالاته الدعوة دون كلل أو ملل ، إلى جانب الحرص البالغ على أن تصل كلمة الحق إلى كل نفس ، فعمل ذلك أن يكون خلاصا لها ، واعتمادنا في ذلك على الله سبحانه وتعالى الذي يحق الحق ويذهب الباطل :

« بل نقذف بالحق على الباطل ، فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » (الأنبياء ١٨) .
أجل . لهؤلاء الجدلّيين نسوق براهين لا تحتل الجدل ، من أحاديث
أمم كاملة دخلت دين الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وحدهما ، فلم
يُفَرِّصَ على أهلها الإيمان ولا أوجِفَ على بلادهم بخيل ولا ركاب ، إنما
هي دعوة الحق وصلتهم ففضت المغاليق وفتحت الأبواب .

• • •

ومن المعروف عندنا أن بلاد الهند والجزء الغربي القصي من الصين
هما آخر ما وصلته جيوش الإسلام فاتحة ، فكل ما تلا ذلك شرقاً إنما هو
فتح خالص للإسلام وحده ، ولا جدال في ذلك ، وإذا كان الإسلام نفسه
هو الذي فتح قلوب الأمم والشعوب في البلاد التي شملتها موجات الفتوح «
فإن البلاد التي نتحدث عنها هي فتوح الإسلام وصوافيه وحده دون أدنى ريب .
ستتبع انتشار الإسلام فيما يلي الهند وغربي الصين شرقاً ونسير مع الإسلام
المظفر الفاتح ، فإذا فرغنا من ذلك عدنا إلى الغرب فدرسنا فتوح الإسلام ،
وحده في بلاد إفريقية المدارية مما يلي حزام الصحراء الكبرى جنوباً ، ثم نلم
بعد ذلك بأطراف من فتوح الإسلام بدعوة الحق وحدها في بقية بقاع هذا
الكوكب ، والله على كل خير مستعان .

● الاسلام فى برمانيا

وشبه جزيرة الهند الصينية

من نواحي الهند التي ضربت فيها جذور الإسلام وأزهرت شجرته وأبنت في تربتها ناحية مصب الجانج والبراهما جوترا « وهو مصب كبير يأخذ شكل دلتا كثيرة الفروع شبيهة بدلتا النيل » وهناك وإلى قرب مدينة بَتَّنَا نجد بلاد البنغال والبيهار ، وكلتا الناحيتين كانتا دائماً من أفقر نواحي الهند لكثرة السكان وتوالي جوائح الفيضانات « فإن الفيضان كلما جاء تغيرت مجاري ترع الدلتا وعدت المياه على القسرى والناس ، ونتيجة لهذا الفقر هبط مستوى أولئك الناس في بعض أحقاب التاريخ وتغلب عليهم جيرانهم واستذلوهم ، وهبطت مكانة معظم الناس هناك قبل الإسلام إلى مراتب المتبوذين ، وتعالى عليهم البراهمة والهندوس ، فلما جاء الإسلام بسماحته ومساواته أقبلت جماهير البنغاليين والبهاريين على اعتناقه ووجدوا فيه الكرامة والإحساس الإنساني ، وأعزهم الله بملوك المسلمين أيام الخُلَيجِيِّينَ ومملوكهم كافور (١٢٩٠ م - ١٣٠٧ هـ) فارتفع قدرهم وتحسنت أحوالهم ونشطوا للعمل وخف عنهم الفقر ، وأقبلوا يعالجون ضبط الترع بما قبسوه من علوم من أُنَاهُم من العرب والفرس. فانتعشت بلادهم وأحسوا بنعمة الإسلام عليهم ، فأكثروا من المساجد في بلادهم حتى أصبحت أعمر بلاد الدنيا بها ، وإذا كنا نقول إن القاهرة مدينة الألف مثقلة ، فإنهم هناك يقولون إن « دكا » مدينة الألفي مسجد ، وتلك هي البلاد التي انفصلت بنفسها عن باكستان وأنشأت لنفسها دولة البنجلادش أي وطن البنغال .

وعندما نشطت حركة العمران واتصلت وشملت تلك البلاد نشط تجارها

وانطلقوا بالتاجر إلى بقية بلاد الهند وإلى ما يليهم شرقاً من بلاد برمانيا ، وهي بلاد أنهار كبيرة أهمها الايراوادي والميكونج ، وهي كذلك بلاد غابات وأحراش كثيفة ، وكانت طرق المواصلات فيها تسير مع الأنهار وترعها ، إما في القوارب أو سيراً على القدم والظهر مع شواطئ الأنهار والترع .

وكانت بورما في القرن الرابع عشر الميلادي ، عندما دخل الإسلام بلاد البهار والبنغال تسمى برمانيا ، وكانت تنقسم قسمين ، برمانيا العليا وعاصمتها آنا على نهر الايراوادي وبرمانيا السفلى وعاصمتها ييجو على مصب الميكونج ، وكانت البلاد المجاورة للبنغال من برمانيا تسمى أراكان ، وكانت مملكة قائمة بذاتها فشمها الإسلام ، وامتد إلى برمانيا ، وأنشأ تجار المسلمين مراكز العمران والمساجد وسط الأحراش على ضفاف الإيراوادي والميكونج ، وكانت تلي برمانيا شرقاً من بلاد ما يعرف الآن بالهند الصينية بلاد سيام وهي تقابل اليوم ما يعرف بتايلاند أي أرض التاي أي أرض الشاي وكانت عاصمتها أيوتيا ، ثم إلى الشرق نجد بلاد كمبوديا في مثل وضعها اليوم ، وإلى شمالها لاوس ثم أنام وهي ما يعرف الآن بالفييتنام شمالها وجنوبها . وسكان هذه البلاد جميعاً صينيون وسياميون ، وكانت سيام تمتد مع شبه جزيرة الملايو حتى خط عرض ٧ شمال خط الاستواء تقريباً وجنوب ذلك بلاد الملايو بما فيها ملقا ، ويسكنها شعب آخر يختلف كل الاختلاف عن الصينيين والسياميين ، ذلك هو شعب الملايو الذي يرجع إلى أصول أخرى غير أصول الصينيين فسكانه من الجنس البولييزي الذي يعم جنوب شرق آسيا كله بما فيه الفليبين والجزر شمالها إلى هاواي .

ومن بلاد أراكان انتقل الإسلام مع التجار إلى برمانيا وكسب الألواف من سكانها رغم الحرب العنيفة التي أعلنها عليه البوذيون ، وكهنة البوذيين من أشد الناس دفاعاً عن مذاهبهم ، لأنهم سادة مجتمعهم وشركاء الملوك

في خيرات البلاد ، وهذا كان بعض السبب في انتقال الصين والفييتام وأجزاء أخرى من معاقل البوذية إلى الشيوعية ، فإن ذلك ليس إعجاباً بها ولا إيماناً بمبادئها ولكنه ضيق وتفقر من طول ما أثقل كهنة البوذيين على الناس .

سار الإسلام في برمانيا مع مجاري الأنهار ، وعلى سواحل الطرق المائية والبرية ، قامت الجماعات الإسلامية والمساجد وتركزت في كبار القرى ، لأن كهنة البوذية والهندوكية قاوموا إنشاء المساجد في بلادهم ، واستعانوا في حرب الإسلام بالملوك وأصحاب المال والجاه ممن رأوا في الإسلام تهديداً لمراكزهم السياسية والاجتماعية .

ثم جاء تجار المسلمين من نواحي بلاد الهند الأخرى ومن إيران أيضاً فاستقروا في مدن الساحل وأنشأوا المتاجر ونشروا الإسلام ، ولكن أمر الإسلام لم يعظم هناك بسبب المقاومة الشديدة التي لقيها من كهنة البوذيين . ومن سوء الحظ أننا نجد في برمانيا أكبر معاقل البوذية الشانسية ، واليونجي أو الراهب هو السيد المطلق في القرية أو الحي ، والمعبد الذي يسمى « باليونجي - كيانوجي » هو مركز الحياة في القرية ، والبوذية مذاهب شتى ، ولكن مذهب الشانسية منها فيه مشابيه كثيرة من الإسلام في الظاهر فأصحابها يؤمنون بالبعث وحياة أخرى طيبة إذا كان المرء طيباً وشقية إذا كان خبيثاً ، ومن أعمال التقى عندهم إطعام الفقير وابن السبيل وإنشاء الباجودات وهي معابد البوذية ، وهم يُخرجون من أموالهم تبرعات تشبه الزكوات ويشترون بها الطعام ويجعلونه على أبواب المعابد ليطعم منه من شاء ، وربما كان هذا هو الذي حال دون توسع انتشار الإسلام في برمانيا، فإن الرجل من البرمانيين لم يدرك الفرق بين البوذية الشانسية التي هو عليها وبين الإسلام، والتشابه كما قلنا ظاهري ، ولكن الكهنة اجتهدوا في إقناع الناس بأن التشابه ظاهري وباطني .

على أي حال أنشأ الإسلام جماعات قوية من المسلمين في المدن والقرى

ولكنها لم تزد كما ستردهر جماعات المسلمين في ملقا وهي بلاد ككله أو كلابار .

وبلاد الهند الصينية ليست من أوعر بلاد الأرض سطحاً ، ولكنها من أصعبها مواصلات ، فإن الجبال والمرتفعات والأراضي القاحلة ومناطق الأحراش تضع سدوداً وقيوداً حقيقية على التواصل والتلاقي ، ولهذا انقسم شبه الجزيرة هذا إلى هذه الأقسام السياسية المتعددة ، وسكنتها شعوب مختلف بعضها عن بعض كل الاختلاف بسبب صعوبة التواصل . والفرق جسيم بين السياميين الشديدي السمرة والأناميين صغار الأحجام أهل البثرة البيضاء ، والكمبوديين الذين لا يجمع بينهم وبين جيرانهم في شبه الجزيرة إلا الملامح الخاصة بالجنس الأصفر . ولكنها هناك لا تكاد تبين ، ولقد عُرِف الصينيون بالإقبال على الهجرة والمعرفة بثئون التجارة ، ولهذا كثرت أعدادهم في كل بلاد شرقي آسيا ، إلا في الهند الصينية ، فهم لا يمثلون هناك إلا واحداً على خمسين من كتلة السكان ، وغالبية السكان هم الأناميون الذين يعمرون الثلث الغربي لشبه الجزيرة ويلي الأناميين في جنوبي شبه الجزيرة يعيش جنس التّجام أو التّشام ، وهم أناميون في الأصل ، ولكنهم سكنوا السواحل والطرف القصي الجنوبي من شبه الجزيرة الذي يسمى يُتُنْكِين ثم الأراضي المتصلة بملقا أو بلاد ككله ، وبين هؤلاء انتشر الإسلام وعم معظمهم ، لأن وجودهم على السواحل واشتغالهم بالتجارة يَسّر اتصال الإسلام بهم فدخلوا فيه . وقد آثار ذلك غضب كهنة البوذية فناصروا التّجاميين العداء واضاعفوا جهودهم في ردهم إلى البوذية فلم يوفقوا ، وثبت الإسلام عند التّجام أو التّشام ، وانتشرت المساجد في بلادهم وفي شبه جزيرة ملقا .

ومن الواضح أن الإسلام وصل أولئك الناس في شبه جزيرة ملقا عن طريق التجارة ، والغالب أن أولئك التجار لم يكونوا من العرب أو الفرس

بل من الهنود ، لأن مصطلح الإسلام هناك شديد التحريف وإن كانت العقائد والعبادات نفسها صحيحة . ويؤيد ذلك أن قلة من أهل شبه الجزيرة يتكونون من التامول ، وهم جماعة من الهنود هاجرت إلى جنوبي الهند الصينية واستقرت فيها واختلطت بأهلها ، ومن الممكن القول بأن التامول قاموا بدور كبير في نشر الإسلام في الهند الصينية ، فالتامول هنود مسلمون أهلُ سَنة ، وهم أهل رحلة وأصحاب متاجر ، ولعل هذا هو السبب في إسلامهم ، فقد اتصلوا بالعرب ، وهم أيضاً أصحاب رحلة ومتاجر ، ثم قام التامول بدورهم بنشر الإسلام بين جماعات التَّجَّام في الهند الصينية ربما في القرن الرابع عشر الميلادي ، فقد انتهت دولة الخَلْجِيَّين في الهند سنة ١٣٢٠ م وهي التي وسعت نطاق الإسلام في شمال شرقي الهند ، ثم أن التجام أنشأوا بعد ذلك دولة كبيرة في أنام عرفت باسم دولة الشامبا على الشاطئ الشرقي للهند الصينية أي في إقليم أنام ، ولكن هذه الدولة كانت قصيرة العمر .

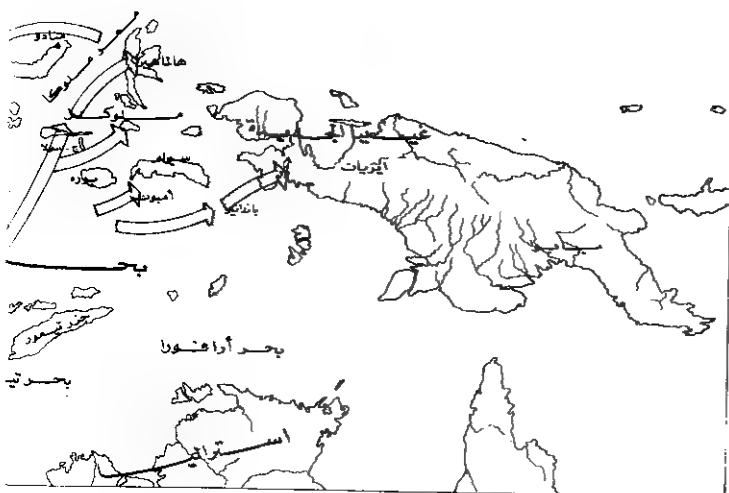
وإلى يومنا هذا لا زالت بقايا أولئك المسلمين الأتامين تعيش في جنوبي الهند الصينية في أعداد صغيرة . ولقد حاربتهم الشيوعية التي انتشرت هناك ، فهجر معظمهم إلى كمبوديا ، وإلى هناك طاردتهم الشيوعية أيضاً ، فإن كمبوديا تعاني من جماعات الشيوعية فيها ومن عدوان شيوعية الفيتنام عليها . حقاً إن عددهم قليل اليوم ، ولكنهم من الصابرين المحسنين ، فهم من الذين يصلق عليهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (القابض على دينه كالقابض على الجمر) ، وأمثال هذه الجماعات الإسلامية المضطهدة جديرة منا بكل عون وعناية ، والذي يخشى اليوم هو أن تهاجر بقية أولئك المسلمين الذين يعيشون في محنة إلى بلاد الملايو وهي شبه جزيرة ملقا وستنقل للكلام على الإسلام فيها بعد قليل .

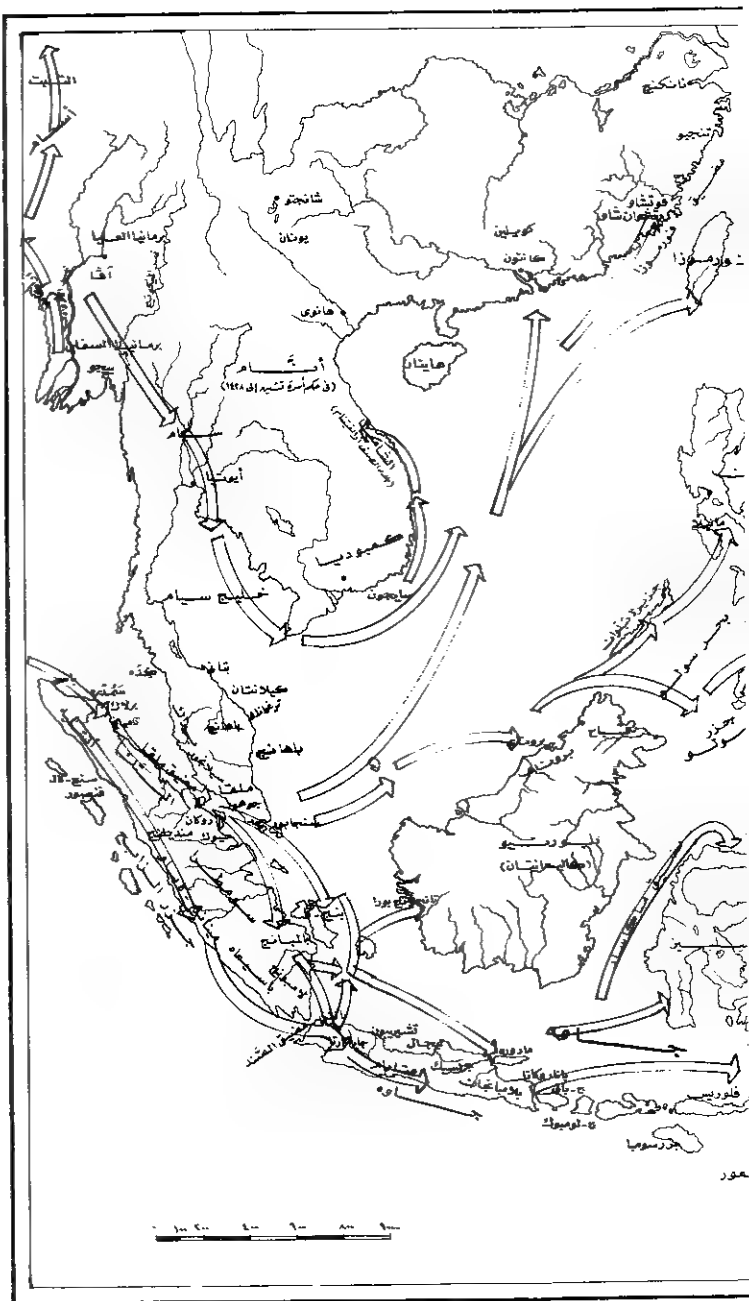
يتجمع المسلمون في كمبوديا والفيتنام في مراكز معينة في الجنوب ،

انتشار الاسلام

في الهند الصينية والصين الجنوبية
وجزر أندونيسيا والفلبين

لوزو





وهم ليسوا جميعاً من التجار فقط وإنما نجد فيهم الكثيرين من مهاجرة الملاويين إلى الهند الصينية « وأكبر مواضع تجمعهم في سايجون وتشولون ونشأودوك وكوشن - شين وبنوم - بنه وكامبونج - لودنج وكامبونج - تشام ولوفيك وكامبوت وبورسات وبضع مواضع أصغر من هذه وهم وهم يجرؤون في ممارسة عباداتهم على مثال إخوانهم مسلمي الملايو ، ويعيشون بمجموعات متماسكة قوية ناجحة ومرهوبة الجانب » وهم على الحملة من أنجح أهل الهند الصينية في التجارة وشئون المال ، وهم مهرة في شئون الزراعة وصيد السمك ، ونجاحهم يجلب عليهم السخط والحسد ، ويثير سخط الناس عليهم كهنة البوذية . ومعظم أولئك المسلمين أهل سنة وإن كان فيهم بعض الشيعة » وهم يقرأون ما تدعو إليه حاجة الصلاة من القرآن قراءة صحيحة ، وفيما عدا ذلك فإن ألفاظ العربية تتحرف على ألسنتهم تحرفاً قد يخفى أصولها . وهم يقيمون صلواتهم بانتظام ويحرمون أكل لحم الخنزير والكلاب والسلاحف والتماسيح والبقيلة والطواويس والصقور والنسور . والكثيرون منهم يحملون لقب الحاج ، ومساجدهم كثيرة وصغيرة ، وهي تبنى في الغالب من الخشب على فئسز من الأرض وهي تفرش بالحصير . وفي مدخل المسجد حوض ماء للوضوء « ويستعمل المسجد كما هو الحال في معظم بلاد المسلمين مدرسة لتعليم الصغار وتحفيظهم القرآن الكريم بصورة خاصة ، وهم لا يتركون صوم رمضان قط . وهم ينطقون لفظ الجلالة « أوغلا » . يريدون الله . وإلى جانب أسماء أولادهم الملاوية أو الكمبودية يعطون الأولاد أسماء إسلامية هي في الغالب عبد الله أو محمد أما البنات فمعظمهن يسمين فاطمة وينطقونها « فواطمه » .

وهم يستعملون في مصطلحهم الديني الألفاظ العربية محرفة ، وقد أخذوا هذه الألفاظ عن أساتذتهم الملاويين ، فنجدهم يقولون : مؤفاني (مفتي) وقُوح كالل (كالم : قاضي) وراجاله كالل (قاضي) وقوان

بآكيه (قيه) وحكيم (طيب) وكتيب (خطيب) والمؤذن عندهم يسمى بلالاً أياً كان اسمه .

ومعظم القائمين بأمور الدين فيهم من الحجاج الذين أدوا فريضة الحج ودرسوا شيئاً من الدين في الحجاز ثم عادوا ليكونوا أئمة وخطباء في المساجد .

وهكذا وبفضل حماس البنغاليين والبيهاريين ودعاة آخرين انتشر هذا الدين الخفيف كما رأينا في الكثير من نواحي شبه جزيرة الهند الصينية . وحسب الله إلى أهلها الحج إلى بيت الله الحرام ، فيتحمل الرجل منهم مشاق الرحلة وفقفاً ليزور مهد الإسلام ويؤدي فريضة الحج ويعود حاملاً لقب حاجي . ولهذا اللقب عندهم مقام عظيم ، وقد انصرف الكثيرون من هؤلاء إلى الدعوة للإسلام فساروا شرقاً في رفقة التجار وقوافلهم ، وصاحبهم كذلك نقر من العبادة والزهاد وجعلوا دأبهم نشر الإسلام وبناء المساجد حيثما استقروا ، وقد نجح الكثيرون من هؤلاء في نشر الإسلام في سيام وبرمانيا وأنام . وكانت شعوبها كلها تعرف عندهم بشعوب الخير ، وقد قيل إن بعضهم كان يستطيع أن يدخل في الإسلام ما بين مائة وثلاثمائة من الناس في يوم واحد .

ومن أشهر هؤلاء الداعية المشهور سيد يوسف الدين . وقد بارح هذا الشيخ الصالح وطنه بغداد إلى بلاد السند لنشر الإسلام بين أهلها ووفق توفيقاً كبيراً ، ثم انتقل إلى البنغال وواصل الدعوة بنجاح ، ومن هناك صار في قوافل التجار إلى بلاد برمانيا وسيام وفي برمانيا أنشأ زاوية لطريقته الصوفية وأنشأ كذلك عدداً كبيراً من المساجد ، ووضع الجماعات الإسلامية في برمانيا نظاماً سليماً قبل وفاته . وإلى يومنا هذا يعتبر السيد يوسف الدين أشهر شخصية إسلامية في الهند الصينية .

ومن أسف أن انتشار الشيوعية في نواحي بورما (برمانيا) وتايلاند يُسبَّبُ الآن متاعب كبيرة للمسلمين في تلك الأصقاع ، وكان أول من حارب الإسلام فيها واجتهد في إيقاف تقدمه المستعمرون ، ما بين انجليز وفرنسيين ، وكان الأوروبيون عندما تمكنت لهم الأمور في جنوبي آسيا خلال القرن الماضي — وهو التاسع عشر الميلادي — قد وجدوا في الإسلام عقبة كبرى في مد سلطانهم ، وكانت الجمعيات التبشيرية نشيطة جداً « إذ كان أمل أولئك الناس عظيماً في أن يستطيعون بما لهم من سلطان سياسي أن يدخلوا أهل البلاد — مسلمين وغير مسلمين — في دياناتهم ، فأنفقوا الأموال الكثيرة في ذلك المطلب دون نتيجة تذكر « ولكنهم على أي حال أذاعوا عن الإسلام أباطيل كثيرة وأساءوا إلى أهله وحرضوا الناس عليهم . ثم إن المستعمرين ظنوا أنهم يضربون الإسلام إذا هم أحيوا البوذية وشجعوها وتقربوا إلى الكهان ، وقد كان لذلك أثره غير المحمود بالنسبة للإسلام والمسلمين . ومن هنا بدأت محنة الإسلام في معظم بلاد جنوبي آسيا شرقي الهند « فسواء في بورما وهي برمانيا أو تايلاند وهي بلاد سيام أو كيبوديا ولاوس والفيتنام بقسميها نجد الإسلام اليوم يحارب في سبيل البقاء ، ونجد المسلمين على كثرتهم يعانون من الاضطهاد والمطاردة ، وتلك مشكلة كبرى من مشاكل الإسلام المعاصر .

● انتشار الإسلام فى جزر المهرج (١)

كان العرب سادة التجارة فى المحيط الهندي وبحار جنوب آسيا حتى مجيئ البرتغاليين أوائل القرن السادس عشر الميلادى . وهذه السيادة التجارية هي التي مكنت لتجار المسلمين ومن جاء معهم من الدعاة من أن يكسبوا للإسلام ثاني أقطاره سعة وتعداد سكان وثروة ، وهي جزائر المهرج أي أندونيسيا أو بلاد الثلاثة آلاف جزيرة .

ومن العسير تحديد تاريخ دخول الإسلام هذا البلد الكبير . وتحكي المراجع أن تجار المسلمين أنشأوا لأنفسهم مراكز تجارية على السواحل من وقت مبكر ، ربما في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث الهجريين ، الثامن والتاسع الميلاديين ، ونقطة الخلاف هي : من أين أتى أولئك التجار المسلمون : من شبه جزيرة الملايو أم من الهند ؟ والرأي الراجح هنا أن أوائل المستقرين من الذين قاموا بالدعوة للإسلام في الجزر كانوا من العرب ، ثم تبعهم الهنود . ويذهب سنوك هـر جـرُونِيَّة إلى أن معظم الهنود الأوائل أتوا من ناحية الكُجَرَات في شرقي الهند ، وكانت مراكزهم الأولى على الشاطئ الغربي لسومطرة ، وكانوا يسمونها

(١) ورد هذا الاسم لجزائر اندونيسيا عند المسعودي ، أما ابن بطوطة فيسميها جاوة الصغرى و جاوة الكبرى ، وبقية الجغرافيين العرب يسمونها فى بلاد الملايو . والاسم القديم لهذه الجزر هو فوسانتترا ، وعندما استقلت اندونيسيا كان هناك اتجاه يرى إطلاق اسم فوسانتترا عليها ، ولكن الرأي استقر في النهاية على اسم اندونيسيا ، والاصح أن نقول هندونيسيا ، وفى بعض الاحيان يطلق على جزيرة سومطرة اسم جزيرة الزايغ .

سَمْدُرَة « ومن الثابت أن العرب جاءوا إلى سومطرة بالذهب الشافعي ، وأن الهنود أتوها بالذهب الخنفي ، وكان المذهب السائد بين مسلمي السواحل الغربية للهند إذ ذاك ومنها أتوا . ويحكى ابن بطوطة أن سلطان سَمْدُرَة المسلم في القرن الرابع عشر كان على علاقات ودية مع سلاطين دهل من المغول .

وقد أثبتت الأبحاث الأثرية أن المسلمين عرفوا الجزر الأندونيسية — وخاصة سومطرة — من وقت مبكر ، فهناك قرب سَمْدُرَة التي ستحدث عنها بعد قليل عثر الباحثون على شاهد قبر لرجل مسلم توفي هناك سنة ٦٧٠م (١٢٦٠هـ) وليس ذلك بمستغرب فقد عرف الملاحون العرب بلاد الملايو وجزر أندونيسيا من قبل الإسلام ، ولدينا كتابات كتبت بالخط المسند على آثار وجدت في شمالي سومطرة ، ويظن أن أصحاب هذه الكتابات كانوا أصحاب مخازن ومنشآت تجارية عربية في تلك الجزر . وبعد دخول العرب جميعاً في الإسلام زاد نشاط تجار عُمان وحضرموت واليمن في التجارة مع أهل تلك الجزر ، وقد بعث الإسلام فيهم روحاً جديدة وأعطاهم طابعاً حضارياً أرقى بكثير مما عرفته الجزر إلى ذلك الحين ، ونستطيع القول بناء على المعلومات التي يقدمها المسعودي في « مروج الذهب » عن هذه الجزر أنها كانت إذ ذاك معروفة للمسلمين معرفة كبيرة « فهو يذكر بحر كلاهبار (كله بار) ويقول « وتفسير ذلك بحر كله ، وبحر كدرنج (١) ثم يليه بحر الصنف وهو البحر الواقع شرقي الهند الصينية ، ويقول المسعودي « وفيه مملكة المهرج وجزيرة سريره ومساحتها في البحر نحو من أربعمئة فرسخ ، عمائر متصلة به جزيرة الزابج والرامني (٢) والزابج هي جزيرة سومطرة ورامني مجموعة من الجزر غربي سومطرة تسمى

(١) صحته كندرنج وهو في رأى جابريل . فران راس سان جاك على الساحل الشرقي للهند الصينية (انظر العرب والملاح في المحيط الهندي) تأليف جورج فضلو ترجمة د. يعقوب بكر ، ص ٢٢٢
(٢) المسعودي : مروج الذهب ١/ ١٥٤

أحياناً (واقواق الصين) أما سريرة فالغالب أنه اسم مملكة كانت في سومطرة إذ ذاك .

وقد انتهج تجار المسلمين ودُعائهم نهجاً قوياً في سلوكهم ومعاملاتهم مع الناس مما أدى إلى اجتذاب الناس لدين الله وإدخالهم فيه ، فوثقوا علاقاتهم بالناس واختلطوا بهم وتزوجوا معهم وأدخلوهم في الإسلام ، فنشأ أولادهم مسلمين ، وعن هذا الطريق تمول التجار واقتنوا الضياع والدور واتخذوا العبيد وأدخلوهم في الإسلام ، وأصبحت لهم منعة وقوة بفضل معارفهم وأصهارهم وأولادهم ورقيقهم ، وأصبح لهم تبعاً لذلك بين الناس جلالة ، وقدر ، وتعاونوا فيما بينهم في ذلك فزاد جاههم ، خاصة وقد تكلموا لغة أهل البلاد وأدخلوا الأغنياء وعلية القوم وأهل السطوة من أهل البلاد في الدين . وكانوا بطبيعة الحال أهل حضارة وثقافة بفضل الإسلام وحضارته ، ومن هنا تمكنوا من احتلال مكانة رفيعة وأصبحوا قادة الناس وزاد دخول هؤلاء في الإسلام .

— سومطرة

ويبدو أن أول جماعة إسلامية ذات قدر قامت في أندونيسيا كانت في إنجيه أو اتشيه Acheh في شمال غربي سومطرة أو سمودرة ويقال كذلك أن منشأها كان داعية عربياً يسمى عبد الله عارف ، وقام تلميذ له يسمى برهان الدين يحمل الدعوة حتى بريامان على الساحل الغربي لسومطرة أيضاً ، وبلغ من تمكن الإسلام هناك أن رجلاً مسلماً استطاع أن يقيم أسرة حاكمة وتسمى باسم جيهان شاه « ويغلب على الظن أنه هندي الأصل ، ثم لم يلبث أن أصبح أندونيسياً ، وتزوج من أهل البلاد وتسمى باسم سيرري بندو حواسلطان :

ظل انتشار الإسلام في سومطرة مقتصرأ على السواحل زمناً طويلاً ، لأن الهندوكية كانت عميقة الجذور في الداخل تؤيدها مملكة تسمى منانج كاباو .

ويقول ماركوبولو الذي قضى خمسة أشهر على ساحل سومطرة الشمالي في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي أن غالبية السكان هناك كانوا على الوثنية فيما عدا مملكة برلاك الواقعة على الساحل الشمالي الشرقي لسومطرة تجاه ملقا ، فقد كان أهلها فيما قال مسلمين بسبب كثرة تجار العرب هناك .

ومن «اتشيه» تقدم الإسلام جنوباً على ساحل سومطرة الغربي حتى وصل المسلمون في الساحل الجنوبي ثم الشرقي وصعدوا وامتساحلين حتى وصلوا إلى أرو Argu تجاه ملقا أيضاً ، وبذلك وصلوا إلى مملكة برلاك من الناحية الشرقية ، وكان زعيم الجماعة التي حملت الإسلام هذه المسافة الطويلة يسمى الشيخ إسماعيل ، كان شريف مكة قد أرسله ليعمل على نشر الإسلام في سومطرة ، ومن برلاك سار الشيخ إسماعيل إلى مدينة سمودرة وكانت الرياسة فيها لرجل يسمى ماراسيلو فتمكن الشيخ إسماعيل وجماعته من إدخاله في الإسلام ، وتسمى بعد إسلامه باسم الملك الصالح ، وتزوج ابنة ملك برلاك وأنجب منها ولدين ، وعمل على توسيع رقعة مملكته الإسلامية ، فضم إليها مملكة باساي على الساحل الشمالي لسومطرة ثم أورث كلا من ابنه نصف مملكته .

وقد كان ابن بطوطة في سمودرة سنة ١٣٤٥م وهو يتحدثنا عن ملكها المسمى بالملك الظاهر واتساع ملكه وعدله وتقواه وثروته . ويبدو أن الملك الظاهر كان أحد ولدي الملك الصالح الذي ذكرناه .

وفي نفس الوقت كان الإسلام قد أخذ طريقه في داخل الجزيرة حيث دخل الناس فيه أفواجا ، ولكنه لقي مقاومة من أهل مملكة البتاك في وسط الجزيرة ، غير أن هذه المقاومة أخذت تضعف نتيجة لسياسة الهولنديين في القضاء على القوى السياسية القائمة في جزر أندونيسيا ، فلما قضوا على السلطان السياسي للبتاك انفتح الطريق أمام الإسلام ، وأقبل عليه الناس أفواجا ، واعتبروا

الدخول في الإسلام تعبيراً عن احتجاجهم على الهولنديين ، بل بلغ من إقبالهم على الدين في بلاد البتلك أن من كان قد تنصر من أهلها على يد هيئات التبشير انتقل إلى الإسلام الذي اتخذ طابعاً قومياً محلياً . ولهذا السبب نجد أن الإسلام تمكن من اجتذاب أهل بلاد بالمبانج الواقعة في جنوب سومطرة ولم يتم إسلام هذه البلاد إلا في أوائل القرن العشرين .

— جاوة

وقد دخل الإسلام جاوة من شبه جزيرة ملقا ، ولم يلبث أن عمها جميعاً بعد جهود طويلة ومثابرة من الدعاة لأن دعائه لم يجدوا أية مقاومة ، فإن معظم الجاويين في دواخل الجزيرة كانوا في ذلك الوقت على الوثنية فسهل انتقالهم إلى الإسلام ، ويرجع معظم الفضل في ذلك إلى داعية نشيط يسمى الشيخ ابراهيم المتوفي سنة ١٤١٩م ، وستحدث عنه فيما بعد ، فقد تمكن هذا الرجل وتلاميذه وأتباعه ومن جاء بعدهم من إدخال أهل جاوة جميعاً في الإسلام قبل القرن السابع عشر ، وأصبح الشعب الجاوي من ذلك الحين شعباً إسلامياً أصيلاً حتى أنشئ لطلابهم رواق خاص بهم في الأزهر الشريف سمي برواق الجاويين . وللإسلام في جاوة تاريخ طويل ، لأن جزءاً كبيراً من المناطق الساحلية لجاوة عندما وفد الإسلام عليها على أيدي تجار العرب ومهاجرينهم كان داخلاً في نطاق الديانة الهندوكية وحضارتها وكانت التقاليد الهندوكية قد ارسست قواعدها على سواحل الجزيرة فلم يستطع دعاة المسلمين وتجارهم أول الأمر هناك شيئاً .

ويقال أن بواكير إسلام جاوة بدأت على يد أمير من أبناء ملك « باجاجاران » وكانت مملكة صغيرة على الساحل الغربي للجزيرة ، ويقال إن هذا الرجل ترك العرش لأخيه واشتغل بالتجارة ، فذهب إلى بلاد العرب وهناك أسلم وتسمى باسم حاجي برُّوا ، وعندما عاد إلى وطنه لم يوفق إلى إدخال أخيه وأسرته في الإسلام فهرب إلى الأدغال واختفى .

وفي النصف الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي قامت حركة جديدة للدعوة على يد داعية يسمى ملك ابراهيم أو الشيخ ابراهيم يقال أنه من أحفاد زين العابدين حفيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد استقر هذا الرجل داخل الجزيرة بين القبائل الفطرية وأخذ يدعو إلى الإسلام ، وطمحت نفسه إلى أن يكسب إلى الإسلام راجاما جاباهيت « الهندوكي وكانت مملكته تشمل معظم الجزيرة وكاد يوفق لولا ظروف سيئة لا يد له فيها حالت دون توفيقه ، ولكنه كسب إلى الإسلام عدداً ليس بالقليل من سكان الجزيرة ، وتوفي سنة ١٤١٩ م ودفن في جريسك ، وما يزال قبره هناك إلى اليوم ويفهم من رواية لسائح صيني زار جاوة سنة ١٤١٣ م أن المسلمين كانوا قد كثروا في البلاد حتى أصبحوا يعدون من الطبقات الظاهرة في المجتمع .

وفي ذلك الحين كانت تقوم في الجزيرة الإمارات الوسطى والشرقية وكانت أغنى هذه الإمارات وأكبرها أماره ماجاباهيت الهندوكية التي ذكرناها آنفاً . وفي أقصى الغرب قامت أمارات أخرى أكبرها تشيرمبون . وقد انتشر الإسلام في شرق الجزيرة بفضل داعية من أصل ملوكي يسمى « رادن رحمت » أقامه راجا ماجاباهيت أميراً على بلدة تومابل على الساحل الشمالي الشرقي ، فحول أهلها كلهم إلى الإسلام .

وكان رادن رحمت قد أرسل داعية يسمى الشيخ خليفة حسين إلى جزيرة مادورة فتمكن من تحويل أهلها للإسلام ، وبنيت المساجد في كل هذه الأقطار التي دخلت دار الإسلام . وفي سنة ١٤٧٨م تمكن المسلمون من القضاء على سلطان راجاماهيت حامي الهندوكية ، وبذلك انتقلت السيادة في شرقي جاوة إلى المسلمين ، ثم انتشر الإسلام في جنوبي جاوة . وتأخر إسلام وسطها بضعة قرون ، ولكنه تم بعد جهود مفضية قام بها الدعاة وأهمهم الشيخ نور الدين ابراهيم أحمد ، وقد أرسل هذا الشيخ ابنه مولانا حسن الدين إلى ولاية بنتام

في الغرب فتجح في إدخال أهلها في الإسلام . وخلال القرن السابع عشر نجد أن غربي جاوة قد تم إسلام أهله وبذلك أصبحت جاوة بلداً إسلامياً .

— بورنيو (كليماقتان)

ومن جاوة وسومطرة انتقل الإسلام إلى جزيرة بورنيو وانتشر على ساحلها الغربي والشمالي ، وتحولت سلطنة بروناي إلى الإسلام بعد أن عم الإسلام غربي الجزيرة كله . أما بلاد الداخل فقد أبطأ توغل الإسلام فيها نظراً لوعورة سطحها وتفرق الداخل بين مئات من القبائل الوثنية .

وانتقل الإسلام من جاوة إلى مجموعة جزائر سلبيس ودخلت فيه دون صعوبة القيلتان الكبيرتان اللتان تسيطران على الجزيرة وهما ماكتبار والبوجي ثم لم تلبث قبيلة الغور التي تقطن الداخل أن أسلمت ، وطلب المسلمون من في سلبيس أئمة ودعاة من أهل مملكة اتشييه فلبوا طلبهم وأرسلوا إليهم عدداً كبيراً من الدعاة .

وفي أوائل القرن السابع عشر كانت كل مجموعة جزائر سلبيس قد دخلت في الإسلام وتبعها جزيرة لومبوك « أما جزيرة بالي الواقعة بين لومبوك وجاوة فقد كان الإسلام قد غزا جزءاً منها عندما أقبل الهولنديون ، وقد افتتن هؤلاء بها نظراً لجمال مناظرها الطبيعية ومعابدها البوذية وحسن نسائها وامتيازهن في الرقص الأندونيسي التقليدي ، فاعتبروها منطقة تسلية ومنتعة وسياحة . وأنشأوا فيها الفنادق ودور اللهو ، ولم يأذنوا للدعاة بالعمل فيها فتوقف انتشار الإسلام فيها ، ولا زالت إلى يومنا هذا جزيرة سياحية أو مركزاً للهو في هذا الأرخبيل الكبير .

أما مجموعة جزر الصند الصغرى التي تلي لومبوك شرقاً وأكبرها جزيرة تيمور فقد دخلت في نطاق الإسلام في نفس الوقت أي خلال القرن السابع

عشر « وقد ضمتها جمهورية أندونيسيا إلى بلادها في الستينات من هذا القرن عقب وقوع الانقلاب الحالي في البرتغال بعد موت المستبد العاشم سلازار . ومن غرب سومطرا هاجرت إلى شبه جزيرة الملايو جماعات إسلامية فيها تجار ودعاة كثيرون واتجهت إلى الطرف الجنوبي من ملقا وأخذت تعمل على نشر الإسلام من أواسط القرن الثاني عشر الميلادي ثم صعدت حتى وصلت مدينة ملقا عاصمة مملكة ملقا . ثم أقبل إلى هذه المملكة تاجر وداعية عربي من جدة يسمى سيلني عبد العزيز ، وقد تمكن هذا الشيخ من إقناع ملك ملقا بدخول دين الله وسماه محمداً « وتبعه في إسلامه أهل مملكته وأصبحت مملكة ملقا أولى الممالك الإسلامية في شبه الجزيرة وتبعها غيرها . مثل مملكة قويدة في شمال شبه الجزيرة « وقد تم إسلامها سنة ١٥٠١ ، وكانت قبل ذلك هندوكية يحكمها ملك يلقب بالراجا وقد دخل الإسلام هذه المملكة على يد داعية عربي يسمى عبد الله . وأمر الراجا ببناء المساجد في بلاده ، وجعل لكل مسجد أربعين من القومة لصيافته والإشراف على شئون العبادة ثم اتصل راجا قويدة بسلطان انجي « وأرسل هذا إليه كتاباً بخطبه وده وأرسل إليه بعض الكتب الدينية الإسلامية .

وهكذا نرى أن الإسلام في مسيره في جزيرة أندونيسيا التي كانت تسمى بجزر الهند الشرقية قد قفز في طريقه شبه جزيرة ملقا ليصل إلى بقية الجزر ، وستحدث عن إسلام ملقا بعد قليل .

• • •

وقد يقع في خاطر بعض الناس بسبب هذا الإيجاز الشديد الذي توخيناه في التأريخ لدخول الإسلام الجزر الأندونيسية وانتشاره فيها أن الأمر تم في سهولة دون مشقة ، فإن نجاحاً باهر أكهذا الذي رأيناه لا يتم دون توضيحات كثيرة وصبر طويل ، فإن العقبات أمام هؤلاء الدعاة كانت لا تقل عما لقّبه

دعاة الإسلام في بلاد الترك في أقصى شرقي بلاد الإسلام ، فيما بينها وبين الصين ، فإن أراضي أندونيسيا وعرة صعبة المداخل بسبب الجبال والأحراش والمستنقعات وكثرة المجاري المائية ، فكان على الدعاة أن يصبروا ويصابروا حتى يصلوا إلى الجماعات الأندونيسية في داخل الجزر ، فإذا وصلوا كان عليهم أن يتصرفوا بذكاء وخلق قويم حتى يكسبوا ثقة الناس فيأذنوا لهم بالدخول والاستقرار ، ثم مباشرة الدعوة في رفق ، وكان أولئك الدعاة في الغالب تجاراً يعتمدون على مكاسبهم من التجارة في مواصلة الدعوة للدين ، فما كانت وراءهم دول تدمهم بالمال ولا جماعات تواليهم بالتأييد ، ولقد حكى الباحث الهولندي «شريك» في تاريخه عن ملوك جاوة قبل الإسلام وبعده كيف أن أولئك الدعاة كانوا لا يباليون بشيء في سبيل نشر الإسلام ، فقد كان بعض رؤساء القبائل الوثنية في دواخل جاوة يشترطون على التاجر الراغب في دخول بلادهم أن يتزوج من الفقيرات والأرامل المستات ومن لا عائل لهن ، فكان التاجر المسلم لا يبالي بما ينفق من مال وما يخسر من تجارة في سبيل الاستقرار وكسب ثقة الناس ، وقد تولى تاجر حضرمي مسلم أمور نحو مائة فقيرة معوزة من بنات القبائل ، وتعهد بأن يأتي بأزواج لهن ، وفعل ، وأمهر البنات والنساء جميعاً وضاع ماله كله في هذا السبيل ، ولكنه قبل أن يموت فقيراً رأى ثمرات تصحيته ، فإن هذه الزيجات التي تحمل عبثها أطلعت العشرات من البنين والبنات للإسلام ، وهؤلاء بدورهم تزوجوا من أهل البلاد ، فانتشر الدين بفضل سماحة هذا الرجل انتشاراً واسعاً في بلاد كادو وهي من أوعر نواحي جاوة ، وجدير بالذكر أن الهندوكية كانت متأصلة في تلك الولاية ، وكان رهبانها يبذلون أقصى الوسع في إيقاف تقدم الإسلام ، ولكن التجار الهنود الذين كانوا يقيمون هناك ، وهم عماد القوة الهندوكية كانوا يتعاملون على الفقراء ولا « يتنازلون » إلى التعامل معهم فضلاً عن مصاهرتهم ، وكان كل تعاملهم مع الأغنياء وذوي الجاه ، فلما فعل المسلمون ذلك تبين للناس فضل

الإسلام وإنسانيته ، فأقبل الناس يدخلون فيه أفواجا ، وقد أعجبهم ما وجدوا فيه من سماحة ويسر ، ومن حسن الحظ أنه كان من بين هؤلاء الدعاة التجار رجل من أهل العلم بالفقه يسمى في النصوص « زاكين » والغالب أنه تحريف لـ « زكي الدين » ، فأنشأ هذا الرجل مدرسة لتعليم الفقه والشرعة تعلم فيها العشرات من بين أبناء التجار المسلمين وأهل البلاد قواعد الشرع وعرفوا فضائله ، فبينما كانت الشرعة الهندوكية تجعل لإرث الرجل كله لابته الأكبر دون سواه قسّم الإسلام الميراث بالعدل والقسطاس بين ورثة الرجل ، ثم إن الهندوكية كانت تحرم المرأة من الميراث بل كانت تدع لأسرة المتوفي الحق في طردها من الجماعة ، وكان الكهنة يزينون لها إحراق نفسها حية مع بدن زوجها المتوفي ، فلما رأى الناس أن الإسلام يعطي المرأة حقها كاملا في الميراث ، ويدعها حرة التصرف في مالها ويدعو إلى الرفق بالأرامل ورعاية أمواتهن أخذوا يتقلدون إلى هذا الدين السماح . وكان التاجر الهندوكي إذا أراد الإحسان على فقير ألقى إليه ما يريد إعطاءه إياه بعيداً عنه ، ولم يكن يحق للفقير أن يتقدم لأخذ هذا الإحسان المهيّن إلا بعد أن يتعد السيد ، فإذا بالإسلام يجعل لهذا الفقير « حقاً » في مال الغني يأخذه بأمر الدين وعزته دون امتهان نفسه . ولقد حرص الرهبان ملك الناحية على المسلمين ودعاتهم وقالوا له إن الإسلام إذا انتشر في الناحية أتى على ماله وأفقره ، فقال له الشيخ زكي الدين إن العكس هو الصحيح ودعاه إلى دخول الإسلام ونزل له عن كل ماله تعويضاً عما يمكن أن يخسره في الزكوات ، فلما أسلم الرجل وأدى الزكاة زاد حب الناس له وأدوا إليه الأموال طواعية فزاد ماله وبارك الله له فيه ، فاستدعى الرجل الشيخ زكي الدين ليرد له ماله ، فأبى الرجل الصالح منه ذلك ، ثم وافق على أن يتفقه في الحج ، فاشترى سفينة وأدخل فيها من أراد الحج من المسلمين والمسلمات الجدد ، ووصل إلى مكة المكرمة ومعه مائتان من الحجاج ، وقد سُرّ بهم شريف مكة وأكرمهم وتحمل نفقات إقامتهم في مكة والمدينة ، وعادوا إلى بلادهم يحملون لقب الحاج ، فكانوا

بركة على البلاد لأنهم انصرفوا إلى شئون الدين ونشره .

وقد كان دعاة الإسلام بصفة عامة يلقبون بالسادة أو الأشراف أو الأولياء ، وكان بعضهم بالفعل ينتسبون إلى آل البيت ، ولكن التسمية غلبت عليهم ، وكان لها أثر بعيد في اجتذاب الناس إليهم ، فكان رؤساء القبائل وكبار القوم يرحبون بمصاهرتهم التماساً للبركة ، وقد كان للمصاهرات أبعد الأثر في إسلام أهل أندونيسيا ، فقد كان الغالب أن يتزوج التاجر المسلم الوافد وينشيء أسرة ، ويخرج أولاده مسلمين ، وقد دلت شواهد القبور التي عثر عليها الباحثون في شمال سومطرة ، في ولايات أتشيه وسمره وباسي على أن الأمراء كانوا يرحبون بتزويج بناتهم من أبناء تجار المسلمين ، وفي كثير من الأحيان كان الصهر الشاب يرث عرش حميه إذا مات ، وبهذه الطريقة تحول الكثير من الإمارات إلى الإسلام .

وقد أنفق تجار المسلمين على الحج ألوفاً من الدنانير ، فإن الحج إلى بيت الله الحرام كان من أقصى آماني شباب المسلمين الأندونيسيين ليعود الواحد منهم بلقب الحاج ، فلم يبال التجار بنفقات الحج وحملوا في السفن المئات من أبناء البلاد وأعانوهم على الحج ، فعادوا من صلحاء المسلمين ودعاة الإسلام .

وقد بلغت حركة انتشار الإسلام في جاوة وسومطرة وغيرهما من مجموعات الجزر الأندونيسية أوجها في القرن السادس عشر الميلادي عندما دخل البرتغاليون البلاد غزاةً نهائين ، فكان تصرف البرتغاليين مما دفع الناس إلى الإسلام . فقد أخذ تجار المسلمين ودعاتهم جانب أهل البلاد وناضلوا في سبيلها هم ومن كان يسلم على أيديهم . وارتبط اسم الإسلام بالعدالة ونصرة المظلوم والدفاع عن البلد في حين ارتبطت المسيحية باسم البرتغاليين وهم غزاة نهابون ، فكسب الإسلام من وراء ذلك كسباً عظيماً .

ولم تستقر أقدام البرتغاليين في جزر الهند الشرقية ، وهي أندونيسيا ، لأن

المولنديين كانوا قد رسموا سياستهم على أن تكون تلك الجزر ملكاً لهم من دون غيرهم من الأوروبيين ، فأخرجوا البرتغاليين وردوا الإنجليز عنها وكسروهم في معركة حاسمة ، وانتهى الأمر بأن انفردوا بها ، فلما استقرت أقدامهم وجدوا أن الإسلام قد انتشر بين أهل البلاد وأصبح الديانة السائدة ، والحق أن المولنديين لم يقوموا بجهد يذكر في نشر المسيحية في الجزر أو في محاولة إيقاف تقدم الإسلام ، لأن اهتمام المولنديين الأكبر كان موجهاً نحو جمع المال واحتكار نقل التوابل والعطور وسن القيل والأبنوس وما إلى ذلك من خيرات البلاد إلى بلاد الغرب ، وقد وجد المولنديون في تجار المسلمين معيناً لهم على ذلك ، فقد كان أولئك التجار ، ما بين عرب وأندونيسيين منبئين في دواخل البلاد قادرين على أن يجمعوا المقادير الضخمة من الحاصلات ونقلها إلى المراكز التجارية الهولندية على السواحل ، ومن هنا فقد وجد المولنديون أن الأفضل لهم من الناحية المالية والتجارية أن يتركوا الإسلام وشأنه لكي يخلصوا هم بالتجارة . ولقد كسب المولنديون من جزائر الهند الشرقية أضعاف ما كسب الإنجليز من الهند كلها بفضل هذه السياسة ، لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء محاربة الإسلام كما فعل الإنجليز في الهند ، وكما فعل الفرنسيون في الشمال الإفريقي ، ولم ينفقوا على المرافق من أرباحهم شيئاً يذكر ، لأن الإنجليز والفرنسيين عملوا على شق الطرق وتمهيدها وتأمين السبل تأميناً للتجارة وتمكيناً لسلطانهم السياسي في البلاد ظناً منهم أنهم باقون فيها إلى آخر الدهر . وأما المولنديون فكانوا يتسلمون المتاجر على السواحل دون نصيب ، وكانوا يدفعون فيها سعراً زهيداً لبيعوها في أوروبا بأسعار باهظة ، وإلى هذه السياسة يرجع الفضل في ذلك الغنى العريض السائغ الذي تتمتع به هولندا وسط بلاد أوروبا رغم ضآلة حجمها ، فقد كسب المولنديون الذهب والماس والفراء وكل ما غلا ثمنه في بلادهم ، فأصبحت من أضخم بلاد الأرض أرصدة ، وتمكنوا من المساهمة في معظم رؤوس أموال الشركات الأوروبية والأمريكية .

وقد أشار على الحكومة الهولندية بتلك السياسة مستشرق هولندي معروف عندنا بأبحاثه الكثيرة — وإن كانت كلها مغرضة متحاملة — وهو سنوك هورجرونييه Snouck Hurgronje في مذكرة مشهورة قرأها باللغة الفرنسية: وفيها ينصح الرجل الحكومة بترك المسلمين « غارقين » كما قال في شئون دينهم حتى يخلص لنا أمر التجارة والاستغلال الاقتصادي فلا يضايقونا فيه . . . بل نصح الرجل الحكومة بأن تشجع انتشار الإسلام في الجزر حتى يزداد المسلمون في الدين « غرقاً » وينعم الهولنديون بالفرق في المال ، فكانت المراكب التجارية الهولندية المقبلة فارغة من أوروبا تأخذ حجاج الأندونيسيين من الشواطئ العربية والهندية بأجر لا يذكر وتترهم في جدة وينبع ، ولم يحاول الهولنديون إدخال الحروف اللاتينية في البلاد لطباعة الكتب الأندونيسية « بل عملوا على تشجيع استعمال الحروف العربية التي كانت مستعملة للكتابة في البلاد قبل دخولهم » فظلت اللغة الأندونيسية تكتب بالعربية ، وإلى حين قريب كانت في حي الأزهر مطابع تطبع الكتب الملاوية والجاوية والأندونيسية وكانت القاهرة إذ ذاك مركز الطباعة العربية في العالم .

وهكذا نجد أن هذا المستشرق قد خدم الإسلام من حيث لا يحتسب فكانت القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر هي فترة الانتشار الحقيقي الشامل وتثبيت الأقدام في تلك البلاد العظيمة .

• • •

ولكن الهولنديين اتجهوا إلى تأييد القانون العرفي المعروف بالعادات على حساب الشريعة الإسلامية ، كما فعل الفرنسيون في المغرب عندما أرادوا محاربة الإسلام بإصدار « الظهير البربري » في المغرب الأقصى . والعادات أو « آداب »

عرف بدائي جرى عليه الناس في أفضيتهم في البلاد قبل دخول الإسلام ، وهو عرف لا يقوم على عدالة أو منطق ، وإنما هو يقوم على ممارسات وثنية تعطي الحق في الغالب لصاحب القوة ، وكان يقوم بأمره حكماء من أهل البلاد يعيشون منه ويتصرفون فيه كيف شاءوا ، لأنه لم يكن قانوناً مكتوباً ، ولم يكن الهولنديون ميالين إلى إدخال قانونهم المدني في البلاد وتطبيقه على الأهليين ، فقد بدا لهم أن هذا امتياز ينبغي أن يتفردوا هم به ، فلم يبق أمامهم إلا أن يشجعوا القانون العرفي ويميزوا أحكامه ثم تصدق سلطاتهم على هذه الأحكام في المعاملات والأحوال الشخصية ، وقد تصدى الشيوخ ورجال الإسلام والفقهاء للدفاع عن الشريعة ، وأعلنوا أن ذلك العرف زندقة وخرافة وخروج على الإسلام وتمسكوا بالشريعة الإسلامية وأصروا على تطبيقها حتى كتب النصر لها فأصبحت القانون الساري في البلاد وتلك مأثرة من مآثر الفقهاء وأهل الدين لا بد أن تذكر لهم في دفاعهم عن الشرع الحنيف سواء في أندونيسيا أو في المغرب الأقصى .

ولقد كان من حسن الحظ أن تمكن الإسلام وحده - دون حرب أو عنف - من القضاء على مملكة الماجاباهيت في سومطرة قبل مجي الأوروبيين فقد كانت هذه الدولة وثنية هندوكية وكانت تحمي الهندوكية ، ولو أنها كانت قائمة عندما دخل الأوروبيون لأيدوها على المسلمين كما فعل الإنجليز في الهند ، عندما اعتمدوا على الرؤساء والأمراء من الهندوكيين ضد الأمراء والضعاف من سلاطين المسلمين ، واجتهدوا في إيقاف انتشار الإسلام في الهند ، فكانت نتيجة تلك السياسة الاستعمارية أن ضعفت السلطة السياسية الإسلامية في الهند وصار الأمر إلى ما نراه اليوم ، أما في أندونيسيا ، فلم تكن هناك إلا إمارات وسلطنات إسلامية عندما دخل الاستعمار ، فلم يكن للمستعمر بد من التفاهم مع المسلمين ، وانتهى الأمر إلى النتيجة الباهرة التي نراها اليوم - أن تسعين

في المائة من أهل هذه الجزر من المسلمين ، وأندونيسيا بذلك هي أكبر بلد إسلامي على الأرض وأمرها بالمسلمين .

ومن أسف أن الجمعيات والمنظمات وأهليات التبشيرية تعمل بحرية تامة في أندونيسيا ، وقد استطاعت هذه الجماعات أن تكسب أتباعاً لعقائدها من بين المعلمين وضعاف العقول والقلوب ، وتكونت نتيجة لذلك أقلية مسيحية في ذلك البلد الإسلامي . وستكون لذلك نتائج وخيمة في المستقبل ، فلعل القائمين بالأمر هناك يتنبهون للأمر قبل أن يفوت الأوان .

● انتشار الاسلام فى شبه جزيرة الملايو أو ملقا

الملاويون سكان شبه جزيرة ملقا فرع من الشعب البولينيدي الذي يعمر كل جزء الجنوب الشرقي لآسيا وشرقها . والأصول القديمة لشعب اليابان كذلك بوليتزية . ويعتبر الشعب البولينيدي من أوسع شعوب الأرض انتشاراً ، فهو يمتد من مدغشقر إلى هاواي « وهو شعب بحري قوي متميز عن غيره من شعوب آسيا ، ومنه يتكون معظم سكان أندونيسيا وماليزيا والفيلين وآلاف الجزر في المحيط الهادي .

في شبه جزيرة ملقا استقرت جماعات من هذا الشعب من زمن مغرق في القدم ودخل بعضها في الهندوكية أو البوذية وبقي بعضها الآخر على الوثنية ، وامتدت هذه الجماعات إلى الشمال في شبه الجزيرة حتى خط عرض ٧ شمال خط الاستواء « وهذا الخط هو الفاصل بين الصينيين والسيامين في الشمال والملاويين والبوليتيين في الوسط والجنوب ، وإلى هذا الخط أيضاً تنتهي حدود ملقا ، وهو الاسم الذي يطلق على الجزء الملاوي من شبه الجزيرة .

وقد عرف المسلمون ملقا من زمن بعيد ، وأطلقوا عليها اسم بلاد ككله أوكله بار « ولفظ بار الذي يكثر استعماله في المحيط الهندي هو لفظ « بر » العربي محرفاً ، فيقال لشاطي الهند الغربي مالابار أي بر مالا ، ويكتبه ابن بطوطة « ميليار ، وشاطي إفريقيا الشرقية يسمى زنجبار أي ساحل الزنج حتى اسم جزيرة مدغشقر ، أصله ملجاشبار ، أي ساحل الملجاش وهم سكان جزيرة مدغشقر ، ثم تحرف لفظ ملجاشبار إلى مدغشقر .

وقد قامت في شبه جزيرة الملايو ممالك وإمارات كثيرة ، فقامت على الساحل الغربي مجموعة من الإمارات الصغيرة اتحدت فيما بينها حتى سميت بالإمارات الملاوية المتحدة وأهمها بيراك وسيلانجور ونجيري وسيميلان ، وتقع كوالا لومبور عاصمة ماليزيا الحالية في إمارة سيلانجور . وعلى الشاطئ الغربي أيضاً قامت إمارات بيرليس وكيدّه .

أما في الشرق فقد قامت إمارات كيلوفنان وترنجاثو ، وفي أقصى الجنوب تقع إمارة جوهور .

ولكن أكبر الوحدات السياسية في شبه الجزيرة كانت ملقا ، وتقع في الشمال وتمتد من الساحل إلى الساحل ، وإلى مملكة ملقا هاجر جماعة من جنس هندي يسمى التاميل . وكان التاميل قد أسلموا من زمن بعيد ، وهم أول من حمل الإسلام إلى ملقا .

ثم هاجر إلى ملقا أعداد من المسلمين قادمين من إمارة بينانج - كَبَاو خاصة ، وكان أهلها قد دخلوا في الإسلام ، وكان من بين هؤلاء المهاجرين عدد كبير من التجار والدعاة إلى الإسلام ، استقروا في مدينة ملقا عاصمة مملكة ملقا وأخذوا يدعون للإسلام ، فاستجاب لهم الناس ، ثم وفد على ملقا تاجر وداعية عربي من أهل جدة يسمى سيدي عبد العزيز ، وكان ذلك في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، وقد تمكن هذا الرجل من إقناع ملك ملقا بدخول الإسلام ، فاعتنقه وتبعه في ذلك أهل مملكته ، وكانت تلك هي الخطوة الحاسمة التي جعلت من بلاد الملايو بلاد إسلام ، لأن معظم إمارات شبه الجزيرة تبعت مملكة ملقا في دخول الدين بعد القرن الثالث عشر ، وما أن أسلم ملك ملقا حتى أقبل على اللغة العربية يتعلمها لكي يقرأ بها القرآن ، وشاركه في ذلك زوجته وأولاده الثلاثة الذين سماهم راجا معظم شاه وراجا محمد شاه وراجا سليمان شاه ، وسار الإسلام في طريقه في ملقا حتى عم بلاد الملايو كلها .

وقامت في أثناء ذلك في ملقا ممالك إسلامية أخرى دخل معظم سكانها في الإسلام ، واتصل أهلها بمسلمي جاوة وسومطرة وبقية الهند الصينية ، وهكذا أصبح هذا الجزء الكبير من العالم جزءاً من مملكة الإسلام وركناً من أركانه المنبئة .

ومن الثابت لدينا أن إمارة قويدرة وكانت تقع في شمال شبه الجزيرة كان يحكمها ملك هندوكي يلقب بالراجا فأسلم هذا الأمير على يد داعية عربي يسمى عبد الله حوالي سنة ١٥٠١ ميلادية ، وقد اجتهد الشيخ عبد الله في بناء المساجد في بلاد قويدرة ، وجعل في كل مسجد أربعين من أحسن القومة والدعاة ، وحثهم على العمل على توسيع رقعة الإسلام في البلاد حتى عمها كلها . وكتب راجا قويدرة إلى سلطان أتشييه في شمال سومطرة ، يطلب إليه موافاته بكتب عن الإسلام فأجابه إلى ما طلب .

وما أن انتشر الإسلام في بلاد ملقا حتى توافد عليها دعاة المسلمين وتجارهم من كل ناحية ، فأصبحت بلاد الملايو كلها بلاد إسلام .

ومن حسن الحظ أن ذلك تم قبل مجيئ البرتغاليين « فقد عَدَّوا على مملكة ملقا واحتلوا عاصمتها وحاولوا نشر المسيحية فيها في أوائل القرن السادس عشر ، فتصدى لهم الناس في حزم وثبتوا على دينهم ، بل زادهم العدوان البرتغالي تمسكاً بالإسلام » فلأنهم لم يروا في الإسلام إلا خيراً ، أما المسيحية فقد عرفوها عن طريق البرتغاليين ، وهم أهل سلب ونهب . وكان الهولنديون قد وصلوا في ذلك الحين إلى جزر أندونيسيا وعولوا على أن يجعلوا منها مستعمرة لهم ، وكانت بلاد إسلام ، فلم يسترح الهولنديون بلحوا البرتغاليين في ملقا ، فلم يزلوا بهم حتى أخرجوهم منها ، واجتهد الهولنديون كذلك في إبعاد الإنجليز ، وانتصروا عليهم في معركة بحرية في مضيق ملقا ، وانصرف الإنجليز « أيضاً عن بلاد الملايو ، ولم يحتلوا منها إلا موقع سنجاپور لكي يؤمنوا

مرور سفنهم في مضيق ملقا بين شبه جزيرة ملقا وسومطرة وعاهد الهولنديون إمارات بلاد الملايو فكانوا يحتكرون التجارة في حاصلات بلادهم في مقابل قيام الهولنديين بإبعاد بقية الأوروبيين الطامعين في خيراتها .

وقد كتب الملاويون لغتهم بحروف عربية ، وكانت لغتهم خليطاً من لهجة بلادهم الأولى ولغة التاميل فدخلت فيها مع الإسلام ألفاظ كثيرة عربية وفارسية .

وبلاد الملايو « وهي اليوم القاعدة الرئيسية لمملكة ماليزيا بلاد غنية تنتج المطاط والتوابل والأخشاب الغالية » وفيها اليوم أكبر مناجم القصدير في الدنيا وفيها كذلك بترول كثير « ولا زالت إلى يومنا هذا بلاد إسلام حنيف وأمن ورخاء ، ولا زالت تتبع نظام التحالف ، فهي مملكة اتحادية تتكون من سلطنات كثيرة ذكرنا بعضها ، ويرأس حكومتها ملك منتخب هو رمز وحدة البلاد وإسلامها ، وقد ضمت إليها عند إنشاء ماليزيا سلطنتا صباح وبيروناي في شمال شبه جزيرة بورنيو ، وكلها سلطنات إسلامية . وكانت فيها أول الأمر سنغافورة ثم انفصلت عنها وأنشأت لنفسها جمهورية قائمة بنفسها . ولا زالت لغتهم الملاوية تكتب بالحروف العربية ، وهي بلاد إسلام صحيح .

● الاسلام فى جزر الفلبين

قبل أن يصل الأسبان إلى مجموعة الجزائر التي يطلق عليها اليوم الجزر الفلبينية سنة ١٥١٦م لم تكن هذه المجموعة الكبيرة من الجزر بلداً واحداً ، وإنما كانت جزراً متفرقة تعيش فيها قبائل متنازعة ، وكانت الجزر امتداداً لجزر أندونيسيا ، وهذه تلك كانتا من منازل الشعب البحري البولينيزي الواسع الانتشار الذي أشرنا إليه .

وكان الإسلام يمتد في هذه الجزر على مهل قادماً من الجنوب والشرق ، فوصل إلى لوزون ، وهي الجزيرة الكبيرة الشمالية في نفس الوقت الذي وصل فيه إلى أرخيل سولو وجزيرة مينداناو ، وهي أكبر الجزر الجنوبية وكان ذلك في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي .

ويغلب على الظن أن الدعاة الذين حملوا الإسلام إلى الفلبين أتوا من سلطنة جوهور الواقعة في الطرف الجنوبي لشبه جزيرة الملايو ، ويذكر مؤرخو الفلبين من المسلمين أن أول من حمل الدعوة الإسلامية إلى بلادهم رجل يسمى شريف كابو نجسوان الذي وصل إلى الجزيرة أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وتمكن هو ومن جاء معه من الدعاة من كسب معظم سكان جزيرة منداناو للإسلام ، وانتشر الدين انتشاراً واسعاً في أرخيل سولو أو خولو الذي يقع في جنوب الجزر الفلبينية ، وكذلك بدأ الإسلام يوغل في جزيرة بكتوان أو بهلتوان الكبيرة الواقعة غربي مجموعة الجزر .

وعندما وصل الأسبان إلى الجزر سنة ١٥١٦م بقيادة قائدهم سبجاستا

ظنوا أن الجزر على الوثنية كما كان الحال في معظم جزر بوليتيزيا ، فأعلنوا على عادتهم أن هذه البلاد مسيحية ، وسموها باسم ملكهم فيليب الثاني ، وهو الذي أرسل سجاجستا وحملته على تلك الجزر .

ولكن الأسبان ماكادوا يوغلون في جزيرة لوزون حتى اصطلموا بطلائع المسلمين ، وقد تعودوا في صراعهم مع المسلمين في الأندلس والمغرب على أن يطلقوا عليهم لفظ الموروس Los Moros وهي الصيغة الأسبانية للفظ كان شائع الاستعمال في الكلام على المسلمين وأهل المغرب منهم خاصة في العصور الوسطى هو لفظ ماوري Mauri ومفرده Maurua ، وكان هذا هو اسم قبيلة مغربية بربرية عرفها الرومان وحاربوها في المغرب ، ومن ذلك اللفظ أتت تسمية العرب والمسلمين بهذا الاسم عند الأسبان وباسم The Moors في الإنجليزية و Les Maures بالفرنسية . وإلى يومنا هذا لا زال الناس يطلقون تسمية الموروس على مسلمي الفيليبين .

ولم يلبث الصراع أن نشب بين الأسبان والموروس ، وهم المسلمون الفيليبينيون في جزيرة مندناو ، وكان دعاة الإسلام قد داخلوا الناس وصاهروهم ونشروا دينهم بينهم ، وكانوا يفعلون ذلك على مهل ودون لجوء إلى عنف ، ثم أنهم كانوا أفراداً متطوعين لا تؤيدهم دولة أو قوة عسكرية « فجاء الأسبان بجيوشهم يقتحمون البلاد على أهلها كما كان دأبهم في غزواتهم في العالم الجديد ، ففر الناس منهم وأخذوا جانب المسلمين » واستمر الإسلام يواصل تقدمه في مندناو ، ومندناو جزيرة وعرة كثيرة الجبال والهضاب والأحراش ، والمستنقعات « فأسرع الأسبان بالوسائل التي كانت في أيديهم وحاولوا إيقاف التقدم الإسلامي ولكنهم لم يوفقوا » فقد اتسمت الإدارة الأسبانية في مستعمراتها بالفساد والقسوة ونهب أموال الناس ، وعمدوا إلى تنصير الناس بالقوة ، فتراخى تقدم الإسلام في لوزون ، ودارت المعركة في مندناو وجزر الجنوب

وخاصة في دواخل جزيرة مندناو حيث تعصب للإسلام عدد كبير من رؤساء القبائل » ومع أن الأسبان أقاموا في الجزر حكومة منظمة وأمدوها بالسلاح والعناد وإطارات الحكم إلا أن فساد الموظفين أدى إلى تعثر الحكم الأسباني في الجزر الفلبينية » واستبسل المسلمون في الدفاع عن دينهم وأراضيهم فلم يتمكن الأسبان في الجزء الشمالي من دحر الفلبينيين إلا بعد حروب طويلة . ومع هذا التوفيق القليل فإنهم أعلنوا رسمياً سنة ١٨٧٨م أنهم أتموا غزو جزيرة مندناو وأرسلوا بعض سفنهم إلى جزيرة بكتوان وأرخيل سولو . وقد تمكن أهل هذه الجزر الجنوبية من إنزال هزيمة بحرية بالأسبان وردوهم إلى لوزون .

وقد أساء الأسبان إلى أهل الجزر كلها إساءات بالغة ، وكانت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر عصور تدهور بالغ في كل الإدارة الأسبانية في أسبانيا نفسها وكل مستعمراتها ، وكانت الولايات المتحدة تعمل بنشاط للقضاء على النفوذ الأسباني في أمريكا الجنوبية من منتصف القرن الماضي وخاصة بعد قيام حركات الاستقلال والتحرير في تلك البلاد . فلما استغاث أهل الجزر الفلبينية بالأمريكيين بادر هؤلاء بإرسال أسطول كبير أنزل بالأسبان هزيمة قاصمة في مياه الفلبينيين ، وعلى أثر ذلك تخلى الأسبان للأمريكيين عن الجزر سنة ١٨٩٨م . ولكن الأسبان قبل خروجهم كانوا قد أنشأوا المؤسسات الكنسية وأرسلوا جماعات الرهبان والمبشرين إلى الجزر ، فسارت المسيحية في طريقها فيها . وإلى جانب ذلك أتى الأمريكيون بالبروتستنتية وقامت المنافسة الشديدة بين دعاة البروتستانتية والكاثوليك .

ولكن محنة الإسلام في جزر الفلبين بدأت بعد استقلال البلاد بعد الحرب العالمية الثانية وقيام حكومة وطنية على رأسها رئيس من الكاثوليك ، إذ أن القساوسة اهتموا بإثارة الحكومة على المسلمين ، مما دفع هؤلاء إلى رفع علم

الثورة والمطالبة بحقوقهم » وعندما طال النزاع طالبوا بالانفصال بجزيرة مندناو وأرخبيل سولو ، وقد استعانت حكومات الفيليبين بالأمريكيين في صراعهم مع المسلمين ، فزاد تراجع الإسلام في مندناو ولم يبق له من مناطقه القديمة إلا جنوب مندناو وأرخبيل سولو . ولا زال الصراع قائماً إلى اليوم . ولا بد أن نذكر هنا الداعية الجليل صاحب الفضل في إسلام أرخبيل سولو وهو الشريف كريم المخدوم ، فهذا الداعية النشط الذي يرجع أنه من أصل عربي وصل إلى ملقا حوالي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي حيث تمكن من كسب السلطان محمد شاه وشعبه في ملقا إلى الإسلام » ثم أبحر إلى جزر سولو سنة ١٣٨٠م واستقر في يوانا قاعدة سولو القديمة ، فأدخل الكثير من كبار أهلها في الإسلام ، ولقي منهم تقديراً عظيماً وتوفي ودفن في جزيرة سبوتو ، وخلفه الداعي أبو بكر وهو عربي بدأ عمله في ملقا ثم ذهب إلى بالمبانج في بورنيو ثم انتقل إلى بروناي ووصل سولو حوالي سنة ١٤٥٠م فبنى عدداً من المساجد ونجح في الدعوة نجاحاً كبيراً ، ثم زوجه سلطان باجندا المسلم من ابنته وجعله وارث عرشه . فلما وصل إلى العرش قام بتنظيم حكومة سولو على أسس إسلامية ، وهو الذي نظم القوة العسكرية لأهل جزر سولو ، وهم من أشجع أهل هذه الجزر الفيليبينية وأصبرهم على القتال . ومع أن مؤرخي الأسبان والفيليبين يزعمون أن الإسلام لم يعد له إلا وجود قليل في سولو ومندناو إلا أن الحكومات الإسلامية عنت في السنوات الأخيرة بإرسال البعثات للتعرف على أحوال المسلمين هناك » فوجدوا الإسلام والحمد لله قائماً في كل الجزر وإن كان مضطهداً ومطارداً من الحكومة . وقد كانت السلطات في الجزر تظن أن الإسلام لا ناصر له هناك وأنها تستطيع اتباع سياسة عنف للقضاء على الإسلام » فانكشف الغطاء وتبين أن المسلمين هناك متمسكون بدينهم وأنهم يكوّنون الأغلبية من سكان أرخبيل سولو وجزيرة مندناو ، وأنهم رغم قلة مواردهم يستطيعون الثبات لخصومهم ، وبفضل تدخل البلاد الإسلامية ،

خفت السلطات القليبية من ضغطها على المسلمين وأعلنت أنها لا تفرق بين مسلم ومسيحي من أهل البلاد ولكن رجال الدين لا زالوا يضغطون على الحكومة مما جعل قضية مسلمي القليبيين من القضايا الأساسية التي ينبغي أن يضع المسلمون لها سياسة ثابتة بعيدة المدى ، فإن المسلمين في الجزر كثيرون ، ثم أن الكثير من القبائل في وسط مندناو لا زالوا على الوثنية وهم أميل إلى الإسلام منهم إلى ديانة أخرى .

إن قضية المسلمين في القليبين ما هي إلا جزء من الصراع الطويل بين الإسلام وغيره من الأديان في آسيا ، وقد كان ينبغي أن تصبح آسيا كلها إسلامية لو أن المسلمين وضعوا لأنفسهم سياسة شاملة بعيدة المدى لإدخال هذه القارة في الدين ، ولكننا أضعنا الوقت في خلافات جانبية وانصرفنا إلى مصالح عاجلة ، فلم نستطع كسب هذه القارة كلها للإسلام ، والخطأ هنا خطأ المسلمين وحدهم ، فهم في الواقع لم يقوموا بحق الإسلام عليهم في العصور الماضية ، أيام كانت الدنيا فراغاً خالياً من تعقيدات السياسة ومصالحها اليوم .

ولكن الإسلام تكفل بأمر نفسه وتمكن بفضائله وبجهاد قلة من أهله من أن يحقق لنفسه كسباً عظيماً في جنوبي آسيا ووسطها على الخصوص . ولقد مني الإسلام في وسط آسيا وشرقها بالشيوعية الكافرة بالأديان ، وابتلى في بعض مواطنه الآسيوية الأخرى بسياسات حكومية مناهضة للإسلام ، ولكننا إذا وفقنا إلى المحافظة على الوجود وتقويته وتعميق جذوره خرجنا في النهاية بنتيجة طيبة . ويهنا قبل أن نغادر القليبيين إلى قطر آخر من أقطار آسيا أن نذكر كل مسلم بإخوته المجاهدين في تلك الجزر ، فإن أعداءهم كثيرون والمؤامرات التي تدار عليهم شريرة وخبيثة ولا بد لنا من وقفة حازمة حاسمة مع أعداء الإسلام هناك في وقت قريب قبل أن يتسع الخرق على الراقع .

● الإسلام في كشمير والتبث

تبلغ نسبة المسلمين في كشمير ما بين ٧٠٪ و ٧٥٪ من جملة السكان .
فهو بهذا من أكثر أقطار الدنيا إسلاماً ، ولا نجد لدينا تفسيراً لهذه الظاهرة
خاصة الانتشار الواسع في كشمير - أو تفصيلاً عنها لأن سلطان دول الهند
الإسلامية عليها لم يكن ثابتاً أو متصلاً ، ولكن معظم الباحثين يردون إسلام
كشمير إلى جهود الدعاة من الفقراء والصوفية وقر من دعاة الإسماعيلية كانوا
يعملون من مركزهم في قلعة أَلْمُوت في إقليم طبرستان جنوبي بحر قزوين .
ويقال ان أول هؤلاء الدعاة من الصوفية رجل يسمى بُلْبُل شاه تمكن من
إقناع ملك كشمير الهندوكي بالانتقال إلى الإسلام ولقبه صدر الدين في مستهل
القرن الرابع عشر الميلادي من الدعوة للإسلام في كشمير وإنشاء أول مسجد
فيها .

وفي سنة ١٣٨٨م هرب من همدان جماعة من الصوفية القرمس المعروفين
بالسادة ، وكان زعيمهم يسمى سيد علي الهمداني وكان معه سبعون من السادة
فروا نجاة بأنفسهم من سخط تيمور لُك ، ففرقوا في بلاد كشمير وأنشأوا
الأربطة والزوايا وخلوات الصوفية في كل مكان في كشمير ، وأصبحت هذه
الأربطة مراكز لنشر الإسلام ، وزاد إيمان سلاطين كشمير بالإسلام حتى قام
أحدهم وهو السلطان اسكندر (١٣٩٣-١٤١٧م) بهدم معابد الهندوس وتحطيم
أصنامهم فلقبه الناس لهذا بلقب بوتشيكاني . وحوالي نهاية القرن الخامس عشر
قدم من العراق أحد دعاة الشيعة ويسمى مير شمس الدين فوضع بذور التشيع
في كشمير ، ولكن غالبية المسلمين في كشمير من أهل السنة . وهي على الجملة

بلد إسلامي ، وكان المفروض أن ينضم إلى باكستان ، بل إن حرف الكاف استعمل في اسم باكستان يرمز إلى كشمير ، ولكن الهند أصرت على الاحتفاظ بكشمير في أراضيها ، ووقعت الحرب بين الجانبين ، ثم عقدت هدنة لكي يستقّي أهل كشمير في أمر انضمامهم إلى الناحية التي يريدونها ، ولكن هذا الاستفتاء لم يتم إلى اليوم ، وظلت الهند واضعة يدها على كشمير ، والحدود بين الهند وباكستان وكشمير من هذه الناحية هي خط وقف إطلاق النار .

وفي أيام سلاطين دلي الكبار أصبحت كشمير من أكبر وأهم ولايات دولتهم ، فزاد انتشار الإسلام فيها ، ووفد عليها علماء المسلمين من كل مكان أو في أيام أورانجزيب تحول راجا كشتوار أحد رؤساء الراجابوت إلى الإسلام على يد صوفي يسمى سيد شاه فريد الدين ، وبذلك امتد الإسلام إلى حدود التبت .

ثم أخذ الإسلام طريقه إلى التبت وغزا ولايتي بكستان ولداخ ، وسار الإسلام قدماً في التبت حتى القرن التاسع عشر ، ولكن أحد راجات الحدود واسمه رافير سينك كان من السيخ المتعصبين فبدأ يعمل على إيقاف تقدم الإسلام وتشجيع البوذية في التبت فأبطأ انتشار الإسلام ووقف عند الجزء الجنوبي من التبت ، وهناك نجد جماعة كبيرة من السكان نشأت عن تراوج تجار الهنود المسلمين ومن هذا حذوهم من أهل البلاد من التبتيات ، وظل عدد هذه الجماعة في زيادة إلى يومنا هذا .

ولا تخلو مدينة رئيسية في التبت من المسلمين ، وفي لهاसा عدد كبير من المسلمين لا يقل عددهم عن أربعين ألفاً . ومن التبت انتقل الإسلام إلى ولاية يونان من جنوب الصين وولاية سيثوان أيضاً .

● الإسلام فى الصين

تذكر التواريخ الصينية أن أول دخول الإسلام فى الصين كان فى أيام أسرة تانج التى عاصرت البعثة المحمدية وعصر الراشدين وعصر بني أمية . وكان القادمون إلى الصين من المسلمين تجاراً دخلوا بلاد الصين من الجنوب أيام بني أمية ، فاستقروا فى كانتون حيث أنشأوا لأنفسهم جالية زاهرة واتخذوا المساجد وأطلق عليهم أهل الصين لقب هُنوي هُنوي .

وفى أيام الوليد بن عبد الملك (٨٦-٨٩٦/٧٠٥-٧١٥م) عبر قتيبة بن مسلم نهر سيحون وتخطى الحدود الغربية لدولة الصين ودخل كَشَغَر وضم جزءاً من ولاية سنكاينج إلى دولة الإسلام . وفى سنة ٧٢٦م أوفد الخليفة هشام بن عبد الملك سفيراً يسمى سليمان إلى الإمبراطور هُزوان تونج وانعقدت أواصر الصداقة بينه وبين المسلمين . وعندما قامت ثورة على هذا الإمبراطور يقودها ابنه سور تسونج سنة ٧٥٦م وطرد الابن أباه من العرش استنجد الإمبراطور المعزول بالخليفة المنصور العباسي فأنجده بقوة من الرجال أعادته إلى عرشه . ولم تعد هذه القوة إلى بلادها ، بل استقرت فى الصين ، وتزواج أفرادها من الصينيات وانضموا إلى إخوانهم أعضاء جالية كانتون فكثُر عددها وحاول حاكم البلد إخراجها من البلد بالقوة ولكنه عجز . وانتهى الأمر بأن سمح لهم الإمبراطور بالإقامة فى كانتون « فاستقروا وأمنوا ، ولم يلبثوا أن امتزجوا بالسكان » ويتحدث مؤرخ صيني كتب فيما بين سنتي ٧١٣م و٧٤٢م عن كثرة عدد جالية كانتون ، ولكننا لا نعلم إن كان أفرادها قد بذلوا جهداً لنشر الدعوة بين أهل البلد أم لا .

وعندما اجتاحت عالم الإسلام موجة الغزو المغولي هاجرت إلى الصين أعداد كبيرة من المسلمين من أهل فارس والعراق وبلاد ما وراء النهر واستقرت هناك واندرجت في أهل البلاد ونشرت الإسلام . وظهر من بينها رجال كسبوا ثقة المغول فولوهم عدداً من كبار وظائف الدولة من أمثال رجل يسمى عبد الرحمن تولى رئاسة بيت مال الدولة سنة ١٢٤٤م . وعندما اعتلى قبلاي خان العرش سنة ١٢٥٩م عهد إلى مسلم من أهل بخاري يسمى محمد شمس الدين المشهور بالسيد الأجلّ في إدارة أموال الإمبراطورية ثم أقامه حاكماً لمقاطعة يونان ، وكان رجلاً حكيماً يعرف كيف يستميل قلوب الناس ، فبنى مساجد كثيرة وكذلك بنى معابد كونفوشيوسية عديدة . وقد واصل أبناء السيد الأجل تقليد أبيهم في توطيد دعائم الدين الإسلامي في الصين ، فحصل حفيد له سنة ١٣٣٥م من الإمبراطور على اعتراف بأن الإسلام هو الدين الحق الخالص ، وقد ظل الإسلام يحتفظ بهذا الوصف في الصين حتى قيام الثورة الشيوعية هناك . وأذن الإمبراطور في سنة ١٤٢٠م لشخص آخر من أحفاد السيد الأجل في بناء مسجدين كبيرين في عاصمتي الدولة وهما سنجان - فوونانكين ، مما أثار حفيظة الكثيرين من الضمينيين المتعصبين ، ولكن الإسلام استمر يتوسع في الصين حتى قرر ماركو بولو الذي عاش في الصين فيما بين سنتي ١٢٧٥ و ١٢٩٢م أن أعداداً كبيرة من المسلمين تعيش في إقليم يونان ، وقرر رحالة آخر زار الصين في نفس الوقت أن جميع سكان تاليفو حاضرة يونان من المسلمين ، وكذلك وصف ابن بطوطة الذي زار الصين في منتصف القرن الرابع عشر ترحيب إخوانه المسلمين في مدن الصين به وقرر أن كل مدينة من مدن الصين فيها حي للمسلمين ينفردون بسكنائه ولهم فيه المساجد العامرة ، وقال أنهم معظمون محترمون في كل بلد من بلاد الصين .

يذكر مرجع صيني قديم يسمى « التاريخ القديم لأمرة تاج » أنه في السنة الأولى لحكم الإمبراطور يوانج - واي (٨٣١ / ٦٥١م) وقد على بلاط هذا

الإمبراطور وفد من المسلمين حاملين هدايا للإمبراطور وقالوا إن دولة الإسلام قامت منذ إحدى وثلاثين سنة ، أي أن ذلك الوفد زار الصين في خلافة عثمان . ويقول الصينيون من المسلمين أن هذه كانت أول مرة يدخل فيها الإسلام إلى الصين ، ويزعمون أن رئيس ذلك الوفد كان سعد بن أبي وقاص ، وأنهم وفدوا إلى الصين عن طريق البحر ، فأرست بهم السفن على شاطئ الصين الجنوبي ، ومن ثم اتجهوا إلى بلاد إمبراطور أسرة تانج في عاصمة تشانج - ان .

ويقول نفس المرجع أن إمبراطور الصين استفهم عن أمر الإسلام وسأل عنه ، فسمع خيراً فوافق على دخول الإسلام في الصين وأذن في الدعوة له واعتبره على نفس المستوى مع الكونفوشيوسية وأذن للمسلمين في بناء مسجد في العاصمة تشانج - آن ولا زال هذا المسجد قائماً في ذلك البلد الذي يسمى الآن سيان .

وعندما كبرت سن سعد بن أبي وقاص - كما تقول الرواية الصينية - أذن الإمبراطور له في العودة إلى بلاده ، فشرع في الرحلة ولكنه مات في الطريق ودفن في بلدة كوانج تشو وأقيم مسجد إلى جوار قبره ولا زال هذا المسجد قائماً هناك إلى اليوم ، وهو ثاني المساجد الأثرية في الصين .

وكان للعرب والفرس الذين استقروا في الصين مكان مرموق في تجارة الصين في عصر أسرة تانج هذه . وعندما انتقل الأمر إلى أسرة سونغ (٩٦٠/٩٦٧ - ١٢٧٩م) كانت كوانج تشاو أكبر مراكزهم ، وكان لهم فيها حي كبير فيه سوق ضخمة ، وانشأت حكومة الصين إدارة خاصة للتجارة البحرية ومراقبة المواني وتحصيل الضرائب وكان يشغل هذا المنصب رجل من المسلمين .

وبينما كان الإسلام يثبت أقدامه على سواحل الصين الجنوبية بعد أن أدخله فيها التجار دخل الإسلام الصين من ناحية الشمال الغربي عن طريق البر . وقد

دخلت في الإسلام قبائل هسيونج فو الضاربة في مداخل الصين الغربية من ناحية حوض التاريم . وفي سنة ١٣٨ / ٧٥٥م قامت ثورة على الإمبراطور هوان تسونج - هز تانج فاضطر إلى اللجوء إلى سشوان والتحصن فيها ، وأرسل يستنجد بمسلمي شمال غربي الصين فسارعوا بإرسال قوة من ثمانية آلاف رجل أنجده « وتعبراً عن شكره للمسلمين خيرهم بين البقاء في بلاده أو العودة فاختاروا كلهم البقاء » فقدم إليهم الأموال وزوجهم بصينيات وأعطاهم أرضاً وبنى لهم بيوتاً . ومن هؤلاء نشأت الجاليات الإسلامية الضخمة في شمال غربي الصين .

وعندما تحسنت علاقات قبائل هسيونج نو بإمبراطور الصين ازداد تدفق المسلمين من القرس والأفغان على الصين ، وانتقل الكثيرون منهم إلى العاصمة تشانجيان وزاد انتشار الإسلام بين الصينيين أنفسهم .

---ازدهار الإسلام في الصين ثم اضمحلاله :

تمتع الإسلام في الصين بقبول حسن ولقي المسلمون معاملة طيبة طول عصر أسرة تانج التي انتهت سنة ٢٩٥ / ٩٧٠م فلما خلفتها أسرة سونج ازدادت التجارة ازدهاراً وتزايد توافد المسلمين على الصين ، وأصبحت كل تجارة مع بقية بلاد الشرق وأوروبا في أيدي المسلمين ، فعرفت أوروبا حرير الصين وخزفها ونحفها وصناعاتها الدقيقة عن طريقهم « وحملوا إليها متاجر أوروبا وغربي آسيا . وكبرت جاليات المسلمين في بلاد الصين وانتشر الإسلام في الصين أكثر وأكثر . ونظراً لما امتاز به المسلمون من خلق طيب وأمانة والتزام بالقوانين « فقد أحترمهم شعب هان ، وهو اسم الشعب الصيني في لغتهم ، وزاد انتشار الإسلام تبعاً لذلك .

وأعقبت دولة سونج دولة يوان وهي دولة غربية عن الصين أنشأها

خلفاء جنكيز خان ، وذلك أنه بعد وفاة جنكيز خان قُسِّمَت امبراطوريته بين أولاده ، وكانت الصين ومنغوليا من نصيب قُبلاي خان فأنشأ أسرة يوان ، وكان الإسلام قد امتد أثناء حكم المغول إلى وسط آسيا . ولما كانت الصين ومنغوليا قد دخلتا بمساحتهما الشاسعة في دولة واحدة فقد اتسع المجال لانتقال السكان من مكان إلى آخر فيها ، فانتقل الكثيرون من الصينيين إلى آسيا الوسطى وانتقل الكثيرون من العرب والترك إلى الصين . وكثر توافد المسلمين من كل صنف إلى الصين فكان بينهم تجار ومتطبيون وطلاب علم وفلكيون ومحاربون ، وقد دخل الكثيرون من هؤلاء الآخبرين في الجيش الصيني . وبلغ المسلمون درجة كبيرة من القوة في عهد هذه الأسرة ، وشغلوا الكثير من المناصب الكبرى مما أتاح للإسلام الفرصة للامتداد والانتشار ، ويقول المؤرخ الصيني تنج - هسيو - ووانه كان هناك ثلاثون مسلماً يحتلون مناصب رئيسية في بلاط بكين ، وكان منهم حكام لكثير من الولايات .

وكان أكبر الموظفين المسلمين في بلاد الصين رجلاً ذا كفاية عظيمة وقدرات متعددة هو السيد الأجل ، وقد تدرج في المناصب حتى أصبح القائد الأعلى للقوات العسكرية المنغولية في سيشوان ، ثم أصبح حاكماً لتلك الولاية في سنة ١٢٧١هـ / ١٢٧٢م ، وبعد سنتين تولى حكومة ولاية ونان ، وبفضل كفايته انتشرت الثقافة الإسلامية في بلاد الشمال الغربي ، وكان السيد الأجل يحكم بعدل وإنصاف تامين ، لا يفرق بين مسلم وغير مسلم فالحق وحده هو سيد الموقف .

ويقول المؤرخ رشيد الدين فضل الله في كتابه « جامع التواريخ » إنه في عصر الأسرة المغولية كانت الصين مقسمة إلى اثنتي عشرة ولاية « لكل منها حاكم ونائب حاكم ، وأن ثمانية من بين الحكام كانوا مسلمين »

وهذا يدل على القوة التي وصل إليها المسلمون في عصر أسرة يوان .

دامت أسرة يوان اثنتين وتسعين سنة (٦٧٨ - ١٢٧٩ / ١٣٦٨م) ثم خلفتها أسرة مينج التي حكمت ثلاثة قرون تقريباً (٧٧٠ - ١٠٥٤م / ١٣٦٨م - ١٦٤٤) . وفي عهد هذه الأسرة ازداد جاه الإسلام وانتشاره حتى أصبح من أديان الصين الكبرى .

وعندما بدأت أسرة مينج حكمها كان عمر الإسلام في الصين ستة قرون « وازداد عدد المسلمين زيادة كبيرة ، ولكن المسلمين ظلوا رغم ذلك يعيشون وفق نظامهم الخاص دون اتصال كبير ببقية السكان من غير المسلمين ، وكانت لغتهم صينية عربية وعاداتهم إسلامية ، ولم يقع اختلاف كبير بينهم وبين غيرهم من غير المسلمين ، ثم أخذوا يتدججون في السكان ويتخذون اللغة والعادات الصينية . ولم يعد من الممكن التفريق بينهم وبين بقية الصينيين . حتى أسماؤهم الإسلامية أعطوها طابعاً صينياً : فمن ذلك أن كل مسلم يبدأ اسمه بحرف م مفتوحة سمي نفسه ما وهو لفظ صيني شائع معناه الحصان فتسمى باسم « ما لن كان اسمه محمود أو مسعود ، أما من كان اسمه يبدأ بيمين مضمومة مثل محمد ومراد ومصطفى فقد اتخذ اسم « مو » ، ومن المسلمين من اتخذ اسماً مقارباً في النطق لاسمه فداوود سمي نفسه تا وكذلك طاهر تسمى باسم تا وحسين تسمى باسم هو ، ومن كان اسمه مركباً مع لفظ الدين مثل خير الدين وشمس الدين تسمى تنج « ومن كان اسمه سعيد تسمى باسم ساي « ومن كان اسمه نصر أو نجيب تسمى نا ، وسليم أو صالح تسمى باسم سا وعيسى وأمين تسميا باسم آي وهكذا .

واستمرت نفس المكافحة لمسلمي الصين في عهد أسرة منج « ولكننا نلاحظ في عصر هذه الأسرة تطوراً جديداً ، وهو أن أباطرة هذه الأسرة خافوا من أن تنزل ببلادهم غزوة جديدة مخربة مثل غزوة مغول جنكيز خان ،

فأغلقوا أبواب بلادهم وساروا على سياسة الانعزال ، فانقطعت الصلة بين مسلمي الصين وإخوانهم خارج الصين ، فأخذوا يتدرجون في أهل البلاد وأقبلوا على الزواج من الصينيات ، فنشأ أولادهم صينيين مسلمين ، وكان هذا مما ثبتت أقدام الإسلام في الصين ، وقد لقي أولئك المسلمون الصينيون كرامة كبيرة من مؤسسي دولة مينج وهو الامبراطور هونج-وو فمنحهم امتيازات كثيرة وشجعهم على إنشاء المساجد ، فزاد عددها زيادة كبيرة في كل نواحي الصين خلال عصر هذه الأسرة (١٣٦٨-١٦٤٤م) .

وقد تشجع أمراء المسلمين المجاورين للصين بهذه المعاملة وطمعوا في كسب الامبراطور إلى دينهم ، فكتب إليه واحد منهم هو الشاه رُخ بهادر سلطان التركستان خطابين طويلين يدعوه فيهما إلى اغتنام السعادة بالدخول في دين الله (أنظر نصها في كتاب الدعوة إلى الإسلام للسير توماس أرنولد وترجمة حسن إبراهيم وآخرين الطبعة ٣ سنة ١٩٧٠م ص ٣٣٧ - ٣٣٨) وكان لهاتين الرسالتين صدى بعيد ، فقليل في بعض الحكايات الشعبية أن أحد أباطرة الصين اعتنق الإسلام . وقد حكى تاجر مسلم يسمى سيد على أكبر زار الصين في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر أن عدد المسلمين الذين استقروا في الصين كان عظيماً ، وأنه كان في مدينة كنج فو حوالي ٣٠,٠٠٠ أسرة من المسلمين (أي ١٥٠,٠٠٠ نسمة على وجه التقريب) وأنهم كانوا يعيشون عيشاً سعيداً في عطف من الدولة ورضى من الحكام .

وقد تغيرت سياسة الأباطرة بعض الشيء تجاه المسلمين حينما حلت أسرة مانشو محل أسرة مينج في حكم الصين سنة ١٦٤٤ م إذ انتهز رجال الدين البوذيون والكونفوشيوسيون فرصة تغير الدولة وحرصوا رجال الدولة الجديدة على المسلمين حسداً منهم لما كانوا يلقونه من نجاح في نشر دعوته ، فانقلبت عليهم السلطات ، فكانت النتيجة أن قاموا بثورة في ولاية خانسو ،

ولكن الثورة لم تلبث أن خمدت واستعاد المسلمون علاقاتهم الطيبة بالدولة .
لأن الامبراطور يونج-تشي تبين براءتهم مما اتهموا به ، واتضح له أن المسلمين
من خير رعاياه وأخلصهم وأكثرهم نشاطاً ، ثم زادهم خليفته كيني لانج
تكرمة . نظراً لمعاونة اثنين منهم له في إخماد ثورة قامت عليه - وكان من
كبار الأتراك العارفين بشئون الحرب .

وبعد القضاء على هذه الثورة نقل هذا الامبراطور إلى زنجاريا في غربي
الصين - وكانت مركز الثورة - عشرة آلاف من المحاربين العاملين في
جيشه وكانوا جميعاً من المسلمين ، فأخذ جيرانهم من الصينيين يقبلون على
الإسلام احتذاء بهم . وكثر توافد الدعاة إلى الصين الغربية والجنوبية . بل
هناك خبر يتعلق بداعية صيني قبض عليه في كوانج سي بتهمة الدعوة
للإسلام . وذلك بتحريض من الكهنة

ويقرر المبشرون الكاثوليك في القرن التاسع عشر أن عدد المسلمين
في الصين زاد زيادة عظيمة ، ويردون هذه الزيادة إلى أن المسلمين الصينيين
يحاولون العيش في سلام مع غيرهم ، ولهذا يتحاشون القيام بنشاط واسع
في الدعوة مخافة إثارة شكوك كهنة البوذيين ، وإنما كانت أعدادهم تزيد
نتيجة لزواجهم من الصينيات وإنجابهم الأولاد الكثيرين ، وكان المسلمون
يعمدون أيضاً إلى شراء الأطفال من آبائهم في أوقات المجاعات وينشئونهم
نشأة إسلامية ، ولم يكن في تقاليد الصين ما يحرم ذلك . بل كان يعد من أعمال
الخير . لأنه يعين الآباء الفقراء على تحمل مصاعب المجاعات ، وفي إحدى
المجاعات التي نزلت بولاية شانتونج اشترى المسلمون نحو ١٠,٠٠٠ طفل
تربوا في كنف الإسلام ونشأوا مسلمين . وحدث هذا مرة أخرى سنة
١٧٩٠م عندما نزلت المجاعة بمقاطعة كوانج تونج إذ اشترى المسلمون مثل
هذا العدد من الأطفال ، وكذلك كانوا يفعلون حيثما استطاعوا ، بل عندما قامت

حرب الأفيون المعروفة بحرب البوكسوز اشترى المسلمون الآلاف من أولاد قتلى هذه الحرب ما بين مسيحيين وصينيين . وقد تضخم عدد المسلمين في الصين بهذه الطريقة حتى بلغ عددهم في الصين قبل الحرب العالمية الأولى نحو ٥٠ مليوناً ، وبهذا أصبح الإسلام من أديان الصين الكبرى .

وكان المسلمون في الصين يدركون كراهة أهل الصين لمن ليس من جنسهم أو من لا يجري على مألوف عاداتهم ، ولهذا حرصوا على أن يعيشوا في أحياء خاصة بهم حتى لا يطلع الآخرون على صلواتهم وما يقومون به من شعائر عقيدتهم ، بل كانوا لا يبالغون في تعلية مآذن مساجدهم حتى لا يثيروا حفيظة الكهنة وسدنة المعابد ، وحرصوا على أن تكون هذه المساجد من الطراز الصيني . ولم يمانعوا في أن يضعوا في كل مسجد من مساجدهم لوحة - كان القانون يفرضها - فيها دعاء للامبراطور بطول العمر .

وفي المناطق التي كثر فيها المسلمون الصينيون مثل منغوليا - وهي بلاد التتار الصينيين - كان المسلمون يتبعون التقاليد الصينية بكل أمانة مجاملة للصينيين ولكنهم إلى جانب ذلك كانوا دائماً حريصين على السير طبقاً لتعاليم الإسلام وتطبيق عباداته وشريعته فيما بينهم .

وقد تمتع المسلمون في الصين بكل حقوق المواطنين وشغلوا أعلى مراتب الدولة فكان منهم كبار الموظفين والقواد .

واستمر مركز المسلمين في صعود ودينهم في انتشار حتى العصور الحديثة . بل إن جمهورية صُن-يات-صُن التي قضت على أسرة مانشو استمرت في إضفاء العطف والرعاية على المسلمين . كان مركزهم هناك كمركز مسلمي الجمهورية الهندية ، وقد اشترك المسلمون كمواطنين صينيين في حروب التحرير ضد اليابان وفي حروب الجمهورية ضد الحركة الشيوعية . ولم تنس لهم حكومة الثورة الشيوعية ذلك ، فاضطهدتهم كما اضطهدت

غيرهم من أهل الأديان المنكرة للشيوعية ، فهاجر الكثيرون منهم إلى تايوان (فرموزا) وأصبحت هذه الجزيرة مركزاً للجماعة الإسلامية الصينية « ويؤكد العلامة الصيني المسلم تا (داوود) تنج أن عدد المسلمين في الصين في سنة ١٩٥٠م يقدر بخمسين مليوناً أي أن واحداً من اثني عشر من سكان الصين آن ذاك مسلم ، فعدهم اليوم على حساب الزيادة العامة لسكان الصين قرابة ٦٥ مليوناً « أي أن الصين تحيي خامسة في أعداد المسلمين فيها بعد أندونيسيا وبنجلادش والهند وباكستان ، ولكن حكومة الصين لا تعلن هذه الحقيقة .

وليس في ذلك التقرير مبالغة ، ففي طبعة سنة ١٩٤٨م من الكتاب السنوي الصيني *China year book* الذي كان يصدر في شنغهاي نجد عدد مسلمي الصين بلغ ٤٨,١٠٤,٠٠٠ نسمة وفي نفس الكتاب تقرأ بوضوح أن نسبة المسلمين في الصين هي العشر ، وإنه لما يثير الدهشة رغم ذلك أن حكومة الصين أعلنت في سنة ١٩٥٠م أن عدد المسلمين فيها عشرة ملايين فقط ثم تقرر في نفس الوقت أنهم يؤلفون أكبر الأقليات الدينية في الصين وعددها أربعة هي على الترتيب : المسلمون (ويسمونهم هوى) والمغول (يسمونهم منج) والتبتيون (ويسمونهم تسانج) والمنشوريون ويسمونهم (مان) .

وجاليات المسلمين وهم جميعاً اليوم صينيون تتجمع في مقاطعات الشمال الشرقي والشمال الغربي أي في مقاطعات هو نان وهو باى وشانتونج ، أما في الجنوب الغربي فنجد أكبر جماعاتهم في يونان وسيشوان ، وفي الجنوب الشرقي نجدهم في وادي اليانجتسي في مقاطعة أنهوي وهي التي تضم العدد الأكبر من مسلمي الصين ، أما أقل النواحي الصينية إسلاماً فهي المقاطعات الساحلية : كيانجسو وتشكيانج وفوكبان وكوانجتونج مع أنها كانت فيما سبق أكثر نواحي الصين إسلاماً ، ومن دلائل ذلك أن أسرة مينج عندما

جعلت عاصمتها في فانكنج كان فيها ستة وثلاثون مسجداً .
ونتيجة للظروف التي كان المسلمون يعيشون فيها قبل الافتتاح الصيني
على العالم في أواخر أيام ماوتسي تونج نجد أن المسلمين كثيرهم قد انقطعت
صلتهم بإخوانهم في العالم الخارجي خلال تلك الحقبة . ولم يعودوا يستقبلون
الدعاة والفقهاء كما كانوا يفعلون قبلاً ولم يعودوا يستطيعون السفر إلى الخارج
بحرية ، وكل هذه أحوال أدت إلى اضمحلال جماعاتهم ، فبينما كانوا
في الماضي - في عهد أسرة يوان - في عداد الجماعات الغنية في البلاد فكان
منهم تجار وماليون وموظفون كبار وشخصيات كبيرة تضاعف ذلك كله
الآن . وفي عصر أسرة مينج كان فيهم عدد كبير من أهل الفكر في الصين ،
وكان تجار المسلمين يسيطرون على التجارة البرية مع بقية آسيا من مراكزهم
في شرق الصين ، وكانت قوافلهم رائحة غادية ، وفي كل حوضي اليانجتسي
وهواي هو والنواحي التي اشتهرت بزراعة الأرز كان المسلمون يحتكرون
تجارة الحبوب ولا يشغل المسلمون في الصين الشعبية أي وظائف تذكر ،
بينما هم يحتلون مراكز أعلى في تايوان ، ومساجدهم هناك عامرة زاهرة ،
وليس معنى ذلك أن الإسلام ضعف في بلاد الصين ، بل معناه أن السياسة
الاشتراكية التي تسير عليها الصين لا تشجع الأديان جميعاً « بل تتجاهلها ،
ومع ذلك فلا زال المسلمون نشيطين تحت جالياتهم مكان الصدارة في النواحي
التي يتكاثرون فيها وقد ذكرناها ، وفي بقية نواحي الصين نجدهم مشهورين
بأعمال الصياغة ، وجميع التحف القديمة والمصنوعات الجلدية وتصنيع
الشاي والتجارة فيه وتربية الماشية والقصابة والتجارة في اللاكئي والبشَب
المعروف بالجليد (Jode) وهم مشهورون بإجادة الرسم والتصوير وكتابة
الخطوط . وهذا ليس بغريب ، ففي عصر أسرة تشنغ كانت التحف
والطرف والجواهر في بكين وغيرها من كبريات بلاد الصين في أيدي
المسلمين ، ولا زالوا إلى اليوم أكبر الاختصاصيين في الجواهر في بلاد الصين .

● الاسلام فى روسيا

خلال القرن الرابع عشر الميلادي ، وبعد أن أنزل جنكيز خان ورجال دولته وآله ما أنزلوا ببلاد الإسلام من تخريب ، وبعد ما كان منه من القضاء على الخلافة العباسية في بغداد سنة ١٢٥٦م / ١٢١٨م وما تلا ذلك من امتداد سلطان المغول على الجناح الشرقي لمملكة الإسلام ، نجد ذلك الدين القيم يعود فيغزو بفضائله المغول أنفسهم « فيدخل فيه خانات ايلخانية إيران وهم ورثة باتو عم هولاكو على ذلك القسم من امبراطوريته الواسعة » وأول من هداه الله منهم بركة خان الذي اعتنق الإسلام وتسمى باسم الملك السعيد بركة خان وأخذ كل المغول التابعين له باعتناق هذا الدين ، واجتهد في تعويض الإسلام عما لحق به من الأذى على أيدي أجداده ، فاهم بإنشاء المساجد واستقدام الفقهاء والإحسان إليهم وتيسير مهمتهم في نشر الدين ، وفي عهد هذا السلطان بركة خان المغولي نجد العلاقات تتوطد بينه وبين سلطان مصر المملوكي ركن الدين بيبرس البندقداري .

وكانت طائفة كبيرة من المغول تسمى القبيلة الذهبية تسكن الأراضي الواسعة الممتدة من شمال بحر آرال إلى شمال بحر قزوين ومصب الفولجا . وكان أولئك المغول تابعين اسمياً لخان مغول إيران ، وهو بركة خان ، فلما أسلم أخذ الإسلام ينتشر بينهم .

وقد أنكر فريق من المغول على بركة خان إسلامه « وكانوا على ديانة الشامانية ، ففكروا في الخروج عن طاعته والانضمام إلى هولاكو الذي ورث أملاك المغول في الجزء الغربي من الدولة ابتداء من إقليم الجبال أو عراق

العجم ، فانقسمت صفوف المغول مرة ثانية وانفصلت عنهم قبيلة نوجاي وهي تضم أتباع القائد نوجاي ، وكان بوذياً شامانياً ، وكان يسيطر على منطقة واسعة بين بحر آرال وبحر الخزر وهو قزوين .

وفي سنة ١٣١٣ م تولى زعامة القبيلة الذهبية أوزبك خان الذي ظل يحكمها حتى سنة ١٣٤٠ م ، وكان مسلماً متحمساً للإسلام حريصاً على إدخال كل القبيلة الذهبية فيه ، وكانت مملكة أوزبك خان تمتد من شمالي بحر آرال إلى مصب الفولجا « فوضع خطة لنشر الإسلام في كل بلاد الروس » وكانت المسيحية قد انتشرت بينهم على يد دعاة مسيحيين من بيزنطة (القسطنطينية) . وكان الإسلام يسود مصب نهر الفولجا حتى نوفوجورود ، ويستمر حتى بلاد القرم . ولكن أوزبك خان كان متسامحاً ، فلم يأذن لنفسه في اضطهاد المسيحيين في بلاده ، بل ترك دعاة المسيحية يشرون كيف شاءوا ، وله خطاب شهير كتبه سنة ١٣١٣ م إلى المطران بطرس رئيس المسيحيين في بلاده يؤكد له فيه تسامحه وتقديره للمسيحية « ورد عليه البابا يوحنا الثاني عشر سنة ١٣١٨ م بخطاب شكر وتقدير . وبهذا لم يقدر لهذا الزعيم المغولي المسلم المتحمس أن يوقف تقدم المسيحية في بلاد الروس ، وظل الإسلام في روسيا مقتصرأ على المناطق التي خضعت لمغول القبيلة الذهبية « أتى من مصب الفولجا إلى نوفوجورود مع امتداد إلى الغرب حتى بلاد القرم . أما بقية الروس ما بين مسيحيين وغير مسيحيين فقد ظلوا يؤدون الجزية لأوزبك خان دون أن يرغبوا على اعتناق الإسلام .

وكان يحاور مغول القبيلة الذهبية في جنوب روسيا شعب إسلامي آخر من أصل تركي هو شعب البلغار وكان يسكن شمالي البحر الأسود وغربه ، ويرجع إسلام البلغار إلى أيام الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ / ٩٠٨ - ٩٣٢ م) إذ أنه أرسل إليهم رسولا وعدداً من الدعاة والفقهاء .

وقد اجتهد البلغار في تحويل الروس إلى الإسلام ، وكانت مملكة هؤلاء
الأخبرين تقوم في كييف وكانوا على الوثنية ، وكان ملكهم يسمى فلاديمير ،
وكان التنافس شديداً بين المسلمين والنصارى على اجتذابه ، وقد أبدى ميلا
للإسلام ولكنه كره الختان ولم يقبل تحريم الخمر ، وكان الروس شديدي
الولع بها ، وكذلك أخفق اليهود في كسبه في حين أرسل المسيحيون داعية
لتسبناً ذكياً شرح له المسيحية شرحاً حسناً بليغاً ، كان له أعمق الأثر في نفسه
خاصة وقد وعده ذلك الداعية بملك مملكة السماء إذا هو دخل المسيحية ،
وأخيراً انتهى رأيه إلى أن يبعث بوفدين من الروس إلى بلاد النصرانية وبلاد
الإسلام فأى الوفدين وجد البلاد التي زارها أسعد وأرخص حالاً كان ذلك
دليلاً على امتياز دين أهلها في رأيه ، فأما الوفد الذي ذهب إلى بلاد الإسلام
فذهب إلى بلاد البلغار ، فوجد فيها فقراً فاشياً ، ووجدوا فيها قال موحشة
كثيرة . ووجد مساجدهم بسيطة لا زينة فيها ، وصلاتهم جليلة وقورة لا موسيقى
فيها ولا إنشاد . وأما الذين ذهبوا إلى بلاد المسيحية فقد توجهوا إلى بلاد
الألمان الكاثوليك فوجدوا - حسبما قالوا - وجوهاً فضرة وأجساماً ضخمة
وكنائس جليلة يصلي الناس فيها على نغمات الموسيقى والإنشاد البهيج ، ثم ذهبوا
إلى القسطنطينية حيث أحسن الامبراطور وفادتهم وجعلهم يشهدون الصلاة
في كنيسة أيا صوفيا بضخامتها وجلالها وملابس قساوسها الزاهية الألوان
وتراتيلهم الرخيمة « فوق في أنفسهم أن عقيدة أهل القسطنطينية لا بد أن
تكون في رأيهم أقرب العقائد إلى الله سبحانه إذ أنه أضفى عليها هذا الجلال
كله ، وبعد تداول طويل بين الملك ونصيحائه استقر رأيه على اتباع المسيحية
على مذهب الكنيسة الإغريقية (كنيسة الدولة البيزنطية) وهي ما نسميه
نحن بعقيدة الروم الأرثوذكس سنة ٩٨٨ م . وهكذا كسبت المسيحية
شعب الروس كله ، وانتشرت في كل ما سكنوه وخضع لهم من بلاد، وهذا
حدث يعتبر من أخطر حوادث التاريخ الإسلامي ، ولا تزال نحس أثره

حرب الأفيون المعروفة بحرب البوكسوز اشترى المسلمون الآلاف من أولاد قتلى هذه الحرب ما بين مسيحيين وصينيين . وقد تضخم عدد المسلمين في الصين بهذه الطريقة حتى بلغ عددهم في الصين قبل الحرب العالمية الأولى نحو ٥٠ مليوناً ، وبهذا أصبح الإسلام من أديان الصين الكبرى .

وكان المسلمون في الصين يدركون كراهة أهل الصين لمن ليس من جنسهم أو من لا يجري على مألوف عاداتهم ، ولهذا حرصوا على أن يعيشوا في أحياء خاصة بهم حتى لا يطلع الآخرون على صلواتهم وما يقومون به من شعائر عقيدتهم ، بل كانوا لا يبالغون في تعلية مآذن مساجدهم حتى لا يثيروا حفيظة الكهنة وسدنة المعابد ، وحرصوا على أن تكون هذه المساجد من الطراز الصيني . ولم يمانعوا في أن يضعوا في كل مسجد من مساجدهم لوحة - كان القانون يفرضها - فيها دعاء للامبراطور بطول العمر .

وفي المناطق التي كثر فيها المسلمون الصينيون مثل منغوليا - وهي بلاد التتار الصينيين - كان المسلمون يتبعون التقاليد الصينية بكل أمانة مجاملة للصينيين ولكنهم إلى جانب ذلك كانوا دائماً حريصين على السير طبقاً لتعاليم الإسلام وتطبيق عباداته وشريعته فيما بينهم .

وقد تمتع المسلمون في الصين بكل حقوق المواطنين وشغلوا أعلى مراتب الدولة فكان منهم كبار الموظفين والقواد .

واستمر مركز المسلمين في صعود ودينهم في انتشار حتى العصور الحديثة . بل إن جمهورية صُن-يات-صُن التي قضت على أسرة مانشو استمرت في إضفاء العطف والرعاية على المسلمين . كان مركزهم هناك كمركز مسلمي الجمهورية الهندية ، وقد اشترك المسلمون كمواطنين صينيين في حروب التحرير ضد اليابان وفي حروب الجمهورية ضد الحركة الشيوعية . ولم تنس لهم حكومة الثورة الشيوعية ذلك ، فاضطهدتهم كما اضطهدت

صدر قرار بنقلهم جميعاً إلى سيبيريا وتفريقهم في نواحيها . وفي فيافي سيبيريا وغاباتها اختفى تثار روسيا المسلمين .

وأما تثار القرغيز فقد ظلوا متمسكين بدينهم الإسلامي رغم كل محاولات الروس ، لتتصيرهم ، وفي أيام كاترين الثانية بلحات الحكومة الروسية الاستعمارية في ذلك الحين إلى حيلة مضلة ، فقيدت أولئك الناس في السجلات مسيحيين ، واعتبرت من يبقى على الإسلام منهم بعد ذلك مرتدين توقع عليهم عقوبة صارمة . وزعمت الوثائق الروسية أنهم كانوا في الأصل وثنيين ثم تنصروا ثم ارتدوا عن المسيحية . ولما كان هؤلاء الساكنين جهلاء وأمين وفقراء فلم يعلموا شيئاً عما صنعتهم الحكومة بهم ، وتعرضوا للأضطهاد والعقاب الشديد دون أن يفهموا كيف تزعم الحكومة أنهم كانوا وثنيين ثم دخلوا المسيحية ثم ارتدوا عنها إلى الإسلام .

ومن أغرب ما حدث وأكثره دلالة على قوة الإسلام الذاتية الدافعة أن القرغيز كانوا رغم ذلك يزدادون إقبالا على الإسلام ، بل أنشأوا في قازان - عاصمة قطرهم ، مركزاً للدعوة الإسلامية ، وكانوا يطبعون منشورات الدعوة إلى الإسلام والتعريف به بلغتهم ، وكان العارف بالإسلام عندهم يسمى المُلّا ، وهو لفظ فارسي معناه الشيخ أو الفقيه ، وهم يجمعونه على « مُلّيات » فكان المليات منهم من أساتذة جامعة قازان وطلابها ينتشرون في القرى والفيافي يدعون بني جلدتهم إلى الإسلام ، ويعرفونهم به ، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً وأدخلوا في الإسلام ألوفاً من القرغيز وخاصة ابتداء من سنة ١٩٠٥ م وهي السنة التي أعلنت الحكومة القيصرية فيها حرية الأديان في الامبراطورية الروسية ، وبلغ عدد من دخل الإسلام على أيدي أولئك المليات فيما بين سنة ١٩٠٦ و ١٩١٠ م ثلاثة وخمسين ألفاً ، وكان مجتمع القرغيز المسلمين في ذلك الحين أرقى وأعلى مستوى وأشد تماسكاً من المجتمعات الآسيوية

حرب الأفيون المعروفة بحرب البوكسوز اشترى المسلمون الآلاف من أولاد قتلى هذه الحرب ما بين مسيحيين وصينيين . وقد تضخم عدد المسلمين في الصين بهذه الطريقة حتى بلغ عددهم في الصين قبل الحرب العالمية الأولى نحو ٥٠ مليوناً ، وبهذا أصبح الإسلام من أديان الصين الكبرى .

وكان المسلمون في الصين يدركون كراهة أهل الصين لمن ليس من جنسهم أو من لا يجري على مألوف عاداتهم ، ولهذا حرصوا على أن يعيشوا في أحياء خاصة بهم حتى لا يطلع الآخرون على صلواتهم وما يقومون به من شعائر عقيدتهم ، بل كانوا لا يبالغون في تعلية مآذن مساجدهم حتى لا يثيروا حفيظة الكهنة وسدنة المعابد ، وحرصوا على أن تكون هذه المساجد من الطراز الصيني . ولم يمانعوا في أن يضعوا في كل مسجد من مساجدهم لوحة - كان القانون يفرضها - فيها دعاء للامبراطور بطول العمر .

وفي المناطق التي كثر فيها المسلمون الصينيون مثل منغوليا - وهي بلاد التتار الصينيين - كان المسلمون يتبعون التقاليد الصينية بكل أمانة مجاملة للصينيين ولكنهم إلى جانب ذلك كانوا دائماً حريصين على السير طبقاً لتعاليم الإسلام وتطبيق عباداته وشريعته فيما بينهم .

وقد تمتع المسلمون في الصين بكل حقوق المواطنين وشغلوا أعلى مراتب الدولة فكان منهم كبار الموظفين والقواد .

واستمر مركز المسلمين في صعود ودينهم في انتشار حتى العصور الحديثة . بل إن جمهورية صُن-يات-صُن التي قضت على أسرة مانشو استمرت في إضفاء العطف والرعاية على المسلمين . كان مركزهم هناك كمركز مسلمي الجمهورية الهندية ، وقد اشترك المسلمون كمواطنين صينيين في حروب التحرير ضد اليابان وفي حروب الجمهورية ضد الحركة الشيوعية . ولم تنس لهم حكومة الثورة الشيوعية ذلك ، فاضطهدتهم كما اضطهدت

فكر إلخادي يضع مبادئ الماركسية واللينينية فوق الدين ويضطهد مخالفيه دون رحمة ، ومن هنا فأنت لا تستطيع التفاوض كثيراً بوضع الإسلام وأحوال المسلمين ومستقبلهم في أي بلد يسوده النظام الشيوعي بما في ذلك المسلمون في الجمهوريات الروسية الإسلامية في آسيا وعددها ست هي قازاكيستان وقرغيزستان وطاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان وأذربيجان .

— الإسلام بين قنار سيبيريا ووسط آسيا :

كانت سيبيريا — أو الجانب الأكبر منها على الأقل — داخلية في بلاد الامبراطورية المغولية التي أقامها جنكيز خان ، فلما مات صارت في أملاك ابنه الأكبر جوجي خان ، ثم توارثها أبناؤه من بعده حتى صار عرشها في القرن السادس عشر إلى كوتشم خان أحد أحفاده ، وقد بدأ حكمه سنة ١٥٧٠م ، وكان شديد الحماس للإسلام فقام بكل ما يستطيع لإدخال رعاياه في دين الله ، واستقدم الدعاة والفقهاء من بخاري ، وجعل عاصمتها قازان على نهر ايرتيش مركزاً كبيراً للدعوة الإسلامية .

في ذلك الحين — النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي — كانت الجيوش الروسية تتقدم في سيبيريا غازية ، فاجتاحت سهول القرغيز وكل نواحي سيبيريا التي كان الإسلام قد انتشر فيها ، وبدأ الروس تطبيق سياسة التعصب المسيحية الأرثوذكسية ، كما هو دأبهم ، ولكن الإسلام ظل يتقدم في سيبيريا وظلت كل قبائل نواحي القرغيز ومنغوليا متمسكة بالدين الحنيف ، بل أنشأ شعراؤها قصائد تضم قواعد الإسلام وتحكي بطولات عظماء الفاتحين المسلمين . ولكن الدولة الروسية الشيوعية تحاول القضاء على الإسلام في تلك النواحي عن طريق إرغام الناس على الدخول في المذهب الشيوعي ، وهو مذهب مادي يلغي الأديان ولا يعترف بها ، والنتيجة أن عدد المسلمين في النواحي التي ذكرناها

من سيبريا يتناقص وإسلامهم يزداد سطحية يوماً بعد يوم نتيجة للدعاة الشيوعيين وتوجيه التعليم كله توجيهاً علمانياً إلحادياً مركسياً . ونعتقد أن أقل ما نستطيع عمله لمعاونة هؤلاء الإخوة أن تخصص إذاعات لهم بلغاتهم ، ويكون الإرسال من مراكز الإذاعات الإسلامية ، وليس من الضروري أن تتناول هذه الإذاعات مسائل سياسية بل يكون تركيزها في مخاطبة الناس على شئون الدين ، فيعرف الناس بدينهم وعقائده وعباداته مرة بعد مرة ، وتلى عليهم آيات القرآن ثم تنقل معانيها إلى لغاتهم ، وكذلك يفعل مع الأحاديث النبوية ، ولا بد كذلك من تعريفهم بتاريخ الإسلام وأجداده وأبطاله ودوله وحضارته ، وتذكيرهم بماضيهم الإسلامي المجيد مع النص دائماً على أنهم مسلمون وأن واجبهم هو المحافظة على دينهم ، هذا مع بيان ما في العقائد الماركسية من مغالطات ومخالفات لقواعد الإنسانية ومكارم الأخلاق . إنهم يخصصون محطة إذاعة ماركسية للدعوة في بلادنا مركزها إريفان في جمهورية أرمينية « فلماذا لا تقيم إذاعة مماثلة كل عملها المحافظة على أولئك الإخوة داخل نطاق الإسلام حتى يتأذن الله بالفرج القريب ؟

● انتشار الإسلام في أفريقية المدارية والاستوائية

ترك آسيا وتوجه الآن إلى أفريقية لئرى كيف أن الإسلام فتح ما فتح من بلادها بفضائله الذاتية ، وبالحكمة والموعظة الحسنة التي عرض بها دعاة الإسلام هذه الفضائل وأقنعوا الناس بها ، والكلمة الطيبة التي فتحت مغاليق القلوب ونقلت إلى الإسلام أقواماً كان الغرب يقول إلى حين قريب أنهم ليسوا من البشر .

لم يفتح المسلمون من بلاد أفريقية بالجيش إلا مصر والشمال الإفريقي « أما بقية ما دان للإسلام من بلاد هذه القارة التي يسمونها بالسوداء ، وما هي بسوداء أصلاً ، فقد دخل أهلها في الإسلام رغباً وعن محبة صادقة .

وكما سبق أن ذكرنا ، لم يحارب المسلمون أهل مصر ليفرضوا عليهم الإسلام ، بل هم حاربوا الروم الذين كانوا يحتلون أرض مصر ويفرضون عليهم سلطاناً غاشماً ، وقد كان من المفروض بعد أن استقر أمر المسيحية في بلاد الدولة الرومانية أولاً ثم في بلاد دولة الروم ثانياً « ودان بها أهل مصر كما دان بها أهل روما والقسطنطينية أن يستوي الحاكم والمحكوم تحت راية المسيحية ، وأن يزول كل معنى من معاني الاستعمار والسيادة والاستغلال في أرجاء هاتين الدولتين المسيحتين ، ولكن المسيحية لم تغيّر من قلوب أهل القسطنطينية شيئاً « وظلوا يعتبرون أهل مصر والشام وبعض نواحي العراق والمغرب أتباعاً لهم وخدماً ، بل تعدى الأمر إلى ما هو أسوأ من ذلك . فقد ذهب أهل دولة الروم مذهباً خاصاً بهم في المسيحية ، وهو المذهب الذي قرره الأساقفة في مجمع خليقدونية الذي عقد سنة ٤٥١م وقرر أن المسيح عيسى ابن مريم له طبيعتان «

إنسانية من ناحية أمه السيدة العذراء مريم بنت عمران ، وإلهية لأنه كلمة الله التي تجسدت بشراً سوياً ، ثم غلبت في زعمهم الطبيعة الإلهية على البشرية فلم يبق بشراً من عيسى ابن مريم عليه السلام إلا الصورة ، أما حقيقته فهي إلهية خالصة ، فهو الله — تعالى سبحانه عن ذلك علواً كبيراً — حل في جسد عيسى ابن مريم ليتعذب على الصليب فيما قالوا ويشترى بعذابه خطيئة آدم عليه السلام عندما خالف ما أمره به ربه ، فمن آمن بالمسيح على هذا المذهب فقد بري من خطيئة آدم ، ودخل في جملة المخلصين من العذاب ، وكان عليه بعد ذلك أن يظل تابعاً للقساوسة والكنيسة لأنها هي وحدها سبيل استمرار المغفرة وبدونها يعود الإنسان إلى اللعنة الأبدية .

ورأي قيصر الروم وأهل حاشيته أن القيصر راعي الكنيسة وحامي المسيحيين ومن ثم فإن له ولبطارقته الحق في صياغة هذه العقيدة على النحو الذي يرون أنه أصلح لرعاياهم ، فذهبوا في ذلك مذاهب شتى كلها يرمي إلى جعل المسيحية خاضعة للدولة ورجاها ، ورفض أهل مصر والشام ذلك وتمسكوا بما رأوا بطارتهم ، وقالوا أن السيد المسيح عيسى ابن مريم له طبيعة واحدة إلهية وبشرية في آن معاً . وأن البشرية لم تتلاشى قط ، وخاطبوه قائلين : أبانا الذي في السماوات والأرض ، وسموا مذهبهم هذا بالمونوفيزية أي مذهب الطبيعة الواحدة ، وكذلك قال معظم أهل الشام ، وأخذت الدولة تضطهد أهل مصر والشام والمغرب ممن كان يقول بالطبيعة الواحدة .

وبينما أهل مصر والشام والعراق والمغرب في هذا العذاب دخلت جيوش الإسلام فاتحة ، فلم تفرض الإسلام على أحد ، وإنما تركت الناس أحراراً ، فمن أسلم منهم فهذا حظه وقد هداه الله ، ومن لم يسلم فقد خلس من اضطهاد دولة الروم وأقبل على دينه يمارسه كيف يشاء . وفي تاريخ فتوح مصر نجد المقوقس عظيم أقباط مصر يصالح العرب باسم أهل مصر ، في حين يعارضه

قَبَسْرُس مثل كنيسة القسطنطينية . والمقوقس مصري صليبة ، وأخوه مينا الذي يسميه العرب أبا ميامين كان بطريق المصريين ، وابنته ارماتوسة هي التي أسرها عمرو بن العاص في بليس ، فمنَّ عليها وأطلقها فمادت إلى أبيها معززة مكرمة . وكذلك كان فتح المغرب تحريراً لأهل المغرب من البربر من الروم في إفريقية خاصة ، وهي تقابل ما يعرف اليوم ببلاد تونس ، فلما قضى على الروم أخذ الناس في المغرب يدخلون في دين الله أفواجا ، أما طول مدة فتح المغرب فلا ترجع قط إلى أن البربر رفضوا الإسلام وأراد العرب قسرهم عليه . وإنما يرجع إلى اتساع بلاد إفريقية والمغرب ووعورة أراضيها وتعدد قبائل البربر وتأني مواطني بعض هذه القبائل ، ثم إن دعاة الخارجية انبثوا بين البربر وأخذوا يخرصونهم على بني أمية ودولة السنة والجماعة ، وثبت على مذهب السنة معظم البربر ، ودارت الحرب بين الجانبين ، فهي إذن حرب داخلية داخل إطار أمة الإسلام التي أصبح البربر بإسلامهم جزءاً منها .

وقد انتهت الحرب بتنام إسلام أهل المغرب وعودتهم جميعاً إلى مذهب السنة والجماعة والله الحمد والمنة ، وكان ذلك النصر المؤزر في نهاية القرن الهجري الثاني / الثامن الميلادي . أصبح أهل الشمال الإفريقي جميعاً أهل إسلام ، بل مد الإسلام رواقه على الأندلس .

• • •

وقد عاشت إفريقية قبل الإسلام وهي منقسمة قسمين وكانتهما عالمان لا يعرف الواحد منهما الآخر : إفريقية شمالي الصحراء الكبرى ، وهي بحر الرمال الهائل ، وإفريقية المدارية والاستوائية جنوبي ذلك البحر . ولكن الإسلام كما قلنا دين طيار ، يتقل مع الريح من بلد إلى بلد لا تقف في سبيله جبال أو رمال . فكيف عبر الإسلام وحده ، وبقوته وفصائله بحر الرمال الشاسع وأدخل في أمته أمم ما تحت الصحراء ؟

• • •

والصحراء الكبرى حاجز بشري يمنع بحول بين اتصال إفريقية المتوسطية بإفريقية المدارية كما لو كان محيطاً من المياه ، لأن عرضها يبلغ في أقصى أجزائها ثلاثة آلاف كيلو متر كانت تقطع في الماضي في ثلاثة شهور على الأقل ، ومن العسير جداً على أي مسافر أن يحمل معه ماء لشخصه ولدابته يكفي ثلاثة شهور » ثم إن رحلة الفرد الواحد مستحيلة لكثرة الأخطار وصعوبة تدبير النوم والراحة والطعام على إنسان بمفرده ، فلا بد من قافلة من بضعة مئات من الناس معهم بضعة مئات من الدواب » وهنا تتبين استحالة قطع الصحراء ، فليست هناك عيون ماء تكفي لهذا القدر من الأحياء مسافة شهور ثلاثة .

لنصف إلى ذلك أن جو الصحراء - حتى في الشتاء - لا يسمح لأهل الشمال بالعبور إلى الجنوب ، ولأهل الجنوب بالانتقال إلى الشمال بانتظام ، فإن أهل الشمال لا يستطيعون الصبر على لأواء الرمال السائلة وهي العروق ، والصحاري الحجرية زمناً طويلاً ، لأن حرارة الشمس طول النهار حتى في الشتاء لا يحتملها إلا من تعود عليها من المولد ، ثم إن عواصف الرمال عنيفة ومفاجئة وخائفة ، وهي أحياناً تلوم أياماً وتجفف المياه حتى في القرب ، وقد هلك الألوف من أهل الشمال في هذه الرحلة المهلكة . أما السود من أهل إفريقية المدارية والاستوائية فلا يصبرون على حرارة الشمس في الصحراء إلا بضعة أيام ، تجف بعدها أجسادهم ويموتون ، لأن طبيعة أجسادهم مكونة في مواطنهم المدارية والاستوائية على أساس شرب مقادير كبيرة من الماء تبخر معظمها عن طريق المسام » وبهذا يستطيعون تبريد أجسادهم في حر المناطق الاستوائية والمدارية ، ومسام أجسامهم أضعاف مسام غيرهم مرات كثيرة ، ولهذا يسرع تبخر مياه أجسادهم وتجف في الصحراء .

وعلى طول التاريخ لم تكن هناك إلا ثلاث طرق للاتصال بين شمال إفريقية ووسطها . :

أولها طريق نهر النيل ، فيهبط المسافرون إلى إسنا ومن هناك بشرع طريق يسمى طريق الأربعين « لأنه يقطع في أربعين يوماً ، تصل القافلة بعدها إلى كردفان ، وعاصمتها الأبيض » وهي واحة كبيرة وافرة المياه ، ومن ثم تسير القوافل إلى إقليم دارفور وقاعدتها الفاشر ، وهي من أكبر محطات القوافل في الطريق إلى وادي ، ووادي كانت إقليماً وافر المياه بعض الشيء بين دارفور وإقليم بحيرة تشاد، وقاعدة وادي زالنجي ، ومن هناك تسير القوافل إلى منطقة بحيرة تشاد ، وتسمى في نصوصنا بلاد الكانم ، وكانت فيما يلي وادي غربا منطقة تجمع مائي : تهبط إليها مياه الجبال القريبة منها وكذلك مياه أنهار إفريقية الإستوائية ، وهذه المياه لا تجري في وديان أو مسابيل وإنما تتسرب إلى باطن الأرض وتسير في مسارب تحتية ويحفّر الناس عليها .

والطريق الثاني هو الطريق من طرابلس في ليبيا إلى إقليم فزان الغني بواحات وعيون الماء فيه وآباره ، وبعد ذلك تمر القوافل بمنطقة ضيقة تتوالى فيها الواحات الصغيرة تسمى منطقة كُوَّار ، وبين الواحة وواحة ما لا يزيد على مسيرة يومين « ولهذا تسمى منطقة كوار عند الفرنسيين بدليلز الواحات *Le couloir d'oasis* بعد ذلك تصل القافلة إلى بلاد الكانم ومنها تتجه إلى حيث شاءت من بلاد إفريقية المدارية والاستوائية .

والطريق الثالث هو طريق ساحل المحيط الأطلسي من وادي درعة في أقصى جنوبي المغرب إلى وادي نهر السنغال ، ومسافة الصحراء هناك نحو شهرين ، منها مسافة شهر يوجد الماء فيها على مراحل معقولة ، ولكن تتوسطها مساحة صحراوية لا تقطع في أقل من شهر بلا ماء أصلاً ، فكانت القوافل تزود بالماء لهذه المدة . وهذه الصحراء يسميها البكري صحراء تنسر ، وكانت تسكنها في الماضي قبائل مغربية صنهاجية تسمى في مجموعها بصنهاجة الصحراء ، وأكبر قبائلها لمتونة وجُدَّالَه ، ومَسَوَفَة ولَمَطَة « وبنو وارث وتارجا

وهذه هي المجموعة القبائلية التي أقامت دولة المرابطين . وكانت القوافل تزود بالماء والغذاء من منطقة تافيلالت جنوبي منابع نهر المولوية في المغرب الأقصى ، وهي منطقة واحات وعيون ماء جارية وقاعدتها سجلماسة . فإذا فصلت القافلة من سجلماسة سارت في حماية قبائل صنهاجة الصحراء حتى تصل وادي نهر السنغال ، والمحطة الأولى في طريقها مدينة أودغشت . وهي باب إفريقيا الإدارية من هذه الناحية .

• • •

وقد استطاع الإسلام أن يجد طريقه إلى إفريقية الإدارية والاستوائية عن هذه الطرق الثلاث . فما كاد يدخل المغرب حتى أخذ يتلمس طريقه إلى الجنوب واستطاع بقوته الذاتية وفصائله أن يجد طريقه عبر الصحراء ويصل إلى أهلها ويدخل قلوب أهلها شيئاً فشيئاً .

وفي دراسة مفصلة نشرتها في المجلد الأول من مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية سنة ١٩٦٩م عنوانها «فران ودورها في انتشار الإسلام في إفريقية» بينت كيف وصل الإسلام أول ما وصل إلى إفريقية الإدارية عن الطريق الثاني أي الأوسط الذي تحدثنا عنه آنفاً : طريق طرابلس قفران وودان فكوار ، وذكرت كيف وصل الإسلام إلى فران وكوار لأول سنوات فتح المغرب ، فقد كان عمرو بن العاص قد أتم فتح برقة سنة ٢١هـ / ٦٤١م ثم طرابلس سنة ٢٢هـ / ٦٤٢م ثم أرسل إلى فران بعثاً عسكرياً يقوده نافع بن عبد القيس القهري - وهو زوج أخته - ففتح بلاد الصحراء : زويلة وودان وفران ، وترك فيها حامية إسلامية ودعاة يعلمون الناس قواعد الإسلام .

وكان عقبة بن نافع بن عبد القيس القهري يرافق أباه في ذلك البعث ، وكانت منه إذ ذاك لا تتجاوز عشر سنوات . وبعد ذلك أقام نافع بن عبد القيس سنوات متتقلاً ما بين الإسكندرية وبرقة وزويلة وفران . وعندما عاد إلى

الفسطاط ترك ابنه عقبة مع القوات الإسلامية المعسكرة في نواحي الصحراء
فنشأ عقبة جندياً مدرباً عارفاً بشئون الصحراء وطرقها ومدخلها وقبائلها .
وكان عقبة بطبعه رجل دين ودعوة ، فكانت تلك السنوات سنوات تكوينه
العقلي والديني . واشتهر أمره في هذه النواحي بسبب حرصه على نشر الإسلام
بين الناس .

وفي سنة ٧٥٠/٨٢٠م أقامه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان قائداً على قوات
الإسلام الغازية في المغرب فسار في قوة من الفرسان أمده بها يزيد من مصر إلى
برقة فزويلة ففران فودان ثم كوار .

وفي كل ناحية من هذه النواحي كان يستوثق من إسلام رؤسائها وطاعتهم
للعرب ، ويترك في الناس من يعلمهم أصول الإسلام .

ومن كوار صعد عقبة بن نافع بجيشه إلى غداميس ، ومنها دخل إفريقية
(وهي تونس) وقد أقامه يزيد والياً عليها . فبدأ عمله بإنشاء القيروان لتكون
قاعدة للإسلام في إفريقية ومركزاً تصدر منه جيوش الفتح بدلاً من صدورها
من الفسطاط . وقد استغرق إنشاء عقبة للقيروان ومسجدها خمس سنوات
(٥٠ - ٨٥٥ / ٥٧٠ - ٧٥٥ م) .

والمهم لنا الآن أن عقبة فتح طريق فران وكوار للإسلام ، فبدأت قوافل
التجارة ، وفيها مسلمون ، تسير في هذا الطريق وتدخل الإسلام إلى إفريقية
المدارية ، ومع الزمن أنشئت على الطريق المساجد والزوايا والرُّبُط ، وقامت
الجماعات الإسلامية .

عن هذا الطريق هاجرت خلال القرن الثالث الهجري قبيلة بربرية لا نعرف
ماذا كان اسمها في مواطنها الأولى في المغرب ، واستقرت بعض الوقت في
إقليم تشاد ، ثم اتجهت غرباً إلى حوض النيجر ، واستقرت في غرب المنطقة
التي يسميها العرب بالساحل . والمقصود بذلك الساحل الجنوبي من الصحراء

الكبرى ، إذ أن هذه الصحراء عندهم هي بحر الرمال . وهناك منطقة أخرى تعرف بالساحل تقع شرقي منطقة الجريد التونسية ، وهذه المنطقة هي الساحل الشمالي لبحر الرمال ، أما منطقة الساحل غربي حوض النيجر فهي ساحله الجنوبي ، والواحات في ذلك البحر الواسع تسمى بالجزائر ، وواحدتها جزيرة ، ويلاحظ أن لفظ الواحات أو الواح كان لا يطلق إلا على واحات مصر الغربية ، وهي سيوه (سنتره عند العرب) والقرافرة (القرفرون عندهم) والبحرية (وهي البحرين عندهم) والخارجة . واللفظ مصري قديم معناه الماء .

في منطقة الساحل النيجرية هذه عُرِفَت تلك القبيلة البربرية المهاجرة باسم سوننكة وتمكنت من السيطرة على إقليم الساحل كله ، ومدت سلطانها حتى حوض نهر النيجر الأعلى وسيطر رجالها على مدن مثل ده تنيكت (تمبكتو) وماسه وجيني ، وتغلبوا على قبائل الإقليم المجاور لهم مثل البيمبارا والونقارا والتكروور والفولا ، واتخذوا لأنفسهم عاصمة تتوسط ملكهم وهي غانة ، وموضعها اليوم قرية خربة تسمى كومي أو كومي صالح إلى الشمال من باماكو عاصمة جمهورية مالي الحالية . وقد ذكر ذلك محمود كعت في كتابه المعروف باسم « الفئاش » (١) .

وقد اتسع ملك السوننكة ، وتمولوا بفضل تبر الذهب الذي يكثر في أنهار هذا الإقليم ، واختلطوا بالسكان ، وصاهروهم ، ولكنهم ظلوا يحتفظون بشخصيتهم ولون بشرتهم السمراء . فكان رعاياهم من السود يعتبرونهم غرباء

(١) بدأ محمود كعت كتابه هذا سنة ١٥١٩/١٩٢٥ ونشره المستشرق الفرنسي هوداس في باريس سنة ١٩١٢ ، وهو من أهم مراجعنا عن تاريخ الاسلام في افريقية المدارية والاستوائية (انظر قائمة المراجع في آخر هذا الكتاب) .

وظل ملكهم قائماً حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي .
وقد حمل الإسلام إلى السوننكة في مواطنهم في إفريقية المدارية التجار
والدعاة القادمون عن طريق فزان « وقد أفاض المؤرخ محمود كعت الوعكري
في كتابه المسمى « بالفتاش » الكلام عن اتساع مملكة السوننكة هذه ، ووصف
ملوكها بأنهم ملوك الذهب وسمى مملكتهم مملكة غانة نسبة إلى عاصمتها أو مملكة
كيمغ نسبة إلى أول ملوكها ومعنى كيمغ ملك الذهب .

الكبرى ، إذ أن هذه الصحراء عندهم هي بحر الرمال . وهناك منطقة أخرى تعرف بالساحل تقع شرقي منطقة الجريد التونسية ، وهذه المنطقة هي الساحل الشمالي لبحر الرمال ، أما منطقة الساحل غربي حوض النيجر فهي ساحله الجنوبي ، والواحات في ذلك البحر الواسع تسمى بالجزائر ، وواحدتها جزيرة ، ويلاحظ أن لفظ الواحات أو الواح كان لا يطلق إلا على واحات مصر الغربية ، وهي سيوه (سنتره عند العرب) والقرافرة (القرفرون عندهم) والبحرية (وهي البحرين عندهم) والخارجة . واللفظ مصري قديم معناه الماء .

في منطقة الساحل النيجرية هذه عُرِفَت تلك القبيلة البربرية المهاجرة باسم سوننكة وتمكنت من السيطرة على إقليم الساحل كله ، ومدت سلطانها حتى حوض نهر النيجر الأعلى وسيطر رجالها على مدن مثل ده تنيكت (تمبكتو) وماسه وجيني ، وتغلبوا على قبائل الإقليم المجاور لهم مثل البيمبارا والونقارا والتكروور والفولا ، واتخذوا لأنفسهم عاصمة تتوسط ملكهم وهي غانة ، وموضعها اليوم قرية خربة تسمى كومي أو كومي صالح إلى الشمال من باماكو عاصمة جمهورية مالي الحالية . وقد ذكر ذلك محمود كعت في كتابه المعروف باسم « الفئاش » (١) .

وقد اتسع ملك السوننكة ، وتمولوا بفضل تبر الذهب الذي يكثر في أنهار هذا الإقليم ، واختلطوا بالسكان ، وصاهروهم ، ولكنهم ظلوا يحتفظون بشخصيتهم ولون بشرتهم السمراء . فكان رعاياهم من السود يعتبرونهم غرباء

(١) بدأ محمود كعت كتابه هذا سنة ١٥١٩/١٩٢٥ ونشره المستشرق الفرنسي هوداس في باريس سنة ١٩١٢ ، وهو من أهم مراجعنا عن تاريخ الاسلام في افريقية المدارية والاستوائية (انظر قائمة المراجع في آخر هذا الكتاب) .

المدارية إلى بلاد المغرب عبر الصحراء ، ومسافتها هناك شهران ، فإذا عبرت قوافل أودغشت الصحراء الكبرى قرب ساحل المحيط الأطلسي وصلوا إلى واحات سجلماسة عاصمة إقليم تافلالت .

وكانت البلدتان : أودغشت وسجلماسة أكبر المراكز التجارية في إفريقية كلها وقد تحدث عنها الجغرافيون العرب في تفصيل كثير ، وأوفاهم كلاماً عنها أبو عبيد البكري والشريف الإدريسي وابن حوقل على الترتيب . ولهذا يعتبر استيلاء حكام غانة من السوننكة على أودغشت حادثاً فاصلاً في تاريخ انتشار الإسلام في إفريقية المدارية لأنه مكن الغانيين من السيطرة على طريق التجارة ، وطريق التجارة هنا هو طريق اسلام .

وقد اندرست أودغشت اليوم ، والبكري يقول أنها كانت تقوم على مسافة شهرين من سجلماسة ، وعلى خمسة عشر يوماً من مدينة غانة القديمة التي تقوم مكانها اليوم مدينة خربة تسمى كومي صالح ، وتقع على مقربة من بلدة تجدادست Tegdadust شرقي منطقة تاجنت Togent

كذلك استولى الغانيون على أهم المدن غربي نهر النيجر مثل ولاتيه وأنبارة وكوغه وسامه . وخلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين بلغت مملكة غانة الثانية التي أنشأها الصوصو أوج اتساعها وقوتها ، وقد وصف امتدادها د. ابراهيم علي طرخان في كتابه القيم عن « إمبراطورية غانة الإسلامية » (القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٠) فقال : « وشملت من الأقاليم الهامة - بجانب اذكار وهود - باسيكورو Bassikuru ووجادو في الشرق وديارا في الغرب ، وكانياجا Kaniaga موطن الصوصو في الجنوب الشرقي ، والواقع أن مدى اتساع إمبراطورية غانة ليس معروفاً بالضبط ، ولكن المحقق أن نفوذها كان واسعاً بحيث أنها كانت صاحبة السيادة والنفوذ في جميع المساحات الواقعة بين النيجر والمحيط الأطلسي ، وصارت أعظم قوة سياسية في السودان الغربي ،

الكبرى ، إذ أن هذه الصحراء عندهم هي بحر الرمال . وهناك منطقة أخرى تعرف بالساحل تقع شرقي منطقة الجريد التونسية ، وهذه المنطقة هي الساحل الشمالي لبحر الرمال ، أما منطقة الساحل غربي حوض النيجر فهي ساحله الجنوبي ، والواحات في ذلك البحر الواسع تسمى بالجزائر ، وواحدتها جزيرة ، ويلاحظ أن لفظ الواحات أو الواح كان لا يطلق إلا على واحات مصر الغربية ، وهي سيوه (سنتره عند العرب) والقرافة (القفرون عندهم) والبحرية (وهي البحرين عندهم) والخارجة . واللفظ مصري قديم معناه الماء .

في منطقة الساحل النيجرية هذه عُرِفَت تلك القبيلة البربرية المهاجرة باسم سوننكة وتمكنت من السيطرة على إقليم الساحل كله ، ومدت سلطانها حتى حوض نهر النيجر الأعلى وسيطر رجالها على مدن مثل ده تنيكت (تمبكتو) وماسه وجيني ، وتغلبوا على قبائل الإقليم المجاور لهم مثل البيمبارا والونقارا والتكروور والفولا ، واتخذوا لأنفسهم عاصمة تتوسط ملكهم وهي غانة ، وموضعها اليوم قرية خربة تسمى كومي أو كومي صالح إلى الشمال من باماكو عاصمة جمهورية مالي الحالية . وقد ذكر ذلك محمود كعت في كتابه المعروف باسم « الفئاش » (١) .

وقد اتسع ملك السوننكة ، وتمولوا بفضل تبر الذهب الذي يكثر في أنهار هذا الإقليم ، واختلطوا بالسكان ، وصاهروهم ، ولكنهم ظلوا يحتفظون بشخصيتهم ولون بشرتهم السمراء . فكان رعاياهم من السود يعتبرونهم غرباء

(١) بدأ محمود كعت كتابه هذا سنة ١٥١٩/١٢٥ ونشره المستشرق الفرنسي هوداس في باريس سنة ١٩١٢ ، وهو من أهم مراجعنا عن تاريخ الاسلام في افريقية المدارية والاستوائية (انظر قائمة المراجع في آخر هذا الكتاب) .

الكبرى قادماً من الشمال من كبار المدن ذات الأسواق العامرة ، وكان مرد غناها إلى أنها كانت السوق الكبير للذهب الذي يستخرج من بعض أنهار إفريقيا المدارية ، ثم أنها كانت تقع في منطقة غنية واسعة الموارد ، فكانت لذلك عماداً كبيراً لمملكة غانة . وكانت قبائل صنهاجة الصحراء تمتد حتى تصل إلى أودغشت وحوض السنغال ، واسم النهر نفسه مشتق من اسم صنهاجة ، فقد أطلق ذلك الاسم عليه البرتغاليون ، فقالوا صنهاجال أي الصنهاجي ، ونطقوه Senegal ولزم الاسم النهر من ذلك الحين ، أما المسلمون فقد أطلقوا على هذا النهر اسم نهر غانة ، وقبل أن تستولى قبائل صنهاجة الصحراء على أودغشت كانت شهرتها بالذهب قد طبقت الآفاق ، قال أبو عبيد البكري في وصف إفريقيا والمغرب « وذهب أودغشت أجود من ذهب أهل الأرض ، وهو يطنب في كتابه في الكلام عن غنى تلك المدينة وما كان لأهلها من الثروة والخيرات ، ويقول أن معظم الناس هناك كانوا من الصنهاجين ولكنهم كانوا خاضعين لسلطين غانة ، وقبل أن يدخل المرابطون الناحية كان الإسلام قائماً في أودغشت ، وكان القرآن يعلم فيها للصغار في الكتاتيب (١) ، ويقول : وكان ملك أودغشت في الخمسين وثلاثمائة (أي في سنة ٣٥٠) تين بروتان بن ويسنو بن نزار « رجل من صنهاجة ، وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان كلهم يؤدي إليه الجزية » وكان عمله مسيرة شهرين في مثلها في عمارة ويعقد في مائة ألف نجيب . وهذا فيما علمنا أكبر قطيع من الجمال ملكه إنسان في التاريخ .

ولم يذكر البكري أو غيره أن ملك غانة هذا كان مسلماً ، ولكن أهل أودغشت كان فيهم إسلام كثير « نشره فيهم تجار المغرب والصنهاجيون منهم

(١) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق دى سلان . الجزائر سنة ١٨٥٧ ص ١٥٨ .

الكبرى ، إذ أن هذه الصحراء عندهم هي بحر الرمال . وهناك منطقة أخرى تعرف بالساحل تقع شرقي منطقة الجريد التونسية ، وهذه المنطقة هي الساحل الشمالي لبحر الرمال ، أما منطقة الساحل غربي حوض النيجر فهي ساحله الجنوبي ، والواحات في ذلك البحر الواسع تسمى بالجزائر ، وواحدتها جزيرة ، ويلاحظ أن لفظ الواحات أو الواح كان لا يطلق إلا على واحات مصر الغربية ، وهي سيوه (سنتره عند العرب) والقرافة (القفرون عندهم) والبحرية (وهي البحرين عندهم) والخارجة . واللفظ مصري قديم معناه الماء .

في منطقة الساحل النيجرية هذه عُرِفَت تلك القبيلة البربرية المهاجرة باسم سوننكة وتمكنت من السيطرة على إقليم الساحل كله ، ومدت سلطانها حتى حوض نهر النيجر الأعلى وسيطر رجالها على مدن مثل ده تنيكت (تمبكتو) وماسه وجيني ، وتغلبوا على قبائل الإقليم المجاور لهم مثل البيمبارا والونقارا والتكروور والفولا ، واتخذوا لأنفسهم عاصمة تتوسط ملكهم وهي غانة ، وموضعها اليوم قرية خربة تسمى كومي أو كومي صالح إلى الشمال من باماكو عاصمة جمهورية مالي الحالية . وقد ذكر ذلك محمود كعت في كتابه المعروف باسم « الفناش » (١) .

وقد اتسع ملك السوننكة ، وتمولوا بفضل تبر الذهب الذي يكثر في أنهار هذا الإقليم ، واختلطوا بالسكان ، وصاهروهم ، ولكنهم ظلوا يحتفظون بشخصيتهم ولون بشرتهم السمراء . فكان رعاياهم من السود يعتبرونهم غرباء

(١) بدأ محمود كعت كتابه هذا سنة ١٥١٩/١٩٢٥ ونشره المستشرق الفرنسي هوداس في باريس سنة ١٩١٢ ، وهو من أهم مراجعنا عن تاريخ الاسلام في افريقية المدارية والاستوائية (انظر قائمة المراجع في آخر هذا الكتاب) .

تحت لواء لإدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأقامت دولة الإدارة وعزت بها . كان يحيى بن ابراهيم يعرف أن عصب الدين هو الرباط الوحيد الذي يمكن أن يجمع الصنهاجيين بعضهم إلى بعض ويخرجهم من فوضى المنازعات المحلية القبلية الصغيرة ويطلق قواهم الكامنة التي تستطيع تحطيم النطاق المضروب عليهم » وعندما التقى يحيى بن ابراهيم بأبي عمران الفاسي في القيروان أخذت الفكرة صورة واضحة أمامه : فهو في حاجة إلى إمام يعلم قومه الدين وأخلاقياته والنظام والاتحاد ، خاصة وقد كانت جدالة من أكثر القبائل الصنهاجه الصحراوية فوضى واختلاف أمر ، ولم يجد أبو عمران من طلابه شاباً طموحاً عميق الإيمان جري القلب يقوم بهذه المهمة ، فنصح يحيى بن ابراهيم بأن يطلب ذلك إلى وجّاج بن زكّو فقيه سجلماسة وكان يقيم في قرية من قرى تافلت تسمى ملكوس ، وكان وجّاج أيضاً صنهاجياً صحراوياً من قبيلة لمطه » وكانت مضاربها في أقصى الصحراء جنوباً على أبواب إفريقية المدارية ومركزها مدينة مشهورة على البحر تسمى نول لمطه وكان بعض الجغرافيين العرب يرون أنها آخر بلاد الإسلام في أقصى بلاد المغرب إلى الجنوب .

وطلب ابراهيم الجدالي إلى وجّاج بن زكّو أن يرشح له واحداً من تلاميذه ، وشرح له المهمة التي كان يرجو أن يقوم بها هذا التلميذ ، وهي مهمة دينية سياسية ، والفقيه المطلوب ينبغي أن يكون من ناحية معلماً للقوم ومن ناحية أخرى زعيماً سياسياً لهم . ووقع اختيار وجّاج بن زكّو على عبد الله بن ياسين ، وكان شاباً عظيم النشاط واسع الذكاء ، وكان مؤهلاً بطبعه للقيام بهذه المهمة ، فقد كان رجل سياسة قبل أن يكون رجل فقه ، وكان يحس بمأساة قومه إحساساً عميقاً : ذهب إلى الأندلس فدرس على من تيسر له من شيوخه ، وفي طريق عودته من الأندلس إلى سجلماسة محترقاً المغرب الأقصى من شماله إلى جنوبه رأى استبداد زناته بصنهاجة وقدر في نفسه — كما يقول ابن عذارى — قوة

الكبرى ، إذ أن هذه الصحراء عندهم هي بحر الرمال . وهناك منطقة أخرى تعرف بالساحل تقع شرقي منطقة الجريد التونسية ، وهذه المنطقة هي الساحل الشمالي لبحر الرمال ، أما منطقة الساحل غربي حوض النيجر فهي ساحله الجنوبي ، والواحات في ذلك البحر الواسع تسمى بالجزائر ، وواحدتها جزيرة ، ويلاحظ أن لفظ الواحات أو الواح كان لا يطلق إلا على واحات مصر الغربية ، وهي سيوه (سنتره عند العرب) والقرافة (القرفرون عندهم) والبحرية (وهي البحرين عندهم) والخارجة . واللفظ مصري قديم معناه الماء .

في منطقة الساحل النيجرية هذه عُرِفَت تلك القبيلة البربرية المهاجرة باسم سوننكة وتمكنت من السيطرة على إقليم الساحل كله، ومدت سلطانها حتى حوض نهر النيجر الأعلى وسيطر رجالها على مدن مثل ده تنيكت (تمبكتو) وماسه وجيني ، وتغلبوا على قبائل الإقليم المجاور لهم مثل البيمبارا والونقارا والتكروور والفولا ، واتخذوا لأنفسهم عاصمة تتوسط ملكهم وهي غانة ، وموضعها اليوم قرية خربة تسمى كومي أو كومي صالح إلى الشمال من باماكو عاصمة جمهورية مالي الحالية . وقد ذكر ذلك محمود كعت في كتابه المعروف باسم « الفناش » (١) .

وقد اتسع ملك السوننكة ، وتمولوا بفضل تبر الذهب الذي يكثر في أنهار هذا الإقليم ، واختلطوا بالسكان ، وصاهروهم ، ولكنهم ظلوا يحتفظون بشخصيتهم ولون بشرتهم السمراء . فكان رعاياهم من السود يعتبرونهم غرباء

(١) بدأ محمود كعت كتابه هذا سنة ١٥١٩/١٢٥ ونشره المستشرق الفرنسي هوداس في باريس سنة ١٩١٢ ، وهو من أهم مراجعنا عن تاريخ الاسلام في افريقية المدارية والاستوائية (انظر قائمة المراجع في آخر هذا الكتاب) .

المرابطين هم مَزْدَكِي بن سِلْنكان وبنوه وأما ييت واسينو فقد أطلع القائدين العظمين يحيى بن واسينو وابنه عمر ، ولكل من آل سِلْنكان وآل واسينو صفحات مجيدة في تاريخ جهاد المرابطين في الأندلس .

المهم أن عبد الله بن ياسين وفق توفيقاً عظيماً في مهمته ، فتمكن من جمع صفوف لمتونة وتكوين قوات من المجاهدين في سبيل الدين سماهم المرابطين ، وتمكن بعد ذلك من جمع كلمة كل قبائل صنهاجة الصحراء إلى لواء واحد : فانضمت صفوف جدالة وملتونة ومسوفة وتارجا ويني وارث ، واستطاع هذا الرجل أن يحول هذه الكتلة الصنهاجية إلى قوة عسكرية مجاهدة ضخمة تحارب في جبهتين : جبهة زناتة في الشمال وجبهة السودان الغاني في الجنوب ، وفي كلتا الجبهتين كان توفيقه عظيماً ، واستولى على أودغشت من الغانيين وعاقب أهلها لخضوعهم للسوتنكيين الغانيين ، واستولى على سجلماسة من أيدي الزناتيين « وبهذا ملك المرابطون طريق التجارة والثروة والمال وتجردوا لما هو أهم من ذلك وأبعد مدى ، وهو الجهاد .

فقد وصل المرابطون مجاهدين في ناحية الجنوب إلى حوض السنغال ثم استولوا على غانة واستولوا كذلك على تمبكت وولانه وبلاد قبيلة جيني ثم وضعوا أيديهم على مناجم الذهب الكبرى شمالي جبال فوتا جالون ، وكانت هذه المناجم - إلى جانب تير الأنهار - أعظم مصدر للذهب في الدنيا حتى اكتشاف أمريكا وقد أكد ذلك ربنه موني . وبهذا الذهب اشتد ساعد الحركة المرابطية وخاصة إذا ذكرنا سيطرتها التامة على طرق التجارة الرئيسية من المغرب الأقصى إلى إفريقية المدارية والاستوائية . وهذا الذهب كان الأساس في إصلاح العملة المرابطية المشهور « فقد أعادوا الدينار إلى وزنه ، وأصبحت العملة المرابطية من أصح عملات الدنيا وانتشر استعمالها في غرب أوروبا كله ، وعرف الدينار المرابطي هناك اسم Maravedi أي مرابطي .

الكبرى ، إذ أن هذه الصحراء عندهم هي بحر الرمال . وهناك منطقة أخرى تعرف بالساحل تقع شرقي منطقة الجريد التونسية ، وهذه المنطقة هي الساحل الشمالي لبحر الرمال ، أما منطقة الساحل غربي حوض النيجر فهي ساحله الجنوبي ، والواحات في ذلك البحر الواسع تسمى بالجزائر ، وواحدتها جزيرة ، ويلاحظ أن لفظ الواحات أو الواح كان لا يطلق إلا على واحات مصر الغربية ، وهي سيوه (سنتره عند العرب) والقرافرة (القرفرون عندهم) والبحرية (وهي البحرين عندهم) والخارجة . واللفظ مصري قديم معناه الماء .

في منطقة الساحل النيجرية هذه عُرِفَت تلك القبيلة البربرية المهاجرة باسم سوننكة وتمكنت من السيطرة على إقليم الساحل كله، ومدت سلطانها حتى حوض نهر النيجر الأعلى وسيطر رجالها على مدن مثل ده تنيكت (تمبكتو) وماسه وجيني ، وتغلبوا على قبائل الإقليم المجاور لهم مثل البيمبارا والنقارا والتكروور والفولا ، واتخذوا لأنفسهم عاصمة تتوسط ملكهم وهي غانة ، وموضعها اليوم قرية خربة تسمى كومي أو كومي صالح إلى الشمال من باماكو عاصمة جمهورية مالي الحالية . وقد ذكر ذلك محمود كعت في كتابه المعروف باسم « الفئاش » (١) .

وقد اتسع ملك السوننكة ، وتمولوا بفضل تبر الذهب الذي يكثر في أنهار هذا الإقليم ، واختلطوا بالسكان ، وصاهروهم ، ولكنهم ظلوا يحتفظون بشخصيتهم ولون بشرتهم السمراء . فكان رعاياهم من السود يعتبرونهم غرباء

(١) بدأ محمود كعت كتابه هذا سنة ١٥١٩/١٢٥ ونشره المستشرق الفرنسي هوداس في باريس سنة ١٩١٢ ، وهو من أهم مراجعنا عن تاريخ الاسلام في افريقية المدارية والاستوائية (انظر قائمة المراجع في آخر هذا الكتاب) .

المدارية إلى بلاد المغرب عبر الصحراء ، ومسافتها هناك شهران ، فإذا عبرت قوافل أودغشت الصحراء الكبرى قرب ساحل المحيط الأطلسي وصلوا إلى واحات سجلماسة عاصمة إقليم تافلالت .

وكانت البلدتان : أودغشت وسجلماسة أكبر المراكز التجارية في إفريقية كلها وقد تحدث عنها الجغرافيون العرب في تفصيل كثير ، وأوفاهم كلاماً عنها أبو عبيد البكري والشريف الإدريسي وابن حوقل على الترتيب . ولهذا يعتبر استيلاء حكام غانة من السوننكة على أودغشت حادثاً فاصلاً في تاريخ انتشار الإسلام في إفريقية المدارية لأنه مكن الغانيين من السيطرة على طريق التجارة ، وطريق التجارة هنا هو طريق اسلام .

وقد اندرست أودغشت اليوم ، والبكري يقول أنها كانت تقوم على مسافة شهرين من سجلماسة ، وعلى خمسة عشر يوماً من مدينة غانة القديمة التي تقوم مكانها اليوم مدينة خربة تسمى كومي صالح ، وتقع على مقربة من بلدة تجدادست Tegdadust شرقي منطقة تاجنت Togent

كذلك استولى الغانيون على أهم المدن غربي نهر النيجر مثل ولاتيه وأنبارة وكوغه وسامه . وخلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين بلغت مملكة غانة الثانية التي أنشأها الصوصو أوج اتساعها وقوتها ، وقد وصف امتدادها د. ابراهيم علي طرخان في كتابه القيم عن « إمبراطورية غانة الإسلامية » (القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٠) فقال : « وشملت من الأقاليم الهامة - بجانب اديكار وهود - باسيكورو Bassikuru ووجادو في الشرق وديارا في الغرب ، وكانياجا Kaniaga موطن الصوصو في الجنوب الشرقي ، والواقع أن مدى اتساع إمبراطورية غانة ليس معروفاً بالضبط ، ولكن المحقق أن نفوذها كان واسعاً بحيث أنها كانت صاحبة السيادة والنفوذ في جميع المساحات الواقعة بين النيجر والمحيط الأطلسي ، وصارت أعظم قوة سياسية في السودان الغربي ،

حرب الأفيون المعروفة بحرب البوكسوز اشترى المسلمون الآلاف من أولاد قتلى هذه الحرب ما بين مسيحيين وصينيين . وقد تضخم عدد المسلمين في الصين بهذه الطريقة حتى بلغ عددهم في الصين قبل الحرب العالمية الأولى نحو ٥٠ مليوناً ، وبهذا أصبح الإسلام من أديان الصين الكبرى .

وكان المسلمون في الصين يدركون كراهة أهل الصين لمن ليس من جنسهم أو من لا يجري على مألوف عاداتهم ، ولهذا حرصوا على أن يعيشوا في أحياء خاصة بهم حتى لا يطلع الآخرون على صلواتهم وما يقومون به من شعائر عقيدتهم ، بل كانوا لا يبالغون في تعلية مآذن مساجدهم حتى لا يثيروا حفيظة الكهنة وسدنة المعابد ، وحرصوا على أن تكون هذه المساجد من الطراز الصيني . ولم يمانعوا في أن يضعوا في كل مسجد من مساجدهم لوحة - كان القانون يفرضها - فيها دعاء للامبراطور بطول العمر .

وفي المناطق التي كثر فيها المسلمون الصينيون مثل منغوليا - وهي بلاد التتار الصينيين - كان المسلمون يتبعون التقاليد الصينية بكل أمانة مجاملة للصينيين ولكنهم إلى جانب ذلك كانوا دائماً حريصين على السير طبقاً لتعاليم الإسلام وتطبيق عباداته وشريعته فيما بينهم .

وقد تمتع المسلمون في الصين بكل حقوق المواطنين وشغلوا أعلى مراتب الدولة فكان منهم كبار الموظفين والقواد .

واستمر مركز المسلمين في صعود ودينهم في انتشار حتى العصور الحديثة . بل إن جمهورية صُن-يات-صُن التي قضت على أسرة مانشو استمرت في إضفاء العطف والرعاية على المسلمين . كان مركزهم هناك كمركز مسلمي الجمهورية الهندية ، وقد اشترك المسلمون كمواطنين صينيين في حروب التحرير ضد اليابان وفي حروب الجمهورية ضد الحركة الشيوعية . ولم تنس لهم حكومة الثورة الشيوعية ذلك ، فاضطهدتهم كما اضطهدت

المدارية إلى بلاد المغرب عبر الصحراء ، ومسافتها هناك شهران ، فإذا عبرت قوافل أودغشت الصحراء الكبرى قرب ساحل المحيط الأطلسي وصلوا إلى واحات سجلماسة عاصمة إقليم تافلالت .

وكانت البلدتان : أودغشت وسجلماسة أكبر المراكز التجارية في إفريقية كلها وقد تحدث عنها الجغرافيون العرب في تفصيل كثير ، وأوفاهم كلاماً عنها أبو عبيد البكري والشريف الإدريسي وابن حوقل على الترتيب . ولهذا يعتبر استيلاء حكام غانة من السوننكة على أودغشت حادثاً فاصلاً في تاريخ انتشار الإسلام في إفريقية المدارية لأنه مكن الغانيين من السيطرة على طريق التجارة ، وطريق التجارة هنا هو طريق اسلام .

وقد اندرست أودغشت اليوم ، والبكري يقول أنها كانت تقوم على مسافة شهرين من سجلماسة ، وعلى خمسة عشر يوماً من مدينة غانة القديمة التي تقوم مكانها اليوم مدينة خربة تسمى كومي صالح ، وتقع على مقربة من بلدة تجدادست Tegdadust شرقي منطقة تاجنت Togent

كذلك استولى الغانيون على أهم المدن غربي نهر النيجر مثل ولاتة وأنبارة وكوغه وسامه . وخلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين بلغت مملكة غانة الثانية التي أنشأها الصوصو أوج اتساعها وقوتها ، وقد وصف امتدادها د. ابراهيم علي طرخان في كتابه القيم عن « إمبراطورية غانة الإسلامية » (القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٠) فقال : « وشملت من الأقاليم الهامة - بجانب ادكار وهود - باسيكورو Bassikuru ووجادو في الشرق وديارا في الغرب ، وكانياجا Kaniaga موطن الصوصو في الجنوب الشرقي ، والواقع أن مدى اتساع إمبراطورية غانة ليس معروفاً بالضبط ، ولكن المحقق أن نفوذها كان واسعاً بحيث أنها كانت صاحبة السيادة والنفوذ في جميع المساحات الواقعة بين النيجر والمحيط الأطلسي ، وصارت أعظم قوة سياسية في السودان الغربي ،

حرب الأفيون المعروفة بحرب البوكسوز اشترى المسلمون الآلاف من أولاد قتلى هذه الحرب ما بين مسيحيين وصينيين . وقد تضخم عدد المسلمين في الصين بهذه الطريقة حتى بلغ عددهم في الصين قبل الحرب العالمية الأولى نحو ٥٠ مليوناً ، وبهذا أصبح الإسلام من أديان الصين الكبرى .

وكان المسلمون في الصين يدركون كراهة أهل الصين لمن ليس من جنسهم أو من لا يجري على مألوف عاداتهم ، ولهذا حرصوا على أن يعيشوا في أحياء خاصة بهم حتى لا يطلع الآخرون على صلواتهم وما يقومون به من شعائر عقيدتهم ، بل كانوا لا يبالغون في تعلية مآذن مساجدهم حتى لا يثيروا حفيظة الكهنة وسدنة المعابد ، وحرصوا على أن تكون هذه المساجد من الطراز الصيني . ولم يمانعوا في أن يضعوا في كل مسجد من مساجدهم لوحة - كان القانون يفرضها - فيها دعاء للامبراطور بطول العمر .

وفي المناطق التي كثر فيها المسلمون الصينيون مثل منغوليا - وهي بلاد التتار الصينيين - كان المسلمون يتبعون التقاليد الصينية بكل أمانة مجاملة للصينيين ولكنهم إلى جانب ذلك كانوا دائماً حريصين على السير طبقاً لتعاليم الإسلام وتطبيق عباداته وشريعته فيما بينهم .

وقد تمتع المسلمون في الصين بكل حقوق المواطنين وشغلوا أعلى مراتب الدولة فكان منهم كبار الموظفين والقواد .

واستمر مركز المسلمين في صعود ودينهم في انتشار حتى العصور الحديثة . بل إن جمهورية صُن-يات-صُن التي قضت على أسرة مانشو استمرت في إضفاء العطف والرعاية على المسلمين . كان مركزهم هناك كمركز مسلمي الجمهورية الهندية ، وقد اشترك المسلمون كمواطنين صينيين في حروب التحرير ضد اليابان وفي حروب الجمهورية ضد الحركة الشيوعية . ولم تنس لهم حكومة الثورة الشيوعية ذلك ، فاضطهدتهم كما اضطهدت

حرب الأفيون المعروفة بحرب البوكسوز اشترى المسلمون الآلاف من أولاد قتلى هذه الحرب ما بين مسيحيين وصينيين . وقد تضخم عدد المسلمين في الصين بهذه الطريقة حتى بلغ عددهم في الصين قبل الحرب العالمية الأولى نحو ٥٠ مليوناً ، وبهذا أصبح الإسلام من أديان الصين الكبرى .

وكان المسلمون في الصين يدركون كراهة أهل الصين لمن ليس من جنسهم أو من لا يجري على مألوف عاداتهم ، ولهذا حرصوا على أن يعيشوا في أحياء خاصة بهم حتى لا يطلع الآخرون على صلواتهم وما يقومون به من شعائر عقيدتهم ، بل كانوا لا يبالغون في تعلية مآذن مساجدهم حتى لا يثيروا حفيظة الكهنة وسدنة المعابد ، وحرصوا على أن تكون هذه المساجد من الطراز الصيني . ولم يمانعوا في أن يضعوا في كل مسجد من مساجدهم لوحة - كان القانون يفرضها - فيها دعاء للامبراطور بطول العمر .

وفي المناطق التي كثر فيها المسلمون الصينيون مثل منغوليا - وهي بلاد التتار الصينيين - كان المسلمون يتبعون التقاليد الصينية بكل أمانة مجاملة للصينيين ولكنهم إلى جانب ذلك كانوا دائماً حريصين على السير طبقاً لتعاليم الإسلام وتطبيق عباداته وشريعته فيما بينهم .

وقد تمتع المسلمون في الصين بكل حقوق المواطنين وشغلوا أعلى مراتب الدولة فكان منهم كبار الموظفين والقواد .

واستمر مركز المسلمين في صعود ودينهم في انتشار حتى العصور الحديثة . بل إن جمهورية صُن-يات-صُن التي قضت على أسرة مانشو استمرت في إضفاء العطف والرعاية على المسلمين . كان مركزهم هناك كمركز مسلمي الجمهورية الهندية ، وقد اشترك المسلمون كمواطنين صينيين في حروب التحرير ضد اليابان وفي حروب الجمهورية ضد الحركة الشيوعية . ولم تنس لهم حكومة الثورة الشيوعية ذلك ، فاضطهدتهم كما اضطهدت

يسميهـم الفرنسيون توكولير Toucouleurs وأصلهـم فرع من الفولا أو الفولانيين « وهـم شعب كبير معروف في كل إفريقيا المدارية ، أصلهـم البعيد من بربر إقليم فزان ، عبروا إلى ناحية تشاد ، ومن ثم انتشروا وتكاثروا واختلطوا بالسكان واصبحوا سودانيين ، وإن كانوا أقل سواداً من جيرانهـم . وفي أراضي السهوب الممتدة من غربي نيجيريا الحالية إلى ساحل المحيط ، وعلى هذا الساحل من السنغال إلى الكمرون تمكن الفولا من إنشاء عدد من مراكز التجمع الفولانية الكبيرة : في فوتاتورو وفي السنغال وعند سفوح جبال فوتا جالون في غينيا وفي إقليم ماسينا في جمهورية مالي الحالية وفي إقليم ليتاكو في جمهورية الفولتا العليا ، وفي ناحية واسعة تمتد من شمال نيجيريا الكمرون تسمى ببلاد أومارة .

والفولانيون الذين استقروا في إقليم فوتاتورو في السنغال هم الذين عرفوا بالتكرارة الذين نتكلم عنهم .

وفي موطنهـم هذا أسلم التكرارة على يد عبد الله بن ياسين في اندفاعه نحو الجنوب ، وتحمسوا للإسلام حماساً شديداً ، وفي الجزء الأدنى من نهر السنغال الذي سكنوه تقع الجزيرة التي اتخذها عبد الله بن ياسين معتصماً لأصحابه ومتهذاً لتكوين الجماعة الذين سماهم المرابطين ، ومن قلب بلاد التكرور خرجت شرارة الحركة المرابطية التي احتضنتها قبائل صنهاجة الصحراء (لمتونة ومسوفة وجدالة وبنو وارث وتارجا) التي حملت الدعوة بعد ذلك . وعندما انقسمت حركة المرابطين قسمين : شمالي وجنوبي كان التكرارة هم صلب الجناح الجنوبي الذي قاده أبو بكر بن عمر وغزا به غانة . ولا زال التكرارة أو التكرور بعد ذلك حصناً من أقوى حصون الإسلام في إفريقيا المدارية الغربية ، وهـم الذين نهضوا بحركة الحاج عمر التي ستتحدث عنها في القرن التاسع عشر الميلادي ، وقد تمكنت جماعات منهم سكنت إفريقيا

المدارية من السنغال إلى أريتريا من إنشاء دويلات إسلامية إفريقية كثيرة .
وعندما قامت دولة مالي خضع لها التكايرة ولكنهم ظلوا كتلة إسلامية
متماسكة داخل الكيان المالي مسيطرة على بلاد فوتاتورو في السنغال ، وكان لهم
أثر بعيد في إسلام دولة مالي نفسها .

والآن نعود إلى تاريخ مالي حيث تركناه .

سيطر الماندينجو وهم أصحاب دولة مالي على البلاد الممتدة من نهر النيجر
إلى المحيط الأطلسي ، وأقاموا قبل وصول الإسلام إلى هذه النواحي أسراً
حاكمة مثل أسرة التوريرين في حوض السنغال الأعلى ، وأسرة الكوناتييين
(نسبة كوناته) شمال بلاد التوريرين ، وأسرة كايتا التي لا نعرف شيئاً محققاً
عن أصلها وإن كانت المأثورات الشعبية في مالي تقول أن منشأها كان رجلاً مسلماً
من الماندينجي أو الفولا الخاضعين لهم يسمى موسى ديجيو تولى عرش مالي فيما
بين سنتي ١٢٠٠ و ١٢١٨ م . وهناك رواية تقول أنه من سلالة بلال الحبشي
مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء طفلاً من الحجاز أوجاء أبوه
إلى بلاد الماندينجي وتزوج فيهم واستقر في بلاد التكايرة ثم دخل في عداد جماعة
البولا (بالباء الخفيفة وهي جماعة من العسكرين المرتزقين كان ملوك أسرة
الكوناتييين يعتمدون عليهم) . ودخل ابنه في عداد هذه الطبقة وتمكن عن
هذا الطريق من الوصول إلى السلطان . وأنشأ أسرة كايتا ، وكايتا لقب اتخذ
وهو محرف عن عبارة عربية ماندينجية هي « الله - كوي » أي الله خالق كل شيء
ثم حرفت إلى « الله - كوي » ثم الأكويتا ثم كويتا ثم كايتا ، وربما كان هذا كله مجرد
فرض لأن كايتا كان لقب أسرته من أول الأمر ثم اختسرت الأسطورة بعد
ذلك .

اتخذ موسى ديجيو أو موسى الأكوي أو موسى كايتا مدينة جربية في إقليم
كانجابا عاصمة له .

وأنجب موسى عدداً كبيراً من الأولاد ، فخلفه أكبرهم ويسمى ناري فان ماجان أو ناري فامغان الذي ظل يحكم حتى سنة ١٢٣٠م ، وقد بذل أثناء حكمه جهوداً كبيرة لنشر الإسلام بين رعيته .

وقد خاض ناري فامغان Naré Famaghan حروباً طويلة مع إخوته الذين نازعوه العرش ، وتغلب عليهم آخر الأمر ونقل عاصمته إلى شرقي جبال الفوتا جالون .

وعندما توفي سنة ١٢٣٠م خلفه ابنه «كوننيوغو- سمبا - كايثا» وفي أيامه قام سوما نخورو ملك الصوصو بهجوم عنيف على دولة مالي وهزم الماندينجي وقتل ملكهم وعشرة من إخوته ، ولم ينج من هذا المصير إلا ابنه الأصغر سنديانا .

تشرّد سنديانا في الأقاليم الجنوبية لدولة مالي وفي صحبته نفر من أصحابه الشجعان ، وتمكن من أن يجمع جيشاً قوياً من الماندينجي ويقودهم في صراع عنيف مع ملك الصوصو الوثني وتمكن من الانتصار عليه سنة ١٢٣٥م في موقعة حاسمة عند كيرينا قرب باماكو الحالية ، وطرد الصوصو من بلاد مالي وأعاد الاستقلال إلى بلاده وترجع على عرشها ، وغلب عليه اللقب الذي أطلقه أصحابه عليه وهو «ماري جاطه» أو «ماري دياتا» ومعناه: الأمير الأسد أو أسد مالي .

ويعتبر ماري جاطة البطل القومي للبلاد ، وهو أعظم سلاطين مالي على الإطلاق ، فقد وسع حدود مالي وغزا بلاد الصوصو وأخضعهم تماماً ، ثم خرب ما بقي من مدينة غانة القديمة ، وقسم دولته إلى اثني عشر قسماً إدارياً ولّى على كل منها رجلاً من كبار قواده . وكان عظيم الاهتمام بإدخال كل رعاياه في الإسلام ، وينسب إليه إدخال زراعة القطن في مالي . وفي أيامه ازداد رخاء مالي وتكاثر سكانها وعمهم كلهم الإسلام ، ولا زال يعمل حتى دخل فرع الونجارا كله - من أكبر فروع الماندينجي - في الإسلام .

المدارية من السنغال إلى أريتريا من إنشاء دويلات إسلامية إفريقية كثيرة .
وعندما قامت دولة مالي خضع لها التكايرة ولكنهم ظلوا كتلة إسلامية
متماسكة داخل الكيان المالي مسيطرة على بلاد فوتاتورو في السنغال ، وكان لهم
أثر بعيد في إسلام دولة مالي نفسها .

والآن نعود إلى تاريخ مالي حيث تركناه .

سيطر الماندينجو وهم أصحاب دولة مالي على البلاد الممتدة من نهر النيجر
إلى المحيط الأطلسي ، وأقاموا قبل وصول الإسلام إلى هذه النواحي أسراً
حاكمة مثل أسرة التوريرين في حوض السنغال الأعلى ، وأسرة الكوناتييين
(نسبة كوناته) شمال بلاد التوريرين ، وأسرة كايتا التي لا نعرف شيئاً محققاً
عن أصلها وإن كانت المأثورات الشعبية في مالي تقول أن منشأها كان رجلاً مسلماً
من الماندينجي أو الفولا الخاضعين لهم يسمى موسى ديجيو تولى عرش مالي فيما
بين سنتي ١٢٠٠ و ١٢١٨ م . وهناك رواية تقول أنه من سلالة بلال الحبشي
مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء طفلاً من الحجاز أوجاء أبوه
إلى بلاد الماندينجي وتزوج فيهم واستقر في بلاد التكايرة ثم دخل في عداد جماعة
البولا (بالباء الخفيفة وهي جماعة من العسكرين المرتزقين كان ملوك أسرة
الكوناتييين يعتمدون عليهم) . ودخل ابنه في عداد هذه الطبقة وتمكن عن
هذا الطريق من الوصول إلى السلطان . وأنشأ أسرة كايتا ، وكايتا لقب اتخذ
وهو محرف عن عبارة عربية ماندينجية هي «الله - كوي» أي الله خالق كل شيء
ثم حرفت إلى «الله - كوي» ثم الأكويتا ثم كويتا ثم كايتا ، وربما كان هذا كله مجرد
فرض لأن كايتا كان لقب أسرته من أول الأمر ثم اختسرت الأسطورة بعد
ذلك .

اتخذ موسى ديجيو أو موسى الأكوي أو موسى كايتا مدينة جربية في إقليم
كانجابا عاصمة له .

العسقلاني في الدرر الكامنة (٣٨٣/٤) وسماه موسى بن أبي بكر سالم التكروري ملك التكرور . وفي الحجاز أفاض الهدايا والصدقات على الناس .

وقد زادت هذه الحجة التاريخية من هبة السلطان كتنن موسى أو منسا موسى ، فتمكن بعد عودته إلى بلاده سنة ١٧٢٥ / ١٣٢٥ م من ضم تنكبت إلى بلاده ، ثم أعاد غزو مملكة صنغى في حوض النيجر وثبت دعائم الإسلام فيها . ولم يثبت لقوات منسا موسى إلا أهل دولة جني Jenné في حوض النيجر الأوسط وذلك بسبب حصانتها لإحاطة المستنقعات بها من كل ناحية .

وخلفه أخوه منسا سليمان ، وكان على شاكلته في الحماس للإسلام (٧٤١ - ١٧٥٧/١٣٤١ - ١٣٥٦ م) فأكثر من بناء المساجد واستقدام العلماء والإغداق عليهم فكثرت حلقات العلم في المساجد ، وأنشئت الكتابيب في القرى والمجالات لتعليم اللغة العربية ، ثم حج سنة ١٣٥٦ . وفي أيامه زار ابن بطوطة سلطنة مالي في عصر أبي عنان فارس المتوكل سلطان بني مرين (٧٤٩ - ١٧٥٩/١٣٤٨ - ١٣٥٨ م) وقد دخل ابن بطوطة مالي في جمادي الأولى ١٧٥٣ / يوليو ١٣٥٢ م وغادرها في المحرم سنة ١٧٥٤ / فبراير ١٣٥٢ م وهو يصور مالي دولة إسلامية زاهرة .

وبعد منسا سليمان أخذ أمر مالي في التدهور بسبب سوء الحكم وفساد التدبير وهجمات أعدائها عليها وأهمهم هنا رجال دولة صنغى ثم الفولانيون والتكرارة وأخيراً البرتغاليون .

وكان ملوك صنغى من ألد أعداء مالي ، فما زالوا يهاجمونها حتى اضطّر سلطان مالي محمد الأول المنسوب إلى قو بن ماري جاطة الأول إلى الاستغاثة بالأتراك العثمانيين سنة ١٤٨١ م وكانوا قد ثبتوا أقدامهم في طرابلس وإفريقية

والجزائر، ولكنهم لم يسعفوه ، ثم استعان بالبرتغاليين سنة ١٤٨١ م ، فلم يكن حظه معهم بأحسن ، ولكنه فتح أبواب بلاده للبرتغاليين ، فعرفوا طرقها وأحوالها ، مما كان له أثر سيء بعد ذلك في تيسير مهمة الاستعمار .

وعلى أي حال فقد ضعف أمر مالي ضعفاً شديداً ابتداء من القرن السادس عشر تحت ضربات صُنُغَى التي حلت محلها في الرياسة السياسية في غرب إفريقيا المدارية .

— دولة صنغاي ، أو صنغاي —

الصُّنْغَيُّ (صُنْغَاي) قبيلة من أهل السودان الغربي يسكنون من قديم الزمان على ضفاف النيجر الأوسط ، ومدينتهم الكبرى جاو التي ستصبح عاصمة دولتهم ، وتمتد بلادهم حتى تشمل المساحة الواسعة في انحاء النيجر الأكبر .

وتجاورهم من الشمال جماعات من الطوارق ، وهم خليط من سكان الصحراء القدامى والبربر وبقايا المرابطين ، وهم — أي الطوارق — يسيطرون على طرق الصحراء الكبرى التجارية وواحاتها ، وهم ليسوا لصوص صحراء أو قطاع طرق كما يصفهم الفرنسيون ، وإنما هم شعب إفريقي قائم بذاته له خصائصه من الشجاعة وعزة النفس حتى إنهم يلقبون بأمرأ الصحراء ، وقد اندرجت فيهم جماعات من بقايا المرابطين بعد انهزامهم أمام الموحدين ، مفضلين العيش أحراراً في شطف الصحراء على الحياة الآمنة تحت سلطان الدول الكبرى وخاصة الموحدين .

وتجاور الصنغاي من الغرب والجنوب جماعات شتى من أهل السودان أهمها الماندينجي أصحاب غانة ، وقد تحدثنا عنهم ، والجورمان والموسمي الذين يسميهم مؤرخو العرب الموشي وهم يسكنون إقليم ياتينجا وجورمان والكعارته والمسينا ، وتمتد بلاد صنغاي شرقاً حتى تتصل بالبرنو والكانيم في إقليم تشاد .

كان الصنغاي في أول أمرهم جماعة متماسكة من قبائل نهر النيجر التي لا تدخل في جماعة الماندينجي الكبيرة وظلت أعدادهم تزايد حتى سيطروا على المساحة التي ذكرناها .

حرب الأفيون المعروفة بحرب البوكسوز اشترى المسلمون الآلاف من أولاد قتلى هذه الحرب ما بين مسيحيين وصينيين . وقد تضخم عدد المسلمين في الصين بهذه الطريقة حتى بلغ عددهم في الصين قبل الحرب العالمية الأولى نحو ٥٠ مليوناً ، وبهذا أصبح الإسلام من أديان الصين الكبرى .

وكان المسلمون في الصين يدركون كراهة أهل الصين لمن ليس من جنسهم أو من لا يجري على مألوف عاداتهم ، ولهذا حرصوا على أن يعيشوا في أحياء خاصة بهم حتى لا يطلع الآخرون على صلواتهم وما يقومون به من شعائر عقيدتهم ، بل كانوا لا يبالغون في تعلية مآذن مساجدهم حتى لا يثيروا حفيظة الكهنة وسدنة المعابد ، وحرصوا على أن تكون هذه المساجد من الطراز الصيني . ولم يمانعوا في أن يضعوا في كل مسجد من مساجدهم لوحة — كان القانون يفرضها — فيها دعاء للامبراطور بطول العمر .

وفي المناطق التي كثر فيها المسلمون الصينيون مثل منغوليا — وهي بلاد التتار الصينيين — كان المسلمون يتبعون التقاليد الصينية بكل أمانة مجاملة للصينيين ولكنهم إلى جانب ذلك كانوا دائماً حريصين على السير طبقاً لتعاليم الإسلام وتطبيق عباداته وشريعته فيما بينهم .

وقد تمتع المسلمون في الصين بكل حقوق المواطنين وشغلوا أعلى مراتب الدولة فكان منهم كبار الموظفين والقواد .

واستمر مركز المسلمين في صعود ودينهم في انتشار حتى العصور الحديثة . بل إن جمهورية صُن-يات-صُن التي قضت على أسرة مانشو استمرت في إضفاء العطف والرعاية على المسلمين . كان مركزهم هناك كمركز مسلمي الجمهورية الهندية ، وقد اشترك المسلمون كمواطنين صينيين في حروب التحرير ضد اليابان وفي حروب الجمهورية ضد الحركة الشيوعية . ولم تنس لهم حكومة الثورة الشيوعية ذلك ، فاضطهدتهم كما اضطهدت

السودان ، ولكنهم يظهرون على مسرح التاريخ القرن الحادي عشر الميلادي .
وعلى رأسهم ملوكهم المسلمون الذين جاءوا بعد الملك صنيا .

وقد تعرضت بلاد صُنْغِي للغزو من قبيل دولة مالي أيام توسعها ، فقام عليّ بن ماري جاعة الأول بغزو بلادها ، ثم غزاها سيكرة الذي اغتصب عرش مالي من أحفاد ماري جاعة رداً من الزمان ، وتمكن من الاستيلاء على جاو عاصمة صُنْغِي ، ولكن سلطان مالي علي صُنْغِي لم يدم طويلاً ، فلم يلبث هذا السلطان أن تراخى . فلما عاد السلطان منسا كَنَكَن موسى من حجه سنة ١٣٢٥ ميلادية أمراً قائده سِجْمَان الذي يسميه ابن خلدون سَقْمَنْجَه فغزا صُنْغِي واحتل عاصمتها جاو ، ثم زارها كَنَكَن موسى وابني فيها جامعاً ، وترك فيها حامية ، وأخذ عدداً من رؤسائها وأبناء أمرائها رهائن وقرض عليها الجزية . ثم دخل كَنَكَن موسى مدينة تُنْبُكْت ، وكانت خاضعة لصُنْغِي ، وقد رحب به أهلها لأنهم كانوا يتنون من سلطان صُنْغِي عليهم ونهبهم أموالهم وكان ذلك سنة ٧١٨ - ٧١٩ هـ / ١٣١٨ - ١٣١٩ م وفيها بنى داراً للمملكة أو للحكم وجعلها مستقر حكامه .

وبعد عودة كَنَكَن موسى إلى مالي قامت قبائل الموشِي أو الموشِي الوثنية بغزو تُنْبُكْت حوالي سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م ونهبتها وخربتها ، ثم عادت تُنْبُكْت بعد ذلك إلى سلطان مالي ، وظلت خاضعة لها مدة قرن من الزمان حتى عادت صُنْغِي إلى الإستيلاء عليها بعد أن قوي شأنها .

وفي عهد مغان الأول بن مانسا كَنَكَن موسى (٧٣٨ - ٧٤٢ هـ / ١٣٣٧ - ١٣٤١ م) هرب رهائن صُنْغِي وعادوا إلى بلادهم ، وكانوا تقرأ من خيرة رؤساء قبائل الصُنْغِي وأمرائهم ، وكان منسا كَنَكَن موسى يعرف أن وجودهم عنده هو أكبر ضمان لطاعة أهل صُنْغِي ، ولهذا كان يشدد الحراسة والرقابة عليهم ، فلما جاء ابنه مغان أهمل هذه الحراسة ، فتمكن الرهائن من تدبير

المدارية من السنغال إلى أريتريا من إنشاء دويلات إسلامية إفريقية كثيرة .
وعندما قامت دولة مالي خضع لها التكايرة ولكنهم ظلوا كتلة إسلامية
متماسكة داخل الكيان المالي مسيطرة على بلاد فوتاتورو في السنغال ، وكان لهم
أثر بعيد في إسلام دولة مالي نفسها .

والآن نعود إلى تاريخ مالي حيث تركناه .

سيطر الماندينجو وهم أصحاب دولة مالي على البلاد الممتدة من نهر النيجر
إلى المحيط الأطلسي ، وأقاموا قبل وصول الإسلام إلى هذه النواحي أسراً
حاكمة مثل أسرة التوريرين في حوض السنغال الأعلى ، وأسرة الكوناتييين
(نسبة كوناته) شمال بلاد التوريرين ، وأسرة كايتا التي لا نعرف شيئاً محققاً
عن أصلها وإن كانت المأثورات الشعبية في مالي تقول أن منشأها كان رجلاً مسلماً
من الماندينجي أو الفولا الخاضعين لهم يسمى موسى ديجيو تولى عرش مالي فيما
بين سنتي ١٢٠٠ و ١٢١٨ م . وهناك رواية تقول أنه من سلالة بلال الحبشي
مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء طفلاً من الحجاز أوجاء أبوه
إلى بلاد الماندينجي وتزوج فيهم واستقر في بلاد التكايرة ثم دخل في عداد جماعة
البولا (بالباء الخفيفة وهي جماعة من العسكريين المرتزقين كان ملوك أسرة
الكوناتييين يعتمدون عليهم) . ودخل ابنه في عداد هذه الطبقة وتمكن عن
هذا الطريق من الوصول إلى السلطان . وأنشأ أسرة كايتا ، وكايتا لقب اتخذ
وهو محرف عن عبارة عربية ماندينجية هي « الله - كوي » أي الله خالق كل شيء
ثم حرفت إلى « الله - كوي » ثم الأكويتا ثم كويتا ثم كايتا ، وربما كان هذا كله مجرد
فرض لأن كايتا كان لقب أسرته من أول الأمر ثم اختُرعَت الأسطورة بعد
ذلك .

اتخذ موسى ديجيو أو موسى الأكوي أو موسى كايتا مدينة جربية في إقليم
كانجابا عاصمة له .

تولى العرش بعد سليمان دام أكبر ملوك أسرة سُن وهو سُن عليّ الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للملك صنفى الواسع، تولى سنة ١٤٦٨/٨٨٧٣ م وتوفي سنة ١٤٩٢/٨٨٩٨ م وكان رجلاً جريئاً واسع النشاط قليل التقيد بإشراط الإسلام، لأن رجال الدين كانوا يعترضون عليه كثيراً فأبغضهم وكثر إيذاؤه إياهم وعدوانه على المساجد والزوايا التي كانوا يقرأون فيها، ولهذا حمل عليه السعدي صاحب كتاب تاريخ السودان وأتهمه بالظلم والفجور وكانت أم سن علي من قبائل الماندنجي أصحاب مالي.

ومع ذلك فقد كان سُن عليّ الثامن عشر من ملوك أسرة سن أعظم فاتح مسلم ظهر في بلاد السودان الغربي « فسمى بعليّ برّ أو عليّ الكبير أو الشنّ أو السنّ فقط ، وقد أنشأ خلال سنوات حكمه السبعة والعشرين دولة تعادل مساحتها مساحة دولة إيران والعراق معاً تمتد من سيجو على نهر النيجر إلى ما يعرف اليوم باسم داهومي ، فطار صيته حتى وصل أوروبا » وأرسل إليه الملك جواو (يوحنا) الثاني ملك البرتغال سفارة تحيط به .

وفي سنة ١٤٦٨ م غزا سُن عليّ تنبكت ، وكان السوارق يحتلون منذ سنة ١٤٣٥ م وكانت مركزاً تجارياً كبيراً حافلاً بالتاجر والمساجد وأهل العلم والدين ، فطرد منها الطوارق وجعلها العاصمة الثانية لبلادها « ثم وقع الخلاف بينه وبين العلماء ، فاضطهدهم وأودع الكثيرين منهم في السجن ، ثم أحرق البلد .

ثم استولى على جنّي Jenné ، وهي ثالثة بلدة على نهر النيجر في تلك العصور بعد جاوه وتنبكت « وكان يحكمها رؤساء من السوتنكة المسلمين ، فجعلوها إمارة صغيرة غنية ، لأن تجارة الذهب تحولت من غانة إليها ، وكانت شهيرة بعلمائها ومساجدها ، ويقول السعدي أن سُن عليّ لم يستطع الاستيلاء عليها إلا بعد حصار دام سبع سنوات وسبعة أشهر وسبعة أيام ،

المدارية من السنغال إلى أريتريا من إنشاء دويلات إسلامية إفريقية كثيرة .
وعندما قامت دولة مالي خضع لها التكايرة ولكنهم ظلوا كتلة إسلامية
متماسكة داخل الكيان المالي مسيطرة على بلاد فوتاتورو في السنغال ، وكان لهم
أثر بعيد في إسلام دولة مالي نفسها .

والآن نعود إلى تاريخ مالي حيث تركناه .

سيطر الماندينجو وهم أصحاب دولة مالي على البلاد الممتدة من نهر النيجر
إلى المحيط الأطلسي ، وأقاموا قبل وصول الإسلام إلى هذه النواحي أسراً
حاكمة مثل أسرة التوريرين في حوض السنغال الأعلى ، وأسرة الكوناتييين
(نسبة كوناته) شمال بلاد التوريرين ، وأسرة كايتا التي لا نعرف شيئاً محققاً
عن أصلها وإن كانت المأثورات الشعبية في مالي تقول أن منشأها كان رجلاً مسلماً
من الماندينجي أو الفولا الخاضعين لهم يسمى موسى ديجيو تولى عرش مالي فيما
بين سنتي ١٢٠٠ و ١٢١٨ م . وهناك رواية تقول أنه من سلالة بلال الحبشي
مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء طفلاً من الحجاز أوجاء أبوه
إلى بلاد الماندينجي وتزوج فيهم واستقر في بلاد التكايرة ثم دخل في عداد جماعة
البولا (بالباء الخفيفة وهي جماعة من العسكرين المرتزقين كان ملوك أسرة
الكوناتييين يعتمدون عليهم) . ودخل ابنه في عداد هذه الطبقة وتمكن عن
هذا الطريق من الوصول إلى السلطان . وأنشأ أسرة كايتا ، وكايتا لقب اتخذ
وهو محرف عن عبارة عربية ماندينجية هي « الله - كوي » أي الله خالق كل شيء
ثم حرفت إلى « الله - كوي » ثم الأكويتا ثم كويتا ثم كايتا ، وربما كان هذا كله مجرد
فرض لأن كايتا كان لقب أسرته من أول الأمر ثم اختسرت الأسطورة بعد
ذلك .

اتخذ موسى ديجيو أو موسى الأكوي أو موسى كايتا مدينة جربية في إقليم
كانجابا عاصمة له .

أسرة أسكيا :

ويقول السعدي في أصل هذا الاسم أن بنات سنّ عليّ صيحن « أسكيا » ومعناه : لا يكون إياه أي عسى ألا يكون هذا هو غاصب عرسنا ، فلزمت هذه الصيغة آل الطوري وأصبحت أساً على بيتهم . والطوري هو الذي نحرف إلى توري في استعمالنا اليوم وأولى بنا إذا قلنا سيكوثوري أن نقول الشيخ الطوري .

احتفظت صنغى بازدهارها في عصر الأساكي خاصة وقد كان السلاطين من هذا البيت متمسكين بالإسلام مما زاد تعلق الناس بهم ، وقد حكم أبو بكر محمد الطوري أو الأساكي من ١٤٩٣م إلى ١٥٢٨ م وقد نظم بلاده تنظيمًا حسنًا = قسم دولته إلى ولايات ، وليّ على كل منها عاملاً من المخلصين له من أهل البلاد المسلمين ، واتخذ تنبكت عاصمة له واستقدم إليها العلماء والفقهاء وأكرمهم وأكثر من بناء المساجد والزوايا ، وأفاض المال على الفقهاء والعلماء الذين كانوا يقرأون العلم على الناس في هذه المساجد والزوايا .

وفي سنة ١٤٩٧م قام أسكيا محمد بن أبي بكر الطوري بالحج إلى البيت الحرام ، واصطحب معه ٥٠٠ فارس و ١٠٠٠ جندي ، وحمل معه ٣٠٠,٠٠٠ مثقال من الذهب ، وقد استقبله شريف مكة من أسرة الحسينيين استقبالا حفيًا ومنحه لقب خليفة .

وعاد محمد الطوري إلى بلاده وقد ازداد حماسه للإسلام فشدد الحملة على قبائل الموشي في ياتنجا وأدخل الكثيرين منهم في الإسلام .

وعلى الرغم من قضاء صنغى على مُلك مالي إلا أن سياسة الصنغيين في ترك حكم الأقاليم في يد أهل الطاعة لهم من سكان البلاد أتاح الفرصة لحكام مالي الماندينجيين للاحتفاظ بجانب كبير من استقلالهم ، بل إن كبيرهم في مالي ظل يحتفظ بلقب مُنسا . فلما شدد أسكيا محمد بن أبي بكر الطوري

المدارية من السنغال إلى أريتريا من إنشاء دويلات إسلامية إفريقية كثيرة .
وعندما قامت دولة مالي خضع لها التكايرة ولكنهم ظلوا كتلة إسلامية
متماسكة داخل الكيان المالي مسيطرة على بلاد فوتاتورو في السنغال ، وكان لهم
أثر بعيد في إسلام دولة مالي نفسها .

والآن نعود إلى تاريخ مالي حيث تركناه .

سيطر الماندينجو وهم أصحاب دولة مالي على البلاد الممتدة من نهر النيجر
إلى المحيط الأطلسي ، وأقاموا قبل وصول الإسلام إلى هذه النواحي أسراً
حاكمة مثل أسرة التوريرين في حوض السنغال الأعلى ، وأسرة الكوناتييين
(نسبة كوناته) شمال بلاد التوريرين ، وأسرة كايتا التي لا نعرف شيئاً محققاً
عن أصلها وإن كانت المأثورات الشعبية في مالي تقول أن منشأها كان رجلاً مسلماً
من الماندينجي أو الفولا الخاضعين لهم يسمى موسى ديجيو تولى عرش مالي فيما
بين سنتي ١٢٠٠ و ١٢١٨ م . وهناك رواية تقول أنه من سلالة بلال الحبشي
مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء طفلاً من الحجاز أوجاء أبوه
إلى بلاد الماندينجي وتزوج فيهم واستقر في بلاد التكايرة ثم دخل في عداد جماعة
البولا (بالباء الخفيفة وهي جماعة من العسكرين المرتزقين كان ملوك أسرة
الكوناتييين يعتمدون عليهم) . ودخل ابنه في عداد هذه الطبقة وتمكن عن
هذا الطريق من الوصول إلى السلطان . وأنشأ أسرة كايتا ، وكايتا لقب اتخذ
وهو محرف عن عبارة عربية ماندينجية هي « الله - كوي » أي الله خالق كل شيء
ثم حرفت إلى « الله - كوي » ثم الأكويتا ثم كويتا ثم كايتا ، وربما كان هذا كله مجرد
فرض لأن كايتا كان لقب أسرته من أول الأمر ثم اختسرت الأسطورة بعد
ذلك .

اتخذ موسى ديجيو أو موسى الأكوي أو موسى كايتا مدينة جربية في إقليم
كانجابا عاصمة له .

الذي ارتد عن الاسلام وتنصر وتسمى باسم ليو الإفريقي (ويقال إنه عاد إلى المغرب وإلى الإسلام في أواخر أيامه) وزار أيضاً بعض بلاد صغني الأخرى ، وقال « إن مرائب تجارة الكتب فاقت مرائب تجارة الذهب » ، وأضاف أن المصاحف والكتب الدينية الأدبية العربية كانت موضع فخر الناس ، وأن ثروة الرجل ومكانته كانت تقدر بعدد الكتب في خزانته وعدد الخيل في مراحطه .

وبينما كانت بلاد صغني في هذا الازدهار جاء الغزو المغربي الذي ستحدث عنه « فكان ضربة قاصمة ونهائية لدولة صغني ، فعندما تمكن القائد المغربي جَوْدَرُ باشا من هزيمة جيش صغني سنة ١٥٩٩/١٥٩٠م ودخلت قواته تنبكت ، قام على صغني كل أعدائها القدامى : المالون المندنجي بزعامة محمد الثالث سلطان مالي ، وخلع سلطان صغني ، وكذلك قام « حمد آمنة » سلطان الفولا في حوض السنغال وأعلن استقلاله عليهم .

انتهى أمر دولة صغني بهذا الغزو المغربي ، وعادت مالي إلى الظهور وحاول ملوكها الاستعانة ببعض الحكام المحليين ولكنهم لم يستطيعوا شيئاً ، وحاولوا التعرض للحاكم المغربي فلم يوفقوا إلى شيء .

وعقب ذلك اختفت دولة مالي هي الأخرى فكأن الغزو المغربي كان نهاية لمجد الدولة الإسلامية السودانية الذي وصفناه ، بالضبط كما كان غزو نادر شاه الأفشاري شاه فارس الهند وتخريبه للدهلي نقطة البداية لانحلال سلطان المسلمين في الهند وقد وقع الحادثان المؤسفان في نفس الوقت ، وهو عصر آخر الدولة الإسلامية الكبرى التي سادت عالم الإسلام من أقصاه خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، وهي على الترتيب من الشرق إلى الغرب : سلطنة مغول الهند ، ثم دولة الصفويين ثم الأفشاريين في إيران ثم دولة سلاطين ممالك مصر والشام في الشام ومصر ثم دولة سلاطين

المدارية من السنغال إلى أريتريا من إنشاء دويلات إسلامية إفريقية كثيرة .
وعندما قامت دولة مالي خضع لها التكايرة ولكنهم ظلوا كتلة إسلامية
متماسكة داخل الكيان المالي مسيطرة على بلاد فوتاتورو في السنغال ، وكان لهم
أثر بعيد في إسلام دولة مالي نفسها .

والآن نعود إلى تاريخ مالي حيث تركناه .

سيطر الماندينجو وهم أصحاب دولة مالي على البلاد الممتدة من نهر النيجر
إلى المحيط الأطلسي ، وأقاموا قبل وصول الإسلام إلى هذه النواحي أسراً
حاكمة مثل أسرة التوريرين في حوض السنغال الأعلى ، وأسرة الكوناتييين
(نسبة كوناته) شمال بلاد التوريرين ، وأسرة كايتا التي لا نعرف شيئاً محققاً
عن أصلها وإن كانت المأثورات الشعبية في مالي تقول أن منشأها كان رجلاً مسلماً
من الماندينجي أو الفولا الخاضعين لهم يسمى موسى ديجيو تولى عرش مالي فيما
بين سنتي ١٢٠٠ و ١٢١٨ م . وهناك رواية تقول أنه من سلالة بلال الحبشي
مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء طفلاً من الحجاز أوجاء أبوه
إلى بلاد الماندينجي وتزوج فيهم واستقر في بلاد التكايرة ثم دخل في عداد جماعة
البولا (بالباء الخفيفة وهي جماعة من العسكرين المرتزقين كان ملوك أسرة
الكوناتييين يعتمدون عليهم) . ودخل ابنه في عداد هذه الطبقة وتمكن عن
هذا الطريق من الوصول إلى السلطان . وأنشأ أسرة كايتا ، وكايتا لقب اتخذ
وهو محرف عن عبارة عربية ماندينجية هي « الله - كوي » أي الله خالق كل شيء
ثم حرفت إلى « الله - كوي » ثم الأكويتا ثم كويتا ثم كايتا ، وربما كان هذا كله مجرد
فرض لأن كايتا كان لقب أسرته من أول الأمر ثم اختسرت الأسطورة بعد
ذلك .

اتخذ موسى ديجيو أو موسى الأكوي أو موسى كايتا مدينة جربية في إقليم
كانجابا عاصمة له .

— غزو سلاطين المغرب لبلاد السودان الغربي —

في ذلك الوقت كان عرش مراکش عاصمة سلاطين السعديين أصحاب المغرب الأقصى قد آل إلى أحمد المنصور الملقب بالذهبي (١٥٧٨-١٦٠٣م) في ظروف مواتية لزيادة قوة البيت السعدي (نسبة إلى حليلة السعدية مرضع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد نسبوا إليها مع أنهم أشراف ينحدرون من الدوحة النبوية الشريفة) فقد كسب أخوه وسلفه عبد الملك في الرابع من أغسطس ١٥٧٨م نصراً مؤزرأ على البرتغاليين في موقعة وادي المخازن المعروفة أيضاً بمعركة الملوك الثلاثة ، وكانت نتيجة هذا النصر خروج البرتغاليين نهائياً من بلاد المغرب واتقطاع أطماعهم الاستعمارية فيه ، ونتج عن ذلك النصر أن البيت السعدي قفز إلى مراتب اليوت الحاكمة الكبرى في عالم النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي ، فتوافدت السفارات الأوروبية على بلاط فاس . وأصبحت هذه عاصمة دولة كبرى تمتد من تلمسان إلى طنجة ومن طنجة إلى أقصى السوس جنوباً عند وادي درعة . وقد تمكن أحمد السعدي الذي اتخذ لقب المنصور من إقامة دولة قوية منظمة أقرت الأمن وأشاعت الرخاء في الوطن المغربي كله .

وقد اتخذ أحمد المنصور الأتراك العثمانيين مثلاً يحتذيه ، فاتبع النظام التركي في ترتيب قصره وشئون دولته ، واتخذ من الأتراك مدربين لجيشه ، ونظم هذا الجيش على أسس عثمانية ، واتخذ لقب باشا لعمال النواحي ، وكانت في جيشه أعداد كبيرة من الأسبان الذين دخلوا في الإسلام ، ومنهم الكثيرون كان آباؤهم أندلسيين قد تنصروا بالقوة في أسبانيا فعادوا إلى الإسلام

المدارية من السنغال إلى أريتريا من إنشاء دويلات إسلامية إفريقية كثيرة .
وعندما قامت دولة مالي خضع لها التكايرة ولكنهم ظلوا كتلة إسلامية
متماسكة داخل الكيان المالي مسيطرة على بلاد فوتاتورو في السنغال ، وكان لهم
أثر بعيد في إسلام دولة مالي نفسها .

والآن نعود إلى تاريخ مالي حيث تركناه .

سيطر الماندينجو وهم أصحاب دولة مالي على البلاد الممتدة من نهر النيجر
إلى المحيط الأطلسي ، وأقاموا قبل وصول الإسلام إلى هذه النواحي أسراً
حاكمة مثل أسرة التوريرين في حوض السنغال الأعلى ، وأسرة الكوناتييين
(نسبة كوناته) شمال بلاد التوريرين ، وأسرة كايتا التي لا نعرف شيئاً محققاً
عن أصلها وإن كانت المأثورات الشعبية في مالي تقول أن منشأها كان رجلاً مسلماً
من الماندينجي أو الفولا الخاضعين لهم يسمى موسى ديجيو تولى عرش مالي فيما
بين سنتي ١٢٠٠ و ١٢١٨ م . وهناك رواية تقول أنه من سلالة بلال الحبشي
مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء طفلاً من الحجاز أوجاء أبوه
إلى بلاد الماندينجي وتزوج فيهم واستقر في بلاد التكايرة ثم دخل في عداد جماعة
البولا (بالباء الخفيفة وهي جماعة من العسكرين المرتزقين كان ملوك أسرة
الكوناتييين يعتمدون عليهم) . ودخل ابنه في عداد هذه الطبقة وتمكن عن
هذا الطريق من الوصول إلى السلطان . وأنشأ أسرة كايتا ، وكايتا لقب اتخذ
وهو محرف عن عبارة عربية ماندينجية هي « الله - كوي » أي الله خالق كل شيء
ثم حرفت إلى « الله - كوي » ثم الأكويتا ثم كويتا ثم كايتا ، وربما كان هذا كله مجرد
فرض لأن كايتا كان لقب أسرته من أول الأمر ثم اختُرعَت الأسطورة بعد
ذلك .

اتخذ موسى ديجيو أو موسى الأكوي أو موسى كايتا مدينة جربية في إقليم
كانجابا عاصمة له .

شمال جاو في ١٢ أبريل ١٥٩١م ثم دخل الجيش جاو فوجدها خاوية على عروشها قد غادرها أهلها ، فاستقر جودر باشا برجاله في تَنبِكت .

وشعر رجال الحملة بخيبة أمل كبرى عندما علموا أن مناجم الذهب لا زالت بعيدة جداً عنهم ، وأنهم لا بد أن يسيروا قدر ما ساروا في بلاد صحراوية أيضاً حتى يدخلوا في الغابة ويصلوا إلى سفوح جبال القوتاجالون . وشك السلطان أحمد المنصور في صدق جودر باشا فعزله وأرسل مكانه قائداً مغربياً يسمى محمود زرجون « فوصل إلى تنبكت وأخذ الرياسة من جودر ، وانتقل هذا الأخير إلى جاو .

وتفرق أمر صنغي ، وانتقل بعض زعمائها إلى دندي تاركين بلادهم نهياً للطوارق والبامبا را والقولا .

أما القائد محمود زرجون فلم يوفق في إرسال مقادير الذهب التي كان السلطان يطالبه بها . فعزله وتولى مكانه القائد منصور ، وأمر السلطان بأن يقبض على القائد محمود زرجون ويقتله « وأن يضع القاضي في الحديد ويرسله إلى المغرب مع نفر كبير من فقهاء تنبكت لأنه اتهمهم بخيائته . وكان من بين من وقع عليهم هذا العقاب المؤرخ أحمد بابا التنبكتي الذي حُمل إلى مراکش وظل في سجن السلطان حتى عفا عنه خليفة المنصور فعاد إلى بلاده سنة ١٦٠٧ م .

وأما القائد جودر فانتظر حتى هدأت الأحوال ، ثم عاد إلى مراکش محملاً بالأموال ، وأما بقية جنده فقد بقوا في البلاد وتزوجوا من أهلها واشتركوا معهم في الدفاع عن البلاد ضد هجمات الطوارق والني مباره أصحاب سيجو والماندنجي أصحاب مالي القديمة وانتهى أمرهم بأن استقوى أمرهم في دندي وأصبحوا من أهلها « فلم ينشئوا دولة ، وإنما اشتغلوا بالتجارة مع بلاد المغرب . فعادت هذه التجارة وانتعشت على أيديهم .

المدارية من السنغال إلى أريتريا من إنشاء دويلات إسلامية إفريقية كثيرة .
وعندما قامت دولة مالي خضع لها التكايرة ولكنهم ظلوا كتلة إسلامية
متماسكة داخل الكيان المالي مسيطرة على بلاد فوتاتورو في السنغال ، وكان لهم
أثر بعيد في إسلام دولة مالي نفسها .

والآن نعود إلى تاريخ مالي حيث تركناه .

سيطر الماندينجو وهم أصحاب دولة مالي على البلاد الممتدة من نهر النيجر
إلى المحيط الأطلسي ، وأقاموا قبل وصول الإسلام إلى هذه النواحي أسراً
حاكمة مثل أسرة التوريرين في حوض السنغال الأعلى ، وأسرة الكوناتييين
(نسبة كوناته) شمال بلاد التوريرين ، وأسرة كايتا التي لا نعرف شيئاً محققاً
عن أصلها وإن كانت المأثورات الشعبية في مالي تقول أن منشأها كان رجلاً مسلماً
من الماندينجي أو الفولا الخاضعين لهم يسمى موسى ديجيو تولى عرش مالي فيما
بين سنتي ١٢٠٠ و ١٢١٨ م . وهناك رواية تقول أنه من سلالة بلال الحبشي
مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء طفلاً من الحجاز أوجاء أبوه
إلى بلاد الماندينجي وتزوج فيهم واستقر في بلاد التكايرة ثم دخل في عداد جماعة
البولا (بالباء الخفيفة وهي جماعة من العسكرين المرتزقين كان ملوك أسرة
الكوناتييين يعتمدون عليهم) . ودخل ابنه في عداد هذه الطبقة وتمكن عن
هذا الطريق من الوصول إلى السلطان . وأنشأ أسرة كايتا ، وكايتا لقب اتخذ
وهو محرف عن عبارة عربية ماندينجية هي « الله - كوي » أي الله خالق كل شيء
ثم حرفت إلى « الله - كوي » ثم الأكويتا ثم كويتا ثم كايتا ، وربما كان هذا كله مجرد
فرض لأن كايتا كان لقب أسرته من أول الأمر ثم اختُرعَت الأسطورة بعد
ذلك .

اتخذ موسى ديجيو أو موسى الأكوي أو موسى كايتا مدينة جربية في إقليم
كانجابا عاصمة له .

يسمى بقوس الحديد أو قوس الرُّجل ، لأن الرامي كان يجذب القوس برجله لتكون قوة اندفاعه بعد ذلك أشد . وتلك كانت بنادق القرن الثالث عشر والرابع عشر ، فلما اكتشف البارود حُوِّلَت قناة البندق إلى اسطوانه طويلة قطرها قطر البندقه « وجعل السهم يمر في القناة ، ثم تحشى القناة من أمام بالبارود ، ويوضع داخل قناة البندق زناد إذا ضربه رأس السهم اشتعل فأشعل البارود فاندفع وقذف بندق الحديد بقوة شديدة وهذه هي بدايات البنادق التي نعرفها اليوم ، وقد ظهرت في القرن السادس عشر وعرفها المسلمون واستعملوها ، ولكن الأوروبيون سبقوهم في تجويدها وتطويرها فكان ذلك التطوير حاسماً بالنسبة لعلاقتهم بنا .

وقد أصبحت طبقة الأرماء السودانية المغربية هي الطبقة الأرستقراطية في البلاد ، منهم النبلاء وأبناء القادة والنبيلات بنات عليّة القوم « وفيهم الأوساط من سلالة الضباط وبنات الأسر . ومنهم العامة من أبناء الجند . ومن الغريب أن معظم هؤلاء الآخرين اشتغلوا بالحرف وخاصة صناعة السابِطَات وهي الأحذية واشتهروا بذلك .

والكسب الوحيد الذي حققه السلطان أحمد المنصور الذهبي من وراء هذه المغامرة التي قضى فيها على دولة إسلامية مجيدة في فجر عصر الاستعمار هي مقادير ضخمة من تبر الذهب أرسلها إليه قادة الحملات الأولى ، ويقول اليفرنى في « نزهة الحادي » أن وفرة الذهب الذي وصل إلى المنصور جعلته يدفع رواتب جنده وتنفقات جيشه وقصوره بالذهب الصامت . وكان في دار سكته في فاس ١٤٠٠ طابِيع أي مطرقة يرمم السكة تعمل كل يوم ، ومن هنا لقب هذا السلطان بالذهبي ، ويحكى التاجر الانجليزى لورنس مادوك Laurence Madoc الذي أقام ربحاً من الزمن وكيلا تجارياً في مراكش أنه رأى مرة ثلاثين بغلا محملة بأجوال تبر الذهب الواردة على

المدارية من السنغال إلى أريتريا من إنشاء دويلات إسلامية إفريقية كثيرة .
وعندما قامت دولة مالي خضع لها التكاورة ولكنهم ظلوا كتلة إسلامية
متماسكة داخل الكيان المالي مسيطرة على بلاد فوتاتورو في السنغال ، وكان لهم
أثر بعيد في إسلام دولة مالي نفسها .

والآن نعود إلى تاريخ مالي حيث تركناه .

سيطر الماندينجو وهم أصحاب دولة مالي على البلاد الممتدة من نهر النيجر
إلى المحيط الأطلسي ، وأقاموا قبل وصول الإسلام إلى هذه النواحي أسراً
حاكمة مثل أسرة التوريرين في حوض السنغال الأعلى ، وأسرة الكوناتييين
(نسبة كوناته) شمال بلاد التوريرين ، وأسرة كايتا التي لا نعرف شيئاً محققاً
عن أصلها وإن كانت المأثورات الشعبية في مالي تقول أن منشأها كان رجلاً مسلماً
من الماندينجي أو الفولا الخاضعين لهم يسمى موسى ديجيو تولى عرش مالي فيما
بين سنتي ١٢٠٠ و ١٢١٨ م . وهناك رواية تقول أنه من سلالة بلال الحبشي
مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء طفلاً من الحجاز أوجاء أبوه
إلى بلاد الماندينجي وتزوج فيهم واستقر في بلاد التكاورة ثم دخل في عداد جماعة
البولا (بالباء الخفيفة وهي جماعة من العسكرين المرتزقين كان ملوك أسرة
الكوناتييين يعتمدون عليهم) . ودخل ابنه في عداد هذه الطبقة وتمكن عن
هذا الطريق من الوصول إلى السلطان . وأنشأ أسرة كايتا ، وكايتا لقب اتخذ
وهو محرف عن عبارة عربية ماندينجية هي « الله - كوي » أي الله خالق كل شيء
ثم حرفت إلى « الله - كوي » ثم الأكويتا ثم كويتا ثم كايتا ، وربما كان هذا كله مجرد
فرض لأن كايتا كان لقب أسرته من أول الأمر ثم اختسرت الأسطورة بعد
ذلك .

اتخذ موسى ديجيو أو موسى الأكوي أو موسى كايتا مدينة جربية في إقليم
كانجابا عاصمة له .

الغربية وجعلته الديانة الرئيسية من حدود الصحراء الكبرى إلى بلاد الكونغو .
ومع الإسلام أخذت هذه الدول أصول الحضارة العربية ، وسارت بها إلى
الأمم وطوعتها لظروف حياتها في البيئة الإفريقية ، فأنشأت الدول الكبرى
ونظمتها على أسس إسلامية ، وأقامت المدن وعبأت الجيوش واتخذت
الحروف العربية لكتابة لغاتها ، واجتهد أهلها في تعلم العربية ودراسة القرآن
الكريم واقتباس علوم الإسلام وفنونه ، فنهضت الثقافة نهضة كبرى وقامت
حلقات الدرس في المساجد في المدن والزوايا في القرى .

وكان للشرعة الإسلامية في تلك البلاد أبعد الأثر ، فلأول مرة في التاريخ
يعرف سكان السودان الغربي شريعة محكمة وقانوناً يقوم على العدالة ومكارم
الأخلاق .

وقد أقبل أهل إفريقية الغربية على دراسة الشريعة الإسلامية ، ورحل
المئات من أبناء هذه البلاد إلى مراكش وفاس والقيروان والقاهرة لدراسة
الشريعة الإسلامية والتفقه فيها ، وتكاثرت أعداد أولئك الطلاب في الأزهر
خاصة حتى أنشيء لهم رواق خاص يسمى رواق غانة عنيبت به مشيخة
الأزهر وأوقف عليه الناس الأوقاف الواسعة ، وكان ملوك غانة ومالي
وصنغي الذين ذهبوا للحج يشترون في مصر الأراضي والضيايع والدور
ويوقفونها على رواق غانة ، وكانت مشيخة الأزهر تختار شيخاً أزهرياً
للرواق وتحرص على أن يكون ذلك الشيخ غانياً ، لأن الكثيرين من طلاب
غانة كانوا يستقرون في مصر ويصبحون من أهلها ، أما العائدون منهم إلى
بلادهم فكانوا يحتلون مكانة رفيعة بين الناس ، فيعولون القضاء
والافتاء ، حتى القبائل المسلمة التي كانت خارجة عن طاعة السلاطين كانوا
يستقدمون الفقهاء ليقوموا العدل والشريعة ويعلموا الناس القرآن والسنة ،
فنشأت الكتاتيب في كل مكان في السودان الغربي .

بل كان هؤلاء الفقهاء حَمَلَةَ إِسلام عاونوا على إدخال قبائل كبرى في الإسلام ، لأن رؤساء القبائل الوثنيين كانوا يستدعون الفقهاء إلى بلادهم ليحكموا بين الناس بشريعة الإسلام وإن لم يكونوا مسلمين ، فقد بهرت هذه الشريعة العادلة نفوسهم بعدالتها وسموها ورعايتها لمكارم الأخلاق ، وعندما كان الفقهاء يستقرون في البلاد كانوا يلقون من الناس تكرامة وأزواقاً واسعة ، فكان ذلك حافزاً لهم على التخلق بالأخلاق الإسلامية الكريمة ، ولحق بهم إخوانهم ، فتكاثروا في تلك البلاد ، وعملت الشريعة عملها في اجتذاب الناس إلى الإسلام ، فأسلمت قطاعات واسعة من قبائل الموسي التي كانت معادية للإسلام لأسباب قبلية ، بل حدث أن شيوخ قبائل البامبارا والحوكون والبورجو التي تعيش داخل نطاق الغابات الكثيفة فيما يعرف الآن بدهومي وساحل العاج والكمرون والجابون استدعت فقهاء الإسلام واتخذت شريعته شريعة لها ، ثم انتهى أمرها بدخول الإسلام . وهكذا نجد هذا الدين الحنيف المبارك يفتح لنفسه طرقاً ومسالك في أوعر البلاد وأصعبها مداخل ، فهذا نطاق الغابات الاستوائية كان نطاقاً عازلاً يتعذر على غير أهل البلاد اقتحامه ، وعندما جاء الاستعمار الأوروبي فتحت جيوش الفرنسيين والانجليز والبلجيكيين والبرتغاليين الطرق إلى دواخل هذه البلاد بالحديد والنار ، ومع ذلك فهي لم تحكمها قط ، وإنما كان همها أن ترهب الأهالي ليسلموا لها الأخشاب والتبر وسن الفيل والأبنوس والكاكاو وما إليها دون ثمن تقريباً ، وكانت غارات رجالها متوالية لصيد السودانيين عبيداً ويبيعهم في الأسواق رقيقاً وخاصة للنخاسين الأوروبيين الذين أنشأوا لأنفسهم مراكز لصيد السودانيين على السواحل ، وكانوا يستعملون أقسى الأساليب في هذا الصيد ، حتى لقد كانوا يحرقون القرية على أهلها في الفجر ليقتنصوا بضع عشرات من الشبان والشابات يصيدوهم كالحیوانات ويحرقونهم بالسلاسل إلى الشواطئ حيث يكدسون في سفن دون أدنى رعاية صحية

أو إنسانية فلا يصل منهم حياً إلى الشواطئ الأمريكية إلا العُشر ، وهناك يباع الناجون في الأسواق بالمراد .

فأين الإسلام السمح الرحيم من ذلك كله ، لقد دخل عن طريق الكلمة الطيبة وعن طريق الشريعة السمحة ، دخل قلوب الناس واستقر فيها وفتح لهم طريق الحضارة والنور ، وتحول مع الزمن إلى دين قومي لأولئك الناس .

وقد حكى أحد الرحالة قصة تؤكد ما قلناه ، قال : « أرسلتني جماعتي الدومينيكية إلى قرية صغيرة تسمى باهو غير بعيدة عن الشاطئ في إقليم الفوتاجالون ، وكنت قد تدرّبت على التطبيب وبناء البيوت واستعمال الأدوات الحديثة لكي أخدم أولئك الناس واجتذبهم إلى الكاثوليكية . وكان معي ستة من المساعدين وقدرٌ طيب من المال لنبيّ كنيسة ومستشفى ومدرسة » ومضينا في عملنا ثلاث سنوات ، فبنينا الكنيسة والمستشفى والمدرسة » وبينما نحن نعمل نزل القرية فقيه مُرابط (Marabout) مسلم من أهل تمبكتو يسمى حاجي أبسلام (عبد السلام) وأخذ يدعو ويقضي بين الناس ، وفي أقل من ستة شهور كانت القرية كلها وما حولها قد دخلت في الإسلام بعمل ذلك الفقيه المرباط الواحد ، وانصرف الناس عنا وعن كنيستنا ومستشفانا ومدرستنا ، ووجدنا أنفسنا بدون عمل إطلاقاً ، وكتبنا بذلك إلى رؤسائنا في يوردو ، فأرسلوا أسقفاً ليستجلي الأمر ، فأقام معنا ثلاثة شهور ، ثم قال لنا : أظن يا أولادي أنه لا مستقبل لنا هنا . دعوا كل شيء لأولئك الناس وأمضوا عنهم فقد تغلب عليكم ذلك الفقيه الواحد » (١) .

(١) رواء الاستاذ شارل مونتاي :

Charles Monteil, les Bambara de Seghe et les Karata. Paris 1929

ونقله عنه ابنه المستشرق فنسان مونتاي في دراسة له عن الاسلام في افريقية الغربية .

المدارية من السنغال إلى أريتريا من إنشاء دويلات إسلامية إفريقية كثيرة .
وعندما قامت دولة مالي خضع لها التكايرة ولكنهم ظلوا كتلة إسلامية
متماسكة داخل الكيان المالي مسيطرة على بلاد فوتاتورو في السنغال ، وكان لهم
أثر بعيد في إسلام دولة مالي نفسها .

والآن نعود إلى تاريخ مالي حيث تركناه .

سيطر الماندينجو وهم أصحاب دولة مالي على البلاد الممتدة من نهر النيجر
إلى المحيط الأطلسي ، وأقاموا قبل وصول الإسلام إلى هذه النواحي أسراً
حاكمة مثل أسرة التوريرين في حوض السنغال الأعلى ، وأسرة الكوناتييين
(نسبة كوناته) شمال بلاد التوريرين ، وأسرة كايتا التي لا نعرف شيئاً محققاً
عن أصلها وإن كانت المأثورات الشعبية في مالي تقول أن منشأها كان رجلاً مسلماً
من الماندينجي أو الفولا الخاضعين لهم يسمى موسى ديجيو تولى عرش مالي فيما
بين سنتي ١٢٠٠ و ١٢١٨ م . وهناك رواية تقول أنه من سلالة بلال الحبشي
مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء طفلاً من الحجاز أوجاء أبوه
إلى بلاد الماندينجي وتزوج فيهم واستقر في بلاد التكايرة ثم دخل في عداد جماعة
البولا (بالباء الخفيفة وهي جماعة من العسكريين المرتزقين كان ملوك أسرة
الكوناتييين يعتمدون عليهم) . ودخل ابنه في عداد هذه الطبقة وتمكن عن
هذا الطريق من الوصول إلى السلطان . وأنشأ أسرة كايتا ، وكايتا لقب اتخذ
وهو محرف عن عبارة عربية ماندينجية هي « الله - كوي » أي الله خالق كل شيء
ثم حرفت إلى « الله - كوي » ثم الأكويتا ثم كويتا ثم كايتا ، وربما كان هذا كله مجرد
فرض لأن كايتا كان لقب أسرته من أول الأمر ثم اختسرت الأسطورة بعد
ذلك .

اتخذ موسى ديجيو أو موسى الأكوي أو موسى كايتا مدينة جربية في إقليم
كانجابا عاصمة له .

- فترة الركود :

بعد القضاء على دولة صنغي عادت إفريقية الغربية الإدارية إلى سابق عهدها من الفوضى ، فانقسمت البلاد من جديد إلى إمارات أو مشيخات قبلية صغيرة ومع أن معظم هذه التكوينات السياسية الصغيرة كانت إسلامية إلا أن الحروب بين بعضها وبعض وعودة الصراعات القبلية القديمة أبطأت بحركة انتشار الإسلام الجماعية بين بقية أهل القبائل التي قامت عليها ممالك السودان الثلاثة الكبرى التي ذكرناها . ومع ذلك فقد ظل الإسلام ينتشر في بطاء على أيدي بعض الأمراء الصغار ورؤساء القبائل ، وعلى أيدي الدعاة من أهل الطرق الصوفية والتجار الذين لم يكفوا أبداً عن حمل راية الإسلام والسير بها إلى الأمام . كذلك ظهرت دويلات إسلامية صغيرة قامت بنصيب مشكور في ذلك .

وأهم هذه الدول دولتان أنشأتهما قبائل البامبارا على ضفتي نهر النيجر بعد زوال دولة صنغي سنة ١٥٩١ م . والبامبارا جماعة سودانية زراعية كبيرة كانت تعمل في الزراعة في حوض النيجر الأوسط منذ قرون ، ثم استقرت في بلادها جماعة من دعاة الإسلام من الفولا ودفعتهم إلى إقامة نظام سياسي إسلامي ، وابتداء من القرن السابع عشر تشهد قيام دولتين من سودان البامبارا : الأولى على الجانب الأيمن للنهر مركزها سيجو والثانية على يساره أنشأها فرع الماساي من البامبارا ومكانها منطقة كعارته . وقد انتشر الإسلام بين البامبارا في بطاء شديد ، لأن هذه القبائل كانت شديدة التمسك بعقائدها التي تقوم على الترويح (١) وهو اعتبار كل الكائنات ذات أرواح خيثة أو شريرة ، والقول بأن هذه الأرواح تقرر كل شيء في مصائر البشر ، ومن ثم تقام لها الطقوس

(١) ترجمنا بهذا اللفظ لفظ Animisme الاوديمي .

بل كان هؤلاء الفقهاء حَمَلَةَ إِسلام عاونوا على إدخال قبائل كبرى في الإسلام ، لأن رؤساء القبائل الوثنيين كانوا يستدعون الفقهاء إلى بلادهم ليحكموا بين الناس بشريعة الإسلام وإن لم يكونوا مسلمين ، فقد بهرت هذه الشريعة العادلة نفوسهم بعدالتها وسموها ورعايتها لمكارم الأخلاق ، وعندما كان الفقهاء يستقرون في البلاد كانوا يلقون من الناس تكرامة وأزواقاً واسعة ، فكان ذلك حافزاً لهم على التخلق بالأخلاق الإسلامية الكريمة ، ولحق بهم إخوانهم ، فتكاثروا في تلك البلاد ، وعملت الشريعة عملها في اجتذاب الناس إلى الإسلام ، فأسلمت قطاعات واسعة من قبائل الموسي التي كانت معادية للإسلام لأسباب قبلية ، بل حدث أن شيوخ قبائل البامبارا والحوكون والبورجو التي تعيش داخل نطاق الغابات الكثيفة فيما يعرف الآن بدهومي وساحل العاج والكمرون والجابون استدعت فقهاء الإسلام واتخذت شريعته شريعة لها ، ثم انتهى أمرها بدخول الإسلام . وهكذا نجد هذا الدين الحنيف المبارك يفتح لنفسه طرقاً ومسالك في أوعر البلاد وأصعبها مداخل ، فهذا نطاق الغابات الاستوائية كان نطاقاً عازلاً يتعذر على غير أهل البلاد اقتحامه ، وعندما جاء الاستعمار الأوروبي فتحت جيوش الفرنسيين والانجليز والبلجيكيين والبرتغاليين الطرق إلى دواخل هذه البلاد بالحديد والنار ، ومع ذلك فهي لم تحكمها قط ، وإنما كان همها أن ترهب الأهالي ليسلموا لها الأخشاب والتبر وسن الفيل والأبنوس والكاكاو وما إليها دون ثمن تقريباً ، وكانت غارات رجالها متوالية لصيد السودانيين عبيداً ويبيعهم في الأسواق رقيقاً وخاصة للنخاسين الأوروبيين الذين أنشأوا لأنفسهم مراكز لصيد السودانيين على السواحل ، وكانوا يستعملون أقسى الأساليب في هذا الصيد ، حتى لقد كانوا يحرقون القرية على أهلها في الفجر ليقتنصوا بضع عشرات من الشبان والشابات يصيدوهم كالحیوانات ويحرقونهم بالسلاسل إلى الشواطئ حيث يكدسون في سفن دون أدنى رعاية صحية

● نهضة الاسلام فى السودان بزعامه الفولانيين والتكارة

كان الفولانيون شعباً من الرعاة موطنه الأصلي في حوض السنغال ، وقد انتشرت فروع هذا الشعب وجماعاته في كل المساحة الواسعة الممتدة من السنغال إلى إقليم تشاد . واشتهرت منهم أربعة فروع كبيرة هي :

(أ) الفولانيون السنغاليون المعروفون بفولا فوتا تورو .

(ب) الفولانيون الغينيون المعروفون بفولا الفوتا جالون .

(ج) الفولانيون في إقليم ماسينا وبلاد الحوسى (الهاوزا) .

(د) الفولانيون في أدماوة في جنوب شرقي نيجيريا وبلاد الكمرون .

— دولة الفولانيين السنغاليين فى إقليم فوتافورو :

وقد دخل الفولانيون في الإسلام على أيدي المرابطين منذ القرن الحادي عشر الميلادي وتحمسوا له وقاموا بدعوته وكسبوا إلى جانبهم التكارة أو شعب التكرور . ومواطنه الأولى في شمال حوض نهر غمبيا ، وهم بدو أيضاً ، وقد اختلط الفولانيون والتكارة على مر الزمن وأصبحا عماد الإسلام في بلد السودان الغربي حتى قيل أن بلاد التكرور وهي ملتقى أجناس شتى بحكم موقعها تشبه المدينة المنورة من حيث أنها مركز إشعاع ديني عظيم .

وقد خضع التكارة لدولة غانة قبل أن تدخل الإسلام ، ثم أصبحوا خلفاء المرابطين ، ودخلوا في الإسلام على أيديهم وحاربوا في صفوفهم ، وبفضلهم أصبحت منطقة الفوتا تورو مركزاً كبيراً للدعوة الإسلامية ، وقد سبق أن ذكرنا

بل كان هؤلاء الفقهاء حَمَلَةَ إِسلام عاونوا على إدخال قبائل كبرى في الإسلام ، لأن رؤساء القبائل الوثنيين كانوا يستدعون الفقهاء إلى بلادهم ليحكموا بين الناس بشريعة الإسلام وإن لم يكونوا مسلمين ، فقد بهرت هذه الشريعة العادلة نفوسهم بعدالتها وسموها ورعايتها لمكارم الأخلاق ، وعندما كان الفقهاء يستقرون في البلاد كانوا يلقون من الناس تكرامة وأزواقاً واسعة ، فكان ذلك حافزاً لهم على التخلق بالأخلاق الإسلامية الكريمة ، ولحق بهم إخوانهم ، فتكاثروا في تلك البلاد ، وعملت الشريعة عملها في اجتذاب الناس إلى الإسلام ، فأسلمت قطاعات واسعة من قبائل الموسي التي كانت معادية للإسلام لأسباب قبلية ، بل حدث أن شيوخ قبائل البامبارا والجوكون والبورجو التي تعيش داخل نطاق الغابات الكثيفة فيما يعرف الآن بدهومي وساحل العاج والكمرون والجابون استدعت فقهاء الإسلام واتخذت شريعته شريعة لها ، ثم انتهى أمرها بدخول الإسلام . وهكذا نجد هذا الدين الحنيف المبارك يفتح لنفسه طرقاً ومسالك في أوعر البلاد وأصعبها مداخل ، فهذا نطاق الغابات الاستوائية كان نطاقاً عازلاً يتعذر على غير أهل البلاد اقتحامه ، وعندما جاء الاستعمار الأوروبي فتحت جيوش الفرنسيين والانجليز والبلجيكيين والبرتغاليين الطرق إلى دواخل هذه البلاد بالحديد والنار ، ومع ذلك فهي لم تحكمها قط ، وإنما كان همها أن ترهب الأهالي ليسلموا لها الأخشاب والتبر وسن الفيل والأبنوس والكاكاو وما إليها دون ثمن تقريباً ، وكانت غارات رجالها متوالية لصيد السودانيين عبيداً ويبيعهم في الأسواق رقيقاً وخاصة للنخاسين الأوروبيين الذين أنشأوا لأنفسهم مراكز لصيد السودانيين على السواحل ، وكانوا يستعملون أقسى الأساليب في هذا الصيد ، حتى لقد كانوا يحرقون القرية على أهلها في الفجر ليقتنصوا بضع عشرات من الشبان والشابات يصيدوهم كالحیوانات ويحرقونهم بالسلاسل إلى الشواطئ حيث يكدسون في سفن دون أدنى رعاية صحية

أنه يقال إن الفولانيين أصلهم قبيلة من صنهاجة الصحراء ، وهم في العادة ينسبون أنفسهم إلى مَسُوْفَة . لإحدى كبريات قبائل صنهاجة الصحراء ، وكان لرجالها فضل عظيم في إقامة دولة المرابطين .

واستمر التكرارة والفولانيون خاضعين لدولة غانة الإسلامية ، ثم خضعوا لدولة مالي ، وفيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين قامت أسرة من أسر قبائل الجُلُف التي تسمى عادة بالوُلُف – وهم قبيلة هجين من الفولانيين وبربر الصحراء – بإقامة دولة بزعامة انجاياني وبسطت سلطانها على بلاد التكرور ، وكانت إذ ذاك خاضعة لدولة مالي التي كانت في أوج قوتها . وكان هذا الفريق من الجُلُف على الوثنية .

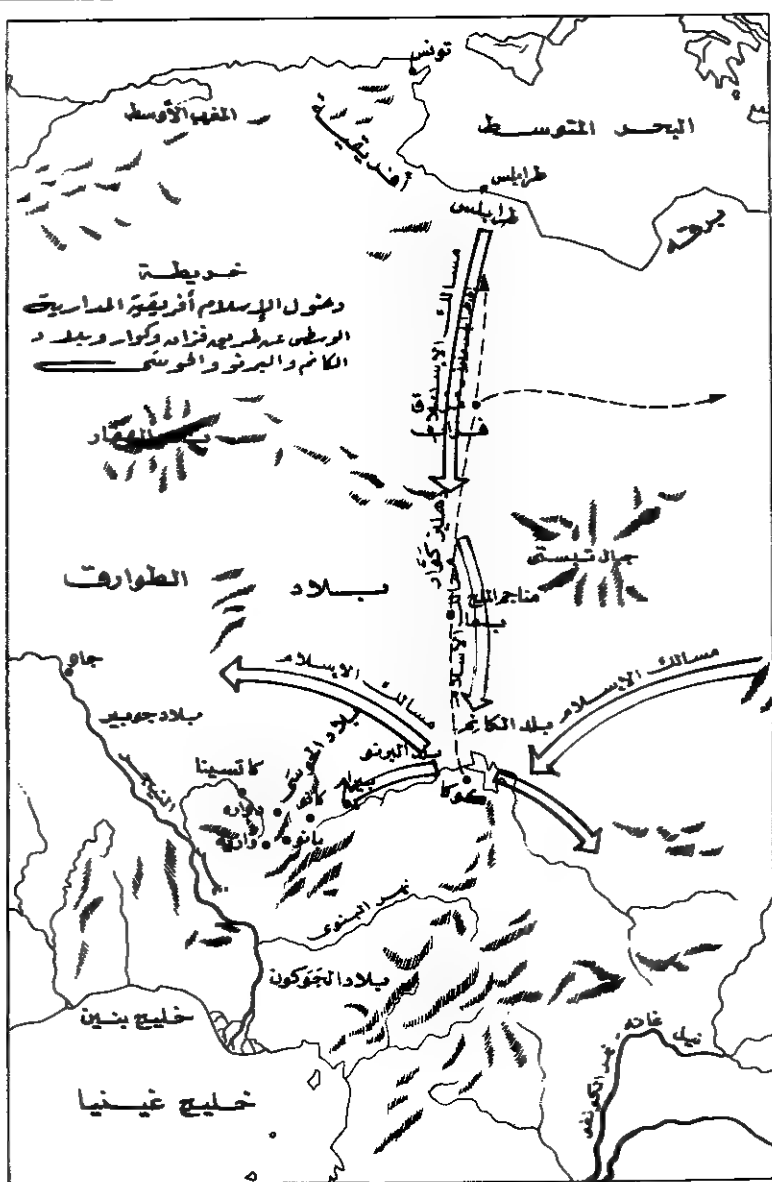
وفي سنة ١٧٧٦م أقام زعيم من التكرارة هو الإمام (في لغتهم تحرف إلى المامي) بالثورة على سلطان الجُلُف وقتل ملكهم وأدخل هذا الفريق من التكرارة في الإسلام . وقامت بفضل دولة إسلامية قوية في كل حوض السنغال (أي بلاد القورتا قورو) تضم الفولانيين والتكرور والوُلُف . وقد استمرت هذه الدولة قائمة عاملة على نشر الإسلام فيما حولها حتى قضى عليها المستعمرون الفرنسيون .

— دولة الفولانيين في منطقة جبال الفوتا جالون وهي غينيا :

منطقة الفوتاجالون منطقة جبلية واسعة ، وهي تعتبر خط تقسيم مياه تنحدر منها إلى الغرب أنهار السنغال والجامبيا والكونكوري ، ومنها ينبع نهر النيجر ويسير شمالا بشرق ، وله فرع ينحدر من الجبال غرباً نحو المحيط الأطلسي .

ونظراً للارتفاع ووفرة المياه في ذلك الإقليم نجد بلاد الفوتاجالون منطقة غنية بالزراعات والماشية وهي ذات جو معتدل ، وفي القرن السادس عشر

بل كان هؤلاء الفقهاء حَمَلَةَ إِسلام عاونوا على إدخال قبائل كبرى في الإسلام ، لأن رؤساء القبائل الوثنيين كانوا يستدعون الفقهاء إلى بلادهم ليحكموا بين الناس بشريعة الإسلام وإن لم يكونوا مسلمين ، فقد بهرت هذه الشريعة العادلة نفوسهم بعدالتها وسموها ورعايتها لمكارم الأخلاق ، وعندما كان الفقهاء يستقرون في البلاد كانوا يلقون من الناس تكرامة وأزواقاً واسعة ، فكان ذلك حافزاً لهم على التخلق بالأخلاق الإسلامية الكريمة ، ولحق بهم إخوانهم ، فتكاثروا في تلك البلاد ، وعملت الشريعة عملها في اجتذاب الناس إلى الإسلام ، فأسلمت قطاعات واسعة من قبائل الموسي التي كانت معادية للإسلام لأسباب قبلية ، بل حدث أن شيوخ قبائل البامبارا والحوكون والبورجو التي تعيش داخل نطاق الغابات الكثيفة فيما يعرف الآن بدهومي وساحل العاج والكمرون والجابون استدعت فقهاء الإسلام واتخذت شريعته شريعة لها ، ثم انتهى أمرها بدخول الإسلام . وهكذا نجد هذا الدين الحنيف المبارك يفتح لنفسه طرقاً ومسالك في أوعر البلاد وأصعبها مداخل ، فهذا نطاق الغابات الاستوائية كان نطاقاً عازلاً يتعذر على غير أهل البلاد اقتحامه ، وعندما جاء الاستعمار الأوروبي فتحت جيوش الفرنسيين والانجليز والبلجيكيين والبرتغاليين الطرق إلى دواخل هذه البلاد بالحديد والنار ، ومع ذلك فهي لم تحكمها قط ، وإنما كان همها أن ترهب الأهالي ليسلموا لها الأخشاب والتبر وسن الفيل والأبنوس والكاكاو وما إليها دون ثمن تقريباً ، وكانت غارات رجالها متوالية لصيد السودانيين عبيداً ويبيعهم في الأسواق رقيقاً وخاصة للنخاسين الأوروبيين الذين أنشأوا لأنفسهم مراكز لصيد السودانيين على السواحل ، وكانوا يستعملون أقسى الأساليب في هذا الصيد ، حتى لقد كانوا يحرقون القرية على أهلها في الفجر ليقتنصوا بضع عشرات من الشبان والشابات يصيدوهم كالحیوانات ويحرقونهم بالسلاسل إلى الشواطئ حيث يكدسون في سفن دون أدنى رعاية صحية



المدارية إلى بلاد المغرب عبر الصحراء ، ومسافتها هناك شهران ، فإذا عبرت قوافل أودغشت الصحراء الكبرى قرب ساحل المحيط الأطلسي وصلوا إلى واحات سجلماسة عاصمة إقليم تافلالت .

وكانت البلدتان : أودغشت وسجلماسة أكبر المراكز التجارية في إفريقية كلها وقد تحدث عنها الجغرافيون العرب في تفصيل كثير ، وأوفاهم كلاماً عنها أبو عبيد البكري والشريف الإدريسي وابن حوقل على الترتيب . ولهذا يعتبر استيلاء حكام غانة من السوننكة على أودغشت حادثاً فاصلاً في تاريخ انتشار الإسلام في إفريقية المدارية لأنه مكن الغانيين من السيطرة على طريق التجارة ، وطريق التجارة هنا هو طريق اسلام .

وقد اندرست أودغشت اليوم ، والبكري يقول أنها كانت تقوم على مسافة شهرين من سجلماسة ، وعلى خمسة عشر يوماً من مدينة غانة القديمة التي تقوم مكانها اليوم مدينة خربة تسمى كومي صالح ، وتقع على مقربة من بلدة تجدادست Tegdadust شرقي منطقة تاجنت Togent

كذلك استولى الغانيون على أهم المدن غربي نهر النيجر مثل ولاتيه وأنبارة وكوغه وسامه . وخلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين بلغت مملكة غانة الثانية التي أنشأها الصوصو أوج اتساعها وقوتها ، وقد وصف امتدادها د. ابراهيم علي طرخان في كتابه القيم عن « إمبراطورية غانة الإسلامية » (القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٠) فقال : « وشملت من الأقاليم الهامة - بجانب اديكار وهود - باسيكورو Bassikuru ووجادو في الشرق وديارا في الغرب ، وكانياجا Kaniaga موطن الصوصو في الجنوب الشرقي ، والواقع أن مدى اتساع إمبراطورية غانة ليس معروفاً بالضبط ، ولكن المحقق أن نفوذها كان واسعاً بحيث أنها كانت صاحبة السيادة والنفوذ في جميع المساحات الواقعة بين النيجر والمحيط الأطلسي ، وصارت أعظم قوة سياسية في السودان الغربي ،

أعلن الجهاد على الحوسى سنة ١٨٠٤م ، وكان الكثير من هؤلاء قد انضموا إليه ، فانتصر على قوات الحوسى وأصبح سيد المنطقة ، واتخذ لنفسه لقب الشيخ وأمير المؤمنين ، ثم مضى فأخضع ماجاوره من بلاد الحوسى مثل كُتينا وزاريه ونويه وكبّه وأنشأ من ذلك كله سلطنة واسعة اتخذ سوكونو عاصمة لها وأخذ يتوسع في بلاد قبائل اليوروبا .

وحاول عثمان دان فوديو أن يستولى على بلاد البُرُنو إلى الشرق ، ولكن هؤلاء وقفوا في وجهه بقيادة قائد عسكري يسمى الكانمي ، وانتهى الأمر بأن اتفق الجانبان على التصالح وإيقاف القتال .

وفي تلك الأثناء ظهر بين الفولا الذين استقروا فيما كان يعرف باسم أدَمَاوَه وهي الكمرون شيخ عالم مجاهد يسمى ادما خلع عليه الناس لقب مؤدّب أو موديو بلغتهم ومعناه العالم الفقيه . وكان عثمان دان موديو بعد أن أتم إخضاع بلاد الحوسى فيما عدا القائم قد استقر في عاصمته سنة ١٨٠٩م . وفي سنة ١٨١١م نجده يستدعي موديو أداما ويسلم له رايته البيضاء وهي رايته في الجهاد ، ويكلفه بمواصلة الحرب حتى ينشر الإسلام فيما يلي نهر البنوي وهو فرع كبير من فروع النيجر يصب في ضفته الشرقية ، فنهض أداما بالمهمة وأعلن على الوثنيين حرباً عنيفة فأدخل معظم ما يعرف اليوم بالكمرون في الإسلام ، وبلغ من قوة سلطانه أن تغير اسم الإقليم من بنوي إلى أدَمَاوَه نسبة إليه . وتوفي مؤدب أداما سنة ١٨٤٧م ، وخلفه ثلاثة من أبنائه على التوالي . وفي سنة ١٩٠١م احتل الإنجليز البلاد وأقاموا رابع أولاد مؤدب أداما ، واسمه أداما أيضاً - أميراً على تلك البلاد التي أصبحت مستعمرة .

وفي تلك الأثناء ظل عثمان دان توجو سلطاناً في بلاده وهي إقليم جويبر في منعطف نهر النيجر وما دخل في طاعته من البلاد شرقي النهر ، فلما توفي سنة ١٨١٨م تقاسم ملكه اثنان من أسرته هما أخوه عبد الله (يكتب ويتنطق

بل كان هؤلاء الفقهاء حَمَلَةَ إِسلام عاونوا على إدخال قبائل كبرى في الإسلام ، لأن رؤساء القبائل الوثنيين كانوا يستدعون الفقهاء إلى بلادهم ليحكموا بين الناس بشريعة الإسلام وإن لم يكونوا مسلمين ، فقد بهرت هذه الشريعة العادلة نفوسهم بعدالتها وسموها ورعايتها لمكارم الأخلاق ، وعندما كان الفقهاء يستقرون في البلاد كانوا يلقون من الناس تكرامة وأزواقاً واسعة ، فكان ذلك حافزاً لهم على التخلق بالأخلاق الإسلامية الكريمة ، ولحق بهم إخوانهم ، فتكاثروا في تلك البلاد ، وعملت الشريعة عملها في اجتذاب الناس إلى الإسلام ، فأسلمت قطاعات واسعة من قبائل الموسي التي كانت معادية للإسلام لأسباب قبلية ، بل حدث أن شيوخ قبائل البامبارا والحوكون والبورجو التي تعيش داخل نطاق الغابات الكثيفة فيما يعرف الآن بدهومي وساحل العاج والكمرون والجابون استدعت فقهاء الإسلام واتخذت شريعته شريعة لها ، ثم انتهى أمرها بدخول الإسلام . وهكذا نجد هذا الدين الحنيف المبارك يفتح لنفسه طرقاً ومسالك في أوعر البلاد وأصعبها مداخل ، فهذا نطاق الغابات الاستوائية كان نطاقاً عازلاً يتعذر على غير أهل البلاد اقتحامه ، وعندما جاء الاستعمار الأوروبي فتحت جيوش الفرنسيين والانجليز والبلجيكيين والبرتغاليين الطرق إلى دواخل هذه البلاد بالحديد والنار ، ومع ذلك فهي لم تحكمها قط ، وإنما كان همها أن ترهب الأهالي ليسلموا لها الأخشاب والتبر وسن الفيل والأبنوس والكاكاو وما إليها دون ثمن تقريباً ، وكانت غارات رجالها متوالية لصيد السودانيين عبيداً ويبيعهم في الأسواق رقيقاً وخاصة للنخاسين الأوروبيين الذين أنشأوا لأنفسهم مراكز لصيد السودانيين على السواحل ، وكانوا يستعملون أقسى الأساليب في هذا الصيد ، حتى لقد كانوا يحرقون القرية على أهلها في الفجر ليقتنصوا بضع عشرات من الشبان والشابات يصيدوهم كالحیوانات ويحرقونهم بالسلاسل إلى الشواطئ حيث يكدسون في سفن دون أدنى رعاية صحية

وتمكن حماد الشيخ (أو حمادو سيكو بلغة القوم هناك) من تنظيم دولته تنظيماً دقيقاً ، فقسم هضاب الماسينا إلى ولايات ، وأقام على كل ولاية والياً لشئون الحكم وقاضياً لشئون القضاء ، وأنشأ مجلساً للحكم من أربعين شيخاً من المرابطين بالإضافة إلى ستين شيخاً آخرين من كبار المرابطين ، وجعل هذه الهيئة تركز السلطة العليا في البلاد .

أما في شئون المال فقد قرر ضريبة قدرها العشر على جميع حاصلات الأرض ، وقدر جباية قليلة على الماشية وأخذ الزكاة على المال بنصابها الشرعي ، وقدّر على سكان كل ناحية ضريبة من الطعام تقوم بشئون أئمة المساجد وقومتها وخدمها . وبهذه الأموال سبّر أمور دولته ودفع أرزاق جنده .

واتخذ خطوات عملية نحو إقرار السكان لإخراجهم من حالة البداوة إلى الاستقرار ، فأصدر أمراً بأن تنشئ كل جماعة منهم قرية تستقر فيها ، وأن يجعلوا في قريتهم سوقاً في يوم مقرر من الأسبوع ، وطلب من كل أهل قرية أن يحددوا حوز قريتهم ويقوموا باستصلاح أرضه وتخفيف مستنقعاته وإنشاء المساجد في القرى .

ونتيجة لهذه الإجراءات انتعشت البلاد ورخيت الأحوال ، فزاد إنتاج الملح وحسب الكولا في ناحية غينيا خاصة ، وتوافد التجار على البلاد من أوروبا ومصر حاملين شتى البضائع المستحدثة ، وكثر الحرير المصري في الأسواق ، وقدم إلى البلاد الصناعات وأهل الحرف من كل صوب ، وأصبحت بلاد الماسينا وامتدادها فيما يعرف بغينيا اليوم ملتقى الناس والقوافل والمتاجر ، وعمرت الطرق بتجار الفولا والبمبارة والديولا ، أصحاب ناحية كونج ، والحوسى القادمين من نواحي بحيرة تشاد والتكرور من السنغال والمغاربة والطوارق والعرب .

وعلى هذه الصورة من الاستقرار والازدهار وجد الرحالة الأوروبيون

بل كان هؤلاء الفقهاء حَمَلَةَ إِسلام عاونوا على إدخال قبائل كبرى في الإسلام ، لأن رؤساء القبائل الوثنيين كانوا يستدعون الفقهاء إلى بلادهم ليحكموا بين الناس بشريعة الإسلام وإن لم يكونوا مسلمين ، فقد بهرت هذه الشريعة العادلة نفوسهم بعدالتها وسموها ورعايتها لمكارم الأخلاق ، وعندما كان الفقهاء يستقرون في البلاد كانوا يلقون من الناس تكرامة وأزواقاً واسعة ، فكان ذلك حافزاً لهم على التخلق بالأخلاق الإسلامية الكريمة ، ولحق بهم إخوانهم ، فتكاثروا في تلك البلاد ، وعملت الشريعة عملها في اجتذاب الناس إلى الإسلام ، فأسلمت قطاعات واسعة من قبائل الموسي التي كانت معادية للإسلام لأسباب قبلية ، بل حدث أن شيوخ قبائل البامبارا والحوكون والبورجو التي تعيش داخل نطاق الغابات الكثيفة فيما يعرف الآن بدهومي وساحل العاج والكمرون والجابون استدعت فقهاء الإسلام واتخذت شريعته شريعة لها ، ثم انتهى أمرها بدخول الإسلام . وهكذا نجد هذا الدين الحنيف المبارك يفتح لنفسه طرقاً ومسالك في أوعر البلاد وأصعبها مداخل ، فهذا نطاق الغابات الاستوائية كان نطاقاً عازلاً يتعذر على غير أهل البلاد اقتحامه ، وعندما جاء الاستعمار الأوروبي فتحت جيوش الفرنسيين والانجليز والبلجيكيين والبرتغاليين الطرق إلى دواخل هذه البلاد بالحديد والنار ، ومع ذلك فهي لم تحكمها قط ، وإنما كان همها أن ترهب الأهالي ليسلموا لها الأخشاب والتبر وسن الفيل والأبنوس والكاكاو وما إليها دون ثمن تقريباً ، وكانت غارات رجالها متوالية لصيد السودانيين عبيداً ويبيعهم في الأسواق رقيقاً وخاصة للنخاسين الأوروبيين الذين أنشأوا لأنفسهم مراكز لصيد السودانيين على السواحل ، وكانوا يستعملون أقسى الأساليب في هذا الصيد ، حتى لقد كانوا يحرقون القرية على أهلها في الفجر ليقتنصوا بضع عشرات من الشبان والشابات يصيدوهم كالحیوانات ويحرقونهم بالسلاسل إلى الشواطئ حيث يكدسون في سفن دون أدنى رعاية صحية

واحدة قائمة بين الخرائب ، والسبب في ذلك أن البلد إذ ذاك كان تحت رحمة الطوارق ، فكانوا يجوسون خلالها ويحاصرونها ويقطعون الطرق إليها ويرهبون أهلها ويستولون على ما يقدرون عليه من أهلها من الذرة والعسل والأرز والأقمشة وما إلى ذلك .

وقبل أن يموت حمادو الشيخ سنة ١٨٤٥ م لقي في سنة ١٨٣٨ م حاجاً سودانياً هو الحاج عمر الذي كان له دور كبير في مصائر هذه البلاد قبل وقوعها في أيدي الاستعمار .

— الحاج عمر —

لم يكن الحاج عمر من الفولانيين ولكنه كان من التكاررة ، وقد ولد في سنة ١٧٩٧ م بقرب بلد بودور في إقليم الفوتافورو أي السنغال ، واسمه الكامل عمر سيدو تال ، وقد نشأ مسلماً ورعاً ذا اتجاه ديني قوي ، فمضى من شبابه الباكر باحثاً عن الشيوخ في نواحي الفوتا تورو والفوتاجالون وهي حوض نهر غمبيا ، ولقي عثمان دان فوجيو في سوكتو وحمادو الشيخ في حمد اللاي .

ثم ذهب إلى الحج « وعاد ليصبح خليفة الطريقة التيجانية في ناحيته ، وأخلص في العبادة وفي خدمة أهل الطريقة ، فارتفع شأنه بينهم وأصبح من أصحاب البركات أو ممن يمنحون البركة للناس ويستجاب دعاؤهم ويستطيعون نقل العلم من صدورهم إلى صدور الأتباع كما يقول مريدوه . وتمكن من توثيق روابطه مع زعماء المسلمين في بلد السودان ، فأهداه الكاشي امرأة تقية اتخذها زوجة « وأهداه محمد بلو اثنتين واحدة منهما من قرابته وأهل بيته .

وعلا شأن الرجل فثارت مخاوف زعماء البلاد ، فرأى أن الأصوب ليطمئن قلوبهم أن يتزوي في قرية صغيرة هي ونجيرا في موضع حصين في جبال الفوتاجالون .

بل كان هؤلاء الفقهاء حَمَلَةَ إِسلام عاونوا على إدخال قبائل كبرى في الإسلام ، لأن رؤساء القبائل الوثنيين كانوا يستدعون الفقهاء إلى بلادهم ليحكموا بين الناس بشريعة الإسلام وإن لم يكونوا مسلمين ، فقد بهرت هذه الشريعة العادلة نفوسهم بعدالتها وسموها ورعايتها لمكارم الأخلاق ، وعندما كان الفقهاء يستقرون في البلاد كانوا يلقون من الناس تكرامة وأزواقاً واسعة ، فكان ذلك حافزاً لهم على التخلق بالأخلاق الإسلامية الكريمة ، ولحق بهم إخوانهم ، فتكاثروا في تلك البلاد ، وعملت الشريعة عملها في اجتذاب الناس إلى الإسلام ، فأسلمت قطاعات واسعة من قبائل الموسي التي كانت معادية للإسلام لأسباب قبلية ، بل حدث أن شيوخ قبائل البامبارا والحوكون والبورجو التي تعيش داخل نطاق الغابات الكثيفة فيما يعرف الآن بدهومي وساحل العاج والكمرون والجابون استدعت فقهاء الإسلام واتخذت شريعته شريعة لها ، ثم انتهى أمرها بدخول الإسلام . وهكذا نجد هذا الدين الحنيف المبارك يفتح لنفسه طرقاً ومسالك في أوعر البلاد وأصعبها مداخل ، فهذا نطاق الغابات الاستوائية كان نطاقاً عازلاً يتعذر على غير أهل البلاد اقتحامه ، وعندما جاء الاستعمار الأوروبي فتحت جيوش الفرنسيين والانجليز والبلجيكيين والبرتغاليين الطرق إلى دواخل هذه البلاد بالحديد والنار ، ومع ذلك فهي لم تحكمها قط ، وإنما كان همها أن ترهب الأهالي ليسلموا لها الأخشاب والتبر وسن الفيل والأبنوس والكاكاو وما إليها دون ثمن تقريباً ، وكانت غارات رجالها متوالية لصيد السودانيين عبيداً ويبيعهم في الأسواق رقيقاً وخاصة للنخاسين الأوروبيين الذين أنشأوا لأنفسهم مراكز لصيد السودانيين على السواحل ، وكانوا يستعملون أقسى الأساليب في هذا الصيد ، حتى لقد كانوا يحرقون القرية على أهلها في الفجر ليقتنصوا بضع عشرات من الشبان والشابات يصيدوهم كالحیوانات ويحرقونهم بالسلاسل إلى الشواطئ حيث يكدسون في سفن دون أدنى رعاية صحية

ولكنه كان عنيفاً قاسياً مع خصومه ، وربما كانت هذه الخصلة من مستلزمات
الرياسة والحكم في الظروف التي عاش وعمل فيها .

ولم يكن النظام الذي وضعه لدولته متيناً أو محكماً فكان رعاياه يطيعونه
لهيبته وتقاه دون أن يفكر هو في تأييد هيئة الحكم التي أقامها بنظام محكم ، فلما
خلفه ابنه أحمدو استمر يحكم في العاصمة سيجو وما حولها في حين خرج
البامبارا عن حكمه ، وأسرع أخواه حبيبو ومختار بإعلان انفصالهم عنه وانضموا
إلى الفرنسيين الذين كانوا إذ ذاك يتوغلون في البلاد . وتخرج مركز أحمدو
في سيجو فقارقتها مع نفر قليل من أصحابه واعتزل الدنيا في ناحية من نواحي
بلاد الحوصي حتى مات سنة ١٨٩٨ م .

وقام ابن أخ الحاج عمر يسمى التيجاني بأمر سيجو . ولكن حروباً وقعت
بينه وبين رئيس من رؤساء ماسينا يسمى بالبو وشيخ من شيوخ تنيكت يسمى
البكائي . واستمر النزاع بين الثلاثة حتى وصل الفرنسيون في توغلهم في بلد
السودان من مصب السنغال شرقاً ، ففضوا على الثلاثة ومدوا سلطانهم على
شمال وادي النيجر فيما بين سنة ١٨٨٩ و ١٨٩٢ ميلادية .

— ساموري :

وكان آخر من حاول إنشاء دولة إسلامية في السودان الغربي قبل الاستعمار
الغربي رجلاً من الماندينجي يسمى ساموري الطوري (توري) لافيا . وقد ولد
في وادي الباولي حوالي ١٨٣٥م وكسب أنصاراً كثيرين ، وكان مسلماً صحيح
الإيمان ولكنه لا يصل في هذا إلى شأو الحاج عمر ، وعندما نهض بالأمر وأراد
إنشاء دولة فيما يعرف الآن بجمهورية غينيا كان الفرنسيون قد رسموا خططهم
لبسط سلطانهم على كل هذه البلاد ولهذا كانت حركته محكوماً عليها بالفشل
من أول الأمر . ويذهب الفرنسيون في كتاباتهم إلى القول بأنه كان رئيس عصابة

بل كان هؤلاء الفقهاء حَمَلَةَ إِسلام عاونوا على إدخال قبائل كبرى في الإسلام ، لأن رؤساء القبائل الوثنيين كانوا يستدعون الفقهاء إلى بلادهم ليحكموا بين الناس بشريعة الإسلام وإن لم يكونوا مسلمين ، فقد بهرت هذه الشريعة العادلة نفوسهم بعدالتها وسموها ورعايتها لمكارم الأخلاق ، وعندما كان الفقهاء يستقرون في البلاد كانوا يلقون من الناس تكرامة وأزواقاً واسعة ، فكان ذلك حافزاً لهم على التخلق بالأخلاق الإسلامية الكريمة ، ولحق بهم إخوانهم ، فتكاثروا في تلك البلاد ، وعملت الشريعة عملها في اجتذاب الناس إلى الإسلام ، فأسلمت قطاعات واسعة من قبائل الموسي التي كانت معادية للإسلام لأسباب قبلية ، بل حدث أن شيوخ قبائل البامبارا والحوكون والبورجو التي تعيش داخل نطاق الغابات الكثيفة فيما يعرف الآن بدهومي وساحل العاج والكمرون والجابون استدعت فقهاء الإسلام واتخذت شريعته شريعة لها ، ثم انتهى أمرها بدخول الإسلام . وهكذا نجد هذا الدين الحنيف المبارك يفتح لنفسه طرقاً ومسالك في أوعر البلاد وأصعبها مداخل ، فهذا نطاق الغابات الاستوائية كان نطاقاً عازلاً يتعذر على غير أهل البلاد اقتحامه ، وعندما جاء الاستعمار الأوروبي فتحت جيوش الفرنسيين والانجليز والبلجيكيين والبرتغاليين الطرق إلى دواخل هذه البلاد بالحديد والنار ، ومع ذلك فهي لم تحكمها قط ، وإنما كان همها أن ترهب الأهالي ليسلموا لها الأخشاب والتبر وسن الفيل والأبنوس والكاكاو وما إليها دون ثمن تقريباً ، وكانت غارات رجالها متوالية لصيد السودانيين عبيداً ويبيعهم في الأسواق رقيقاً وخاصة للنخاسين الأوروبيين الذين أنشأوا لأنفسهم مراكز لصيد السودانيين على السواحل ، وكانوا يستعملون أقسى الأساليب في هذا الصيد ، حتى لقد كانوا يحرقون القرية على أهلها في الفجر ليقتنصوا بضع عشرات من الشبان والشابات يصيدوهم كالحیوانات ويحرقونهم بالسلاسل إلى الشواطئ حيث يكدسون في سفن دون أدنى رعاية صحية

جفاء ولا يبقى إلا الحق وحده ، وها نحن نكشف عن أمجاد إخواننا الإفريقيين
وما أنشأوا من دول وحضارات قبل أن تهبط عليهم لعة الاستعمار .

والحق أننا مقصرون أشد التقصير في حق إخواننا أهل السودان الغربي
الذين دخلوا الإسلام طواعية وعن إقتناع ، وتحمسوا له وعملوا على نشره في
بلادهم وأنفقوا الأموال في استقدام أهل العلم والفقهاء إلى بلادهم لتوسيع
آفاق العلم بالإسلام هناك ، حتى أصبحت غالبية أهل السودان الغربي حتى
شمال ما يعرف الآن بالكونغو أو زائير بلاداً إسلامية ، وكان الإسلام ينتشر
بين أهلها على مهل عندما فاجأهم الاستعمار الذي عمل بجد على
وقف التقدم الإسلامي ، لأن الاستعمار الغربي في القرن الماضي قام
على عمادين : الحرب والدين ، وإلى جانب الجندي الأوروبي الذي كانت
مهمته تخطيط كل ما يجد في طريقه من معالم العمران المحلي الإسلامي في إفريقية «
لكي يقول بعد ذلك أنه دخل البلاد فوجد أهلها يعيشون في العصر الحجري
فعمل على إدخال الحضارة في بلادهم. إلى جانب هذا الجندي دخل رجل الدين
ليقضى على الإسلام وينشر المسيحية . وقد صدق الناس هذه الأكاذيب أول
الأمر ، وجاء وقت أصبحت هذه الأكاذيب وكأنها حقائق ، وارتسمت في
أذهانهم صورة مُزربة للإفريقي قبل الاستعمار : صورة رجل عار متوحش
يسير وفي يده حربة ليقتل من يقابله لا سيما الرجال البيض .

بل بلغ من إصرار أهل الغرب على هذه الدعوى أن غسلوا أدمغتنا من هذه
الناحية حتى نجاربهم فيها ونرسم أهل إفريقية في هذه الصورة الظالمة ، بل
أصبحت صورة الرجل الأبيض جالساً في إناء طبخ كبير (قزان) ورجال
سود عرايا يرقصون حوله وبأيديهم الحراب في انتظار أن ينضج الأوروبي
المسكين فيأكلوه . أصبحت هذه الصورة مألوفة لنا ونقلناها في صحفنا .

والآن يتجلى لنا كذب ذلك كله ، فما كان أهل البلاد التي دخلها الإسلام

المدارية إلى بلاد المغرب عبر الصحراء ، ومسافتها هناك شهران ، فإذا عبرت قوافل أودغشت الصحراء الكبرى قرب ساحل المحيط الأطلسي وصلوا إلى واحات سجلماسة عاصمة إقليم تافلالت .

وكانت البلدتان : أودغشت وسجلماسة أكبر المراكز التجارية في إفريقية كلها وقد تحدث عنها الجغرافيون العرب في تفصيل كثير ، وأوفاهم كلاماً عنها أبو عبيد البكري والشريف الإدريسي وابن حوقل على الترتيب . ولهذا يعتبر استيلاء حكام غانة من السوننكة على أودغشت حادثاً فاصلاً في تاريخ انتشار الإسلام في إفريقية المدارية لأنه مكن الغانيين من السيطرة على طريق التجارة ، وطريق التجارة هنا هو طريق اسلام .

وقد اندرست أودغشت اليوم ، والبكري يقول أنها كانت تقوم على مسافة شهرين من سجلماسة ، وعلى خمسة عشر يوماً من مدينة غانة القديمة التي تقوم مكانها اليوم مدينة خربة تسمى كومي صالح ، وتقع على مقربة من بلدة تجدادست Tegdadust شرقي منطقة تاجنت Togent

كذلك استولى الغانيون على أهم المدن غربي نهر النيجر مثل ولانتة وأنبارة وكوغه وسامه . وخلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين بلغت مملكة غانة الثانية التي أنشأها الصوصو أوج اتساعها وقوتها ، وقد وصف امتدادها د. ابراهيم علي طرخان في كتابه القيم عن « إمبراطورية غانة الإسلامية » (القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٠) فقال : « وشملت من الأقاليم الهامة - بجانب ادكار وهود - باسيكورو Bassikuru ووجادو في الشرق وديارا في الغرب ، وكانياجا Kaniaga موطن الصوصو في الجنوب الشرقي ، والواقع أن مدى اتساع إمبراطورية غانة ليس معروفاً بالضبط ، ولكن المحقق أن نفوذها كان واسعاً بحيث أنها كانت صاحبة السيادة والنفوذ في جميع المساحات الواقعة بين النيجر والمحيط الأطلسي ، وصارت أعظم قوة سياسية في السودان الغربي ،

● الاسلام فى السودان الأوسط

— الكانم والبرنو

يقصد بالسودان الأوسط النواحي المدارية الشاسعة الممتدة من الضفاف الشرقية للنيجر الأوسط حتى منطقة بحيرة تشاد ، ثم المناطق التي تلي ذلك شرقاً حتى دارفور وواداي وهي الجزء الغربي من السودان النيلي .

وستكلم هنا عن أربع مناطق قامت فيها دول إسلامية كبيرة هي منطقة الكانم والبرنو ثم منطقة الحوسى المعروفة بالهاوزا ثم منطقة دارفور .

تقع منطقة الكانم والبرنو حول بحيرة تشاد ، وهي بحيرة كانت واسعة المساحة غزيرة المياه في الماضي ، ولكنها تجف شيئاً فشيئاً ، وهي الآن مستنقعات تتخللها الجزر ، وفي وقت ليس بالبعيد ستجف هذه البحيرة تماماً وتصبح أراضيها مناطق زراعية .

وصل الإسلام إلى هذه المنطقة في زمن مبكر مقبلاً من إقليم قران الذي فتحه المسلمون أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه على يد نافع بن عبد القيس الفهري وهو زوج أخت عمرو بن العاص ووالد عقبة المشهور ، وفي خلافة يزيد بن معاوية سنة ٦٧٠/٥٥٠م أعاد عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري فتح هذه البلاد وثبت أقدام الإسلام فيها ثم انحدر جنوباً فأدخل في رحاب الإسلام إقليم كوار وهو إقليم يتكون من سلسلة من الواحات الصغيرة تمتد من الشمال إلى الجنوب حتى تصل إلى إقليم تشاد . وبسبب هذه السلسلة من الواحات

المدارية إلى بلاد المغرب عبر الصحراء ، ومسافتها هناك شهران ، فإذا عبرت قوافل أودغشت الصحراء الكبرى قرب ساحل المحيط الأطلسي وصلوا إلى واحات سجلماسة عاصمة إقليم تافلالت .

وكانت البلدتان : أودغشت وسجلماسة أكبر المراكز التجارية في إفريقية كلها وقد تحدث عنها الجغرافيون العرب في تفصيل كثير ، وأوفاهم كلاماً عنها أبو عبيد البكري والشريف الإدريسي وابن حوقل على الترتيب . ولهذا يعتبر استيلاء حكام غانة من السوننكة على أودغشت حادثاً فاصلاً في تاريخ انتشار الإسلام في إفريقية المدارية لأنه مكن الغانيين من السيطرة على طريق التجارة ، وطريق التجارة هنا هو طريق اسلام .

وقد اندرست أودغشت اليوم ، والبكري يقول أنها كانت تقوم على مسافة شهرين من سجلماسة ، وعلى خمسة عشر يوماً من مدينة غانة القديمة التي تقوم مكانها اليوم مدينة خربة تسمى كومي صالح ، وتقع على مقربة من بلدة تجدادست Tegdadust شرقي منطقة تاجنت Togent

كذلك استولى الغانيون على أهم المدن غربي نهر النيجر مثل ولاتيه وأنبارة وكوغه وسامه . وخلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين بلغت مملكة غانة الثانية التي أنشأها الصوصو أوج اتساعها وقوتها ، وقد وصف امتدادها د. ابراهيم علي طرخان في كتابه القيم عن « إمبراطورية غانة الإسلامية » (القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٠) فقال : « وشملت من الأقاليم الهامة - بجانب اذكار وهود - باسيكورو Bassikuru ووجادو في الشرق وديارا في الغرب ، وكانياجا Kaniaga موطن الصوصو في الجنوب الشرقي ، والواقع أن مدى اتساع إمبراطورية غانة ليس معروفاً بالضبط ، ولكن المحقق أن نفوذها كان واسعاً بحيث أنها كانت صاحبة السيادة والنفوذ في جميع المساحات الواقعة بين النيجر والمحيط الأطلسي ، وصارت أعظم قوة سياسية في السودان الغربي ،

ذات شأن ، فقد وجدنا عند سفح جبل أوري في دارفور آثار مدينة ذات أسوار يقوم فيها قصر كبير يظن أنه إما قصر ملك أو مركز تجاري للقوافل ، ولا نعرف شيئاً كثيراً عن هذه المدينة ولكن المخلفات التي وجدت فيها آتية من كل نواحي دارفور ووادي وتشاد . ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان يعيش في هذه المنطقة شعب عريق يسمى شعب ساو أو صاو .

ويظن أن دماء شعب صاو هذا لا زالت تجري في شعب الكانيم الحالي أو الكاتمبو أو في شعب التوبو الحالي أيضاً الذي يسميه العرب كَنُورِي ويسمي هو نفسه باسم ليدا . ولفظ كَنُورِي معناه رجال الحصى ، وهم رعاة أتوا من ناحية جبال تَيْسْتِي ، وملاصيحهم ليست زنجية رغم سواد بشرتهم ، وهؤلاء التوبو لا ينسبون أنفسهم إلى العرب أو إلى السودان أو إلى البربر أو المصريين أو الطوارق ويغلب أنهم بقية سكان الصحراء الأصلاء الأول .

ولكن أقرب الفروض إلى الصحة أن التوبو فرع من البربر ، وفي أوائل القرن الحادي عشر وصل إلى إقليم الكانم شعب من الرعاة يظن أنهم من بربر الصحراء من أهل كوار انهزموا في الصراع مع أعدائهم فاتجهوا إلى الجنوب واستقروا شمالي بحيرة تشاد واختلطوا بمن وجدوا هناك من السكان ، وكان هؤلاء البدو مسلمين وقد تمكنوا من إقامة دولة لهم سميت أولاً باسم الكانم ثم اسم البورنو ثم أصبحوا شعبين منفصلين ، واحد يعيش شمالي بحيرة تشاد وهو شعب الكانيم والثاني يعيش إلى غربها وهو شعب البُرُنُو ويصفهم رحالة العرب بأنهم أهل سيف أي أهل حرب وقتال ، وقد ظلوا يحكمون منطقة بحيرة تشاد ثمانية قرون بعد ذلك ولم ينته أمرهم إلا على أيدي الفرنسيين سنة ١٨٤٣ م .

ولابد عند الكلام على انتشار الإسلام في إقليم تشاد ووادي دارفور من أن نقول كلمة عن قبيلة بربرية تسمى زغاوة — تكتب أحياناً زواوة

وزوارة ، هاجرت من موطنها الأولى في منطقة القبائل شرقي مدينة الجزائر الحالية ، وانتقلت إلى إقليم فزان ، ومن هناك تفرعت منها فروع اتخذت مواطنها في الصحراء شرق فزان وغربها ، وهاجرت كتلة كبيرة منها إلى إقليم واداي ثم دارفور ، وهناك اتخذت لنفسها مواطن جديدة . والغريب في أمر هذه القبيلة أن رجالها كانوا ذوي نشاط كبير في نشر الإسلام ، فما حلوا في ناحية إلا حوّلوا أهلها للإسلام ، وإلى هذا الحماس يرجع الفضل في انتشار الإسلام في نواح كثيرة من الصحراء وإقليم بحيرة تشاد ثم واداي ودارفور غربي السودان النيلي بصورة عامة .

وشاركت كذلك في نشر الإسلام في هذه النواحي جماعات كثيرة من البربر المهاجرة والسودانيين المتحمسين ومهاجرة العرب مثل عرب الشوا (تحريف للشاوية) (١) وأولاد سليمان الذين غادروا مواطنهم في فزان عندما استولى عليها الأتراك العثمانيون ، ومن فروع الشوا في غربي السودان السلامة وخزام والجعاذنه والمحاميد والدكاكير .

وأول من نسمع عنه من ملوك هؤلاء القوم هو الملك حومي أو هومي الذي حكم بين سنتي ١٠٨٥ و ١٠٩٧ م وكان مسلماً وقد اتخذ لقب السلطان . وقد توفي وهو عائد من الحج إلى مكة . وخلفه ابنه دونامه وكان شديد التعلق بالإسلام حتى لم يمهج ثلاث مرات ومات في حجته الثالثة .

(١) الشاوية نسبة الى الشاة ، فهم رعاة الشياه والاغنام ، ولهذا يعرفون في المصطلح العلمى لاجناس افريقية بالمرعاة الصغار Les peitits pasteurs أما رعاة البقر والجاموس والجمال والخيول فيسمون فى الجملة بالنفارة أو البجارة ، وهم كبار الرعاة Les grands pasteurs ويذهب ابن خلدون الى أن رعاة الابل لا يدخلون فى البقارة أو الشاوية ، وإنما هم البسود الموغلون فى البداوة المتأبدون فى الفقر ٠٠ انظر المقدمة (طبعة دار الشعب بالقاهرة ص ١١٠ وما يليها) وآراء ابن خلدون هنا محل نقد كثير .

وبلغت الدولة أوجها في أيام سلطان يسمى دونامة أيضاً ويلقب باسم ديبالامي وقد حكم من سنة ١٢١٠ إلى ١٢٢٤ م على قول ومن ١٢٢١ إلى ١٢٥٩ م على قول آخر . وكان أبوه السلطان سيلما أول سلطان للكانم من أصل سوداني صريح . وقد أنشأ السلطان دونامة ديبالامي قوة كبيرة من الفرسان عدتها ٣٠٠٠٠ فارس مكنت له من توسيع رقعة مملكته حتى وصلت إلى حدود فزان شمالاً ومن وادي شرقاً إلى حوض النيجر غرباً ، وبسط سلطانه على شعب صُنْغَيٍّ ولم يكن هذا الشعب قد نهض بعد نهضته التي تحدثنا عنها . وفي أيامه نشطت التجارة مع مصر والمغرب نشاطاً عظيماً ، واتخذ سلطان الكانم لنفسه سفيراً مقيماً في القاهرة مهمته الإشراف على تنظيم قوافل التجارة والحج ولمعاونة تجار الكانم ، وفي سنة ١٢٤٢ م أنشئ في الأزهر رواق خاص لطلاب الكانم ، وتولى السلطان النفقة على طلاب الرواق من ماله ، وكان لقبه الرسمي في مصر « ملك الكانم وسلطان البرنو » ، وبهذا اللقب ذكره القلقشندي في صبح الأعشى . وأنشأ دونامة ديبالامي علاقات ماثلة مع السلطان الجنصي في تونس ، وقد حدثنا عنه القلقشندي في صبح الأعشى حديثاً طويلاً .

وفي عهد السلطان إدريس حفيد دونامة ديبالامي (١٣٥٣ - ١٣٧٦ م) زار ابن بطوطة بلد الكانم ووصفه بالرخاء وامتداد الأمن ، ولكن الرحالة الألماني بارت Barth الذي زار السودان في أوائل القرن التاسع عشر يحكي أن أمر سلطنة الكانم ضعف بعد أيام إدريس وثار عليها بعض شعوب السودان التي كانت خاضعة له مثل الصاو وهم سكان البلاد الأصليين والتوبو سكان جبال نبيتي وقبائل الموالاة الضاربة حول بحيرة قُرى الصغيرة الواقعة جنوبي بحيرة تشاد . وقد عجز سلطان الكانم عن التغلب على البوالاة، وكذلك فشل ابنه عمر الذي يقال إنه حكم فيما بين سنتي ١٣٩٤ و ١٣٩٨ م . واضطر سلطان الكانم نتيجة لذلك إلى الانتقال من بلد الكانم إلى ناحية البرنو الواقعة

وزوارة ، هاجرت من موطنها الأولى في منطقة القبائل شرقي مدينة الجزائر الحالية ، وانتقلت إلى إقليم فزان ، ومن هناك تفرعت منها فروع اتخذت مواطنها في الصحراء شرق فزان وغربها ، وهاجرت كتلة كبيرة منها إلى إقليم واداي ثم دارفور ، وهناك اتخذت لنفسها مواطن جديدة . والغريب في أمر هذه القبيلة أن رجالها كانوا ذوي نشاط كبير في نشر الإسلام ، فما حلوا في ناحية إلا حوّلوا أهلها للإسلام ، وإلى هذا الحماس يرجع الفضل في انتشار الإسلام في نواح كثيرة من الصحراء وإقليم بحيرة تشاد ثم واداي ودارفور غربي السودان النيلي بصورة عامة .

وشاركت كذلك في نشر الإسلام في هذه النواحي جماعات كثيرة من البربر المهاجرة والسودانيين المتحمسين ومهاجرة العرب مثل عرب الشوا (تحريف للشاوية) (١) وأولاد سليمان الذين غادروا مواطنهم في فزان عندما استولى عليها الأتراك العثمانيون ، ومن فروع الشوا في غربي السودان السلامة وخزام والجعاذنه والمحاميد والدكاكير .

وأول من نسمع عنه من ملوك هؤلاء القوم هو الملك حومي أو هومي الذي حكم بين سنتي ١٠٨٥ و ١٠٩٧ م وكان مسلماً وقد اتخذ لقب السلطان . وقد توفي وهو عائد من الحج إلى مكة . وخلفه ابنه دونامه وكان شديد التعلق بالإسلام حتى لم يمهج ثلاث مرات ومات في حجته الثالثة .

(١) الشاوية نسبة الى الشاة ، فهم رعاة الشياه والاغنام ، ولهذا يعرفون في المصطلح العلمى لاجناس افريقية بالمرعاة الصغار Les peitits pasteurs أما رعاة البقر والجاموس والجمال والخيول فيسمون فى الجملة بالنفارة أو البجارة ، وهم كبار الرعاة Les grands pasteurs ويذهب ابن خلدون الى أن رعاة الابل لا يدخلون فى البقارة أو الشاوية ، وإنما هم البسود الموغلون فى البداوة المتأبدون فى الفقر ٠٠ انظر المقدمة (طبعة دار الشعب بالقاهرة ص ١١٠ وما يليها) وآراء ابن خلدون هنا محل نقد كثير .

كله كما كان أبوه ، بينما ظل السلاطين مجرد رمز بلا سلطان أو حيلة .
ثم إن عمر آهم السلطان القائم إبراهيم أو إبرام بالتأمر عليه فقتله ، وتولى
السلطان سنة ١٨٤٦ ووضع بذلك حداً لتاريخ أسرة سيّف أو السيّفية
التي ظلت تحكم تلك البلاد تسعة قرون .

وفي أيام السلطان عمر هذا وفد على بلاد البرنو نفر من رحالة الألمان
الذين كانوا يمسون خلال بلاد إفريقية المدارية طلائع الاستعمار والتدخل
الأجنبي من أمثال بارت Barth وفوجل Vogel ورولفس Rolfs
وناختيجال Nachtigal وفي التقسيم الاستعماري العام لإفريقية كانت
هذه البلاد من نصيب الفرنسيين .

● بلاد الحوسى

الحوسى هو الصيغة العربية لاسم يطلق على مجموعة من البلاد تقع فيما بين جبال العير Air التي تقوم إلى الغرب من إقليم كوار وعاصمته بلما وتمتد حتى الضفة الشرقية لنهر النيجر . وأهل هذه البلاد يسمون أنفسهم الهاوزا ومعناه في لغتهم الضفة الشرقية من نهر النيجر ، وتوسع منطقة الحوسى حتى تصل إلى الحدود الغربية لبلاد البرنو .

وجبال العير تقع على الحدود الجنوبية للصحراء شمالي نهر النيجر ، وبينها وبين النهر منطقة صحراوية واسعة يسودها طوارق الصحراء ، والسفوح الشمالية للجبال قاحلة ، أما الجنوبية فتشققها وديان تنحدر منها نهيرات تتلقى مياه الأمطار ، وتنحدر تلك النهيرات جنوباً ، فإما تبددت في الرمال أو وصلت إلى نهر النيجر وصارت فروعاً منه ، ولهذا فإن الجزء الجنوبي من هذه الجبال خصب وعامر بالخضرة والناس والماشية والحياة .

والتاريخ الأسطوري الذي يقصه الحوسى عن أنفسهم يقول أن بعض قبائل الصحراء غزت جبال العير في القرن الحادي عشر الميلادي ، ففر أمامهم من استطاع الفرار من أهل الجبال والوديان واستقروا في ناحية جويير من نواحي جنوبي الصحراء الكبرى شمالي نهر النيجر وشرقه . وربما كانت تلك الغزوة من نتائج دخول العرب الهلالية المغرب ابتداء من سنة ١٠٤٦ ميلادية ، فإن بني هلال بن عامر بن صعصعه ومن صاحبهم من قبائل سليم بن منصور اجتاحتوا نواحي المغرب قادمين من مصر إلى جنوبي برقة وطرابلس واندفعوا غرباً ، فتهاربت أمامهم قبائل البربر الصحراوية إلى

الغرب والجنوب ، وتوالى هذا التدافع حتى وصلت الجماعات السودانية المهاجرة إلى الغابات الاستوائية ، ولا صحة للقول بأن القبائل البربرية التي اندفعت إلى الجنوب ودفعت أمامها غيرها كانت قبائل الطوارق ، لأن الطوارق في أصلهم شعب إفريقي قديم كان يعمر الصحراء الكبرى ، وقد ظلوا في مواطنهم حتى دخلت الصحراء الكبرى خلال القرن الثاني عشر الميلادي بقايا قبائل صنهاجة الصحراء التي أقامت دولة المرابطين ثم انهزمت أمام الموحدين ، ففر من استطاع الفرار من بقاياهم عن أبي الخضوع للموحدين إلى الصحراء ، وخاصة عندما احتدم الصراع بين الموحدين وبقايا المرابطين يقودهم بنو غانية السوفيون . وكانت إحدى قبائل صنهاجة الصحراء هذه تسمى تارجا أو تاركا هاجر بعضها إلى نواحي تلمسان في العصر المرابطي ، وبقي في الصحراء معظمها في مواطنهم الأولى في الصحراء الواسعة بين مجرى وادي درعة جنوبي المغرب الأقصى ووادي السنغال ، وامتدت منهم فروع ناحية الشرق وتفرقت في نواحي الصحراء الكبرى فأصبح الكارجيون أو التاركيون متشربين في الصحراء انتشاراً واسعاً .

— الطوارق :

فلما لحق بهم الهاربون أمام الموحدين من بني عمومته من بقايا قبائل صنهاجة الصحراء تزايدت أعدادهم وازدادت قوتهم ، وسادوا معظم الأقاليم الصحراوية القاحلة في قلب الصحراء الكبرى . وأصبح يطلق على هؤلاء الصحراويين جميعاً اسم تارجا أو تاركا وقد عرف هذا الاسم على طارفاً والنسبة إليه طارقي والجمع طوارق ، وهذا هو أصل هذا الشعب العريق القوي الذي يعمر الصحراء الكبرى ويعرف فجاجها شبراً شبراً ، وقد اشتهروا باللاثام الذي يغطون به وجوههم ، وبملابسهم الزرقاء ، وهي من نسج أيديهم ويصبغونها بالنيلج وهو كثير في واحات صحراء مصر الغربية .

● بلاد الحوسى

الحوسى هو الصيغة العربية لاسم يطلق على مجموعة من البلاد تقع فيما بين جبال العير Air التي تقوم إلى الغرب من إقليم كوار وعاصمته بلما وتمتد حتى الضفة الشرقية لنهر النيجر . وأهل هذه البلاد يسمون أنفسهم الهاوزا ومعناه في لغتهم الضفة الشرقية من نهر النيجر ، وتوسع منطقة الحوسى حتى تصل إلى الحدود الغربية لبلاد البرنو .

وجبال العير تقع على الحدود الجنوبية للصحراء شمالي نهر النيجر ، وبينها وبين النهر منطقة صحراوية واسعة يسودها طوارق الصحراء ، والسفوح الشمالية للجبال قاحلة ، أما الجنوبية فتشققها وديان تنحدر منها نهيرات تتلقى مياه الأمطار ، وتنحدر تلك النهيرات جنوباً ، فإما تبددت في الرمال أو وصلت إلى نهر النيجر وصارت فروعاً منه ، ولهذا فإن الجزء الجنوبي من هذه الجبال خصب وعامر بالحضرة والناس والماشية والحياة .

والتاريخ الأسطوري الذي يقصه الحوسى عن أنفسهم يقول أن بعض قبائل الصحراء غزت جبال العير في القرن الحادي عشر الميلادي ، ففر أمامهم من استطاع الفرار من أهل الجبال والوديان واستقروا في ناحية جويير من نواحي جنوبي الصحراء الكبرى شمالي نهر النيجر وشرقه . وربما كانت تلك الغزوة من نتائج دخول العرب الهلالية المغرب ابتداء من سنة ١٠٤٦ ميلادية ، فإن بني هلال بن عامر بن صعصعه ومن صاحبهم من قبائل سليم بن منصور اجتاحتوا نواحي المغرب قادمين من مصر إلى جنوبي برقة وطرابلس واندفعوا غرباً ، فتهاربت أمامهم قبائل البربر الصحراوية إلى

هذا التاريخ أن أول ملك لكانو كان الملك باجودا ، وهو حفيد بطل أسطوي يسمى أبو يزيد يقال إنه قتل مسخاً هائلاً كان يعيش في البلاد فساداً على أيام ملكة تسمى دُودِرَه .

وقد دخل الإسلام بلاد الحوسى في القرن الرابع عشر الميلادي أثناء حكم ملكهم ياجي (١٣٤٩ - ١٣٨٥ م) ، وقد أدخل الإسلام إليهم علماء ودعاة قدموا من بلاد مالي ومن بلاد البرنو ومن السودان النيلي . وقد اختلط الإسلام هناك بعناصر وثنية كما كان يحدث كثيراً في البلاد الإفريقية نظراً لقلّة المعلمين أو لقلّة علمهم .

وكانت كانو بلدًا زاهراً غنياً بالتجارة والتجار . وكان تجار الرقيق يأخذون أحياناً رقيقاً من الحوسى عرفوا بالذكاء والاجتهاد والقوة على العمل .

وفيما بين ستي ١٥١٣-١٥١٦م خضعت كانو لأسكيا محمد سلطان صُنغِي . وقد توالى الغزوات على بلاد الحوسى ، فسادها الفولا لفترة من الزمن القرن السابع عشر وعلى أيديهم انتهى حكم أسرة ياجودا سنة ١٨٠٧ بعد أن حكمت كانو ثمانية قرون .

وقد اشتهرت من بين بلاد الحوسى كاتسينا ، وينسب إنشاؤها إلى ولد من أولاد أبي يزيد يسمى كومايو ، وكانت تقوم بالحكم فيها قبل وفوده أسرهُ أخرى تتزوج من بناتها واستقل بالملك في كاتسينا حوالي ١١٠٠م . ولكن الأمر لم يدم في بيته طويلاً ، لأن أسرة أخرى خلفته في القرن الثالث عشر وظلت تحكم هناك إلى القرن الثامن عشر .

وكانت كاتسينا مركزاً تجارياً هاماً إذ أنها كانت تقوم على طريق القوافل بين مصر ومالي ، وكان هذا الطريق يخرج من البهنسا في شمال الصعيد ويتجه

● بلاد الحوسى

الحوسى هو الصيغة العربية لاسم يطلق على مجموعة من البلاد تقع فيما بين جبال العير Air التي تقوم إلى الغرب من إقليم كوار وعاصمته بلما وتمتد حتى الضفة الشرقية لنهر النيجر . وأهل هذه البلاد يسمون أنفسهم الهاوزا ومعناه في لغتهم الضفة الشرقية من نهر النيجر ، وتوسع منطقة الحوسى حتى تصل إلى الحدود الغربية لبلاد البرنو .

وجبال العير تقع على الحدود الجنوبية للصحراء شمالي نهر النيجر ، وبينها وبين النهر منطقة صحراوية واسعة يسودها طوارق الصحراء ، والسفوح الشمالية للجبال قاحلة ، أما الجنوبية فتشققها وديان تنحدر منها نهيرات تتلقى مياه الأمطار ، وتنحدر تلك النهيرات جنوباً ، فإما تبددت في الرمال أو وصلت إلى نهر النيجر وصارت فروعاً منه ، ولهذا فإن الجزء الجنوبي من هذه الجبال خصب وعامر بالحضرة والناس والماشية والحياة .

والتاريخ الأسطوري الذي يقصه الحوسى عن أنفسهم يقول أن بعض قبائل الصحراء غزت جبال العير في القرن الحادي عشر الميلادي ، ففر أمامهم من استطاع الفرار من أهل الجبال والوديان واستقروا في ناحية جويير من نواحي جنوبي الصحراء الكبرى شمالي نهر النيجر وشرقه . وربما كانت تلك الغزوة من نتائج دخول العرب الهلالية المغرب ابتداء من سنة ١٠٤٦ ميلادية ، فإن بني هلال بن عامر بن صعصعه ومن صاحبهم من قبائل سليم بن منصور اجتاحتوا نواحي المغرب قادمين من مصر إلى جنوبي برقة وطرابلس واندفعوا غرباً ، فتهاربت أمامهم قبائل البربر الصحراوية إلى

شاسعة من نواحي إفريقيا المدارية ، فأما الطوارق فقد حموا الصحراء
وأما الحموسى فقد حافظوا على إسلام مناطق النيجر العليا ، وإلى غرب بلاد
الحموسى امتدت بلاد الفولا أو الفولانيين وهم مسلمون ، وإلى شرقهم
الكنُتُوري أصحاب بلاد الكانيم والبرنو فهذه أربعة شعوب مباركة دخلت
الإسلام سلباً دون حرب ، وأقامت دولا وحضارات وحافظت على الدين
في بلادها ونشرته في فجاج إفريقيا المدارية والاستوائية .

● بلاد الحوسى

الحوسى هو الصيغة العربية لاسم يطلق على مجموعة من البلاد تقع فيما بين جبال العير Air التي تقوم إلى الغرب من إقليم كوار وعاصمته بلما وتمتد حتى الضفة الشرقية لنهر النيجر . وأهل هذه البلاد يسمون أنفسهم الهاوزا ومعناه في لغتهم الضفة الشرقية من نهر النيجر ، وتوسع منطقة الحوسى حتى تصل إلى الحدود الغربية لبلاد البرنو .

وجبال العير تقع على الحدود الجنوبية للصحراء شمالي نهر النيجر ، وبينها وبين النهر منطقة صحراوية واسعة يسودها طوارق الصحراء ، والسفوح الشمالية للجبال قاحلة ، أما الجنوبية فتشققها وديان تنحدر منها نهيرات تتلقى مياه الأمطار ، وتنحدر تلك النهيرات جنوباً ، فإما تبددت في الرمال أو وصلت إلى نهر النيجر وصارت فروعاً منه ، ولهذا فإن الجزء الجنوبي من هذه الجبال خصب وعامر بالحضرة والناس والماشية والحياة .

والتاريخ الأسطوري الذي يقصه الحوسى عن أنفسهم يقول أن بعض قبائل الصحراء غزت جبال العير في القرن الحادي عشر الميلادي ، ففر أمامهم من استطاع الفرار من أهل الجبال والوديان واستقروا في ناحية جويير من نواحي جنوبي الصحراء الكبرى شمالي نهر النيجر وشرقه . وربما كانت تلك الغزوة من نتائج دخول العرب الهلالية المغرب ابتداء من سنة ١٠٤٦ ميلادية ، فإن بني هلال بن عامر بن صعصعه ومن صاحبهم من قبائل سليم بن منصور اجتاحتوا نواحي المغرب قادمين من مصر إلى جنوبي برقة وطرابلس واندفعوا غرباً ، فتهاربت أمامهم قبائل البربر الصحراوية إلى

● بلاد الحوسى

الحوسى هو الصيغة العربية لاسم يطلق على مجموعة من البلاد تقع فيما بين جبال العير Air التي تقوم إلى الغرب من إقليم كوار وعاصمته بلما وتمتد حتى الضفة الشرقية لنهر النيجر . وأهل هذه البلاد يسمون أنفسهم الهاوزا ومعناه في لغتهم الضفة الشرقية من نهر النيجر ، وتوسع منطقة الحوسى حتى تصل إلى الحدود الغربية لبلاد البرنو .

وجبال العير تقع على الحدود الجنوبية للصحراء شمالي نهر النيجر ، وبينها وبين النهر منطقة صحراوية واسعة يسودها طوارق الصحراء ، والسفوح الشمالية للجبال قاحلة ، أما الجنوبية فتشققها وديان تنحدر منها نهيرات تتلقى مياه الأمطار ، وتنحدر تلك النهيرات جنوباً ، فإما تبددت في الرمال أو وصلت إلى نهر النيجر وصارت فروعاً منه ، ولهذا فإن الجزء الجنوبي من هذه الجبال خصب وعامر بالحضرة والناس والماشية والحياة .

والتاريخ الأسطوري الذي يقصه الحوسى عن أنفسهم يقول أن بعض قبائل الصحراء غزت جبال العير في القرن الحادي عشر الميلادي ، ففر أمامهم من استطاع الفرار من أهل الجبال والوديان واستقروا في ناحية جويير من نواحي جنوبي الصحراء الكبرى شمالي نهر النيجر وشرقه . وربما كانت تلك الغزوة من نتائج دخول العرب الهلالية المغرب ابتداء من سنة ١٠٤٦ ميلادية ، فإن بني هلال بن عامر بن صعصعه ومن صاحبهم من قبائل سليم بن منصور اجتاحتوا نواحي المغرب قادمين من مصر إلى جنوبي برقة وطرابلس واندفعوا غرباً ، فتهاربت أمامهم قبائل البربر الصحراوية إلى

وقضاهم على النصرانية في النوبة كان الإسلام قد عم أهلها حتى لم يكن القول إن مصر امتدت جنوباً حتى المقس الأعلى . ويفهم من نص الصلح المعروف بالقط الذي عقده عبد الله بن سعد مع ملك النوبة أنه شمل مملكة مَقْرَة أيضاً ، فهو يقول « لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته من حد أرض أسوان إلى حد أرض عِلَوَة » والمراد فيما نعتقد أن هذا العهد شمل مملكة مقرة أيضاً على اعتبار أنهما مملكتان مسيحيتان متجاورتان تستطيعان معاً التعهد بمراعاة الصداقة مع المسلمين وعلوة كانت تقع إلى جنوبي مقرة . ولهذا كان الكثيرون من كتاب المسلمين يطلقون لفظ النوبة على نوباتيا ومَقْرَة معاً .

وعلاقات العرب وبلاد النوبة وما يليها جنوباً قديمة جداً ترجع إلى ما قبل الإسلام بكثير . فقد كان التجار من اليمن يعبرون البحر الأحمر باستمرار وتستقر جماعات منهم في مواقع شتى من حوض النيل . وتشير بعض الروايات التاريخية إلى حملات عسكرية قام بها الحميريون على وادي النيل الأوسط . وقد خلفت هذه الحملات جماعات من اليمنيين استقرت في أرض البُجَة أو البُجَاه وبلاد النوبة ، وتذهب بعض الروايات إلى أن الغارات وصلت بلاد المغرب بقيادة شخص أسطوري يسمى أفريقسُ بن أبرهة ذي النار ملك حمير ، ويزعمون أن إفريقية (وهي تونس) سميت بهذا الاسم نسبة إلى أفريقس هذا . وهذه مجرد أسطورة طبعاً لأن اسم إفريقية Africa مشتق من اسم قبيل من الناس كانوا يسكنون غرب ما يعرف اليوم بتونس إلى الغرب من قرطاجنة ويسمون باسم أفري Afti ، فسميت البلاد خارج قرطاجنة باسم Africa نسبة إليهم . ثم انسحب الاسم على القارة كلها .

وكذلك هاجرت جماعة من الحضارمة في القرن السادس الميلادي

● بلاد الحوسى

الحوسى هو الصيغة العربية لاسم يطلق على مجموعة من البلاد تقع فيما بين جبال العير Air التي تقوم إلى الغرب من إقليم كوار وعاصمته بلما وتمتد حتى الضفة الشرقية لنهر النيجر . وأهل هذه البلاد يسمون أنفسهم الهاوزا ومعناه في لغتهم الضفة الشرقية من نهر النيجر ، وتوسع منطقة الحوسى حتى تصل إلى الحدود الغربية لبلاد البرنو .

وجبال العير تقع على الحدود الجنوبية للصحراء شمالي نهر النيجر ، وبينها وبين النهر منطقة صحراوية واسعة يسودها طوارق الصحراء ، والسفوح الشمالية للجبال قاحلة ، أما الجنوبية فتشققها وديان تنحدر منها نهيرات تتلقى مياه الأمطار ، وتنحدر تلك النهيرات جنوباً ، فإما تبددت في الرمال أو وصلت إلى نهر النيجر وصارت فروعاً منه ، ولهذا فإن الجزء الجنوبي من هذه الجبال خصب وعامر بالخضرة والناس والماشية والحياة .

والتاريخ الأسطوري الذي يقصه الحوسى عن أنفسهم يقول أن بعض قبائل الصحراء غزت جبال العير في القرن الحادي عشر الميلادي ، ففر أمامهم من استطاع الفرار من أهل الجبال والوديان واستقروا في ناحية جويير من نواحي جنوبي الصحراء الكبرى شمالي نهر النيجر وشرقه . وربما كانت تلك الغزوة من نتائج دخول العرب الهلالية المغرب ابتداء من سنة ١٠٤٦ ميلادية ، فإن بني هلال بن عامر بن صعصعه ومن صاحبهم من قبائل سليم بن منصور اجتاحتوا نواحي المغرب قادمين من مصر إلى جنوبي برقة وطرابلس واندفعوا غرباً ، فتهاربت أمامهم قبائل البربر الصحراوية إلى

وبين الأسود عهد ولا ميثاق ، إنما هي هدنة بيننا وبينهم) (١) .

— بلاد البجة : جزء من دولة الاسلام :

البجة شعب ينسب إلى أصل حامي كانوا — ولا يزالون — يسكنون النواحي الجبلية من حد أسوان إلى ما يقابل جزر دهلك عند مُصَوَّع على ساحل البحر الأحمر . وهم كالتوبيين والأحباش جنس أسمر اللون يمتاز بالذكاء والنشاط والقدرة على التجارة ، وهم مشهورون بالشجاعة في الحرب ، وهم ليسوا ثمرة اختلاط بين البيض والسود كما يظن ، بل هم جنس قائم بنفسه لا نعرف على وجه التحقيق أصله . وهم من الناحية الحضارية استمرار لمصر في الجنوب ، ومركزهم الحقيقي هو ساحل البحر الأحمر قبالة النوبة ، فقبائلهم تروح وتغدو دائماً أبداً إلى مواطنها في مصر ، وهم كانوا حَمَكَة التجارة المصرية إلى الجنوب وقد زادت هذه الصلة بينهم وبين مصر بعد الفتح الإسلامي ، فكثر دخول المسلمين من مصر عبر البحر الأحمر إلى بلادهم .

وفي أول الأمر لم يجد ولاية مصر من العرب ما يدعو إلى غزو بلاد البجة وإخضاع بلادهم الواسعة إلى الحكم الإسلامي إخضاعاً مباشراً ، ولكن توالى عدوانهم على ناحية أسوان ونهبهم أراضيها اضطر الخليفة المأمون إلى إرسال حملة لحربهم يقودها والي مصر عبد الله بن الجهم في سنة ٢٣١ / ٨٤١ ، فقام بغزو بلادهم واضطروهم إلى توقيع معاهدة خضوع للخلافة ، وكان رئيسهم إذ ذاك يسمى كنون بن عبد العزيز . وبمقتضى هذه المعاهدة أصبحت بلادهم ملكاً للخليفة وأهلها بما فيهم رئيسهم رعية لأمير المؤمنين ، وفُرض عليهم

(١) البلاذري : فتوح البلدان : طبعة أوربا بتحقيق دى خوية - لايدن سنة ١٨٦٦م، وقد اعتمد البلاذري في هذا القول على يزيد بن أبي حبيب وهو من سبى النوبة وكان يعيش في مصر .

● بلاد الحوسى

الحوسى هو الصيغة العربية لاسم يطلق على مجموعة من البلاد تقع فيما بين جبال العير Air التي تقوم إلى الغرب من إقليم كوار وعاصمته بلما وتمتد حتى الضفة الشرقية لنهر النيجر . وأهل هذه البلاد يسمون أنفسهم الهاوزا ومعناه في لغتهم الضفة الشرقية من نهر النيجر ، وتوسع منطقة الحوسى حتى تصل إلى الحدود الغربية لبلاد البرنو .

وجبال العير تقع على الحدود الجنوبية للصحراء شمالي نهر النيجر ، وبينها وبين النهر منطقة صحراوية واسعة يسودها طوارق الصحراء ، والسفوح الشمالية للجبال قاحلة ، أما الجنوبية فتشققها وديان تنحدر منها نهيرات تتلقى مياه الأمطار ، وتنحدر تلك النهيرات جنوباً ، فإما تبددت في الرمال أو وصلت إلى نهر النيجر وصارت فروعاً منه ، ولهذا فإن الجزء الجنوبي من هذه الجبال خصب وعامر بالخضرة والناس والماشية والحياة .

والتاريخ الأسطوري الذي يقصه الحوسى عن أنفسهم يقول أن بعض قبائل الصحراء غزت جبال العير في القرن الحادي عشر الميلادي ، ففر أمامهم من استطاع الفرار من أهل الجبال والوديان واستقروا في ناحية جويير من نواحي جنوبي الصحراء الكبرى شمالي نهر النيجر وشرقه . وربما كانت تلك الغزوة من نتائج دخول العرب الهلالية المغرب ابتداء من سنة ١٠٤٦ ميلادية ، فإن بني هلال بن عامر بن صعصعة ومن صاحبهم من قبائل سليم بن منصور اجتاحتوا نواحي المغرب قادمين من مصر إلى جنوبي برقة وطرابلس واندفعوا غرباً ، فتهاربت أمامهم قبائل البربر الصحراوية إلى

فزاد إقبال العرب على هذا الوادي الذي يقع في الطريق بين أسوان وميناء عيذاب خاصة وقد تبين وجود مناجم لحجر الزمرد بها ، فأصبحت الناحية تعرف بأرض المعادن وكثر توافد الناس عليها واشتهر أمرها .

وعندما أسقط العرب من الديوان أيام المتوكل ٨٤٧ / ٨٦١م ثارت نفوس زعماء العرب ، خاصة وقد بدأ الخلفاء يولون على الولايات رجالاً من الأتراك ، وعمد ابن المدبّر والي مصر إلى فرض إتاوات كبيرة على العرب ، فثاروا مرة بعد أخرى وانهزموا أمام الجند التركي « وزج بالكثيرين منهم في السجن . وأمام هذه الظروف أخذت جماعات منهم تهاجر إلى الجنوب ، وعندما أعد أحمد بن طولون حملة لغزو البلاد النوبية — طامعاً في أرض المعادن — انضم إليها عرب كثيرون معظمهم من ربيعة وجهينة « وقد قاد هذه الحملة مغامر عربي كبير واسع الطموح هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمري .

تقدم العمري بمن معه حتى وصل لإقليم شنقير (أبو حمد) ماراً بمنطقة الذهب في العلاقي ، وقرب شنقير اكتشف مواقع جديدة للتبر وتغلب على قوات الملك قيرقي وأنشأ لنفسه ورجاله مركزاً دائماً على النهر « وهناك قام قتال بينه وبين جماعات من العرب من سعد العشيرة وقيس علان كانت تسكن قريباً من هناك ، فانهزم إلى الشمال ، ولكنه تمكن من مد نفوذه شرقاً حتى عيذاب وشمالاً حتى أسوان ، وعمرت هذه الناحية بـرجالها عماراً واسعاً . وخاف أحمد بن طولون من أن يمد العمري سلطانه إلى مصر ، فأرسل جيشاً لمحاربته فانتصر على الجيش وأوغل شمالاً حتى ادفو سنة ٨٦٩م . ثم عاد إلى منطقة المعادن . ثم وقع خلاف شديد بينه وبين جماعات من عرب ربيعة مضّر كانت ضاربة هناك ، وفي أثناء المعارك قتل العمري على يد رجل من مضر ، وانتهت بذلك مغامرة هذا الرجل الذي ولد في المدينة المنورة ثم هاجر إلى مصر واشتغل بالتعليم ثم تحول إلى محارب مغامر .

● بلاد الحوسى

الحوسى هو الصيغة العربية لاسم يطلق على مجموعة من البلاد تقع فيما بين جبال العير Air التي تقوم إلى الغرب من إقليم كوار وعاصمته بلما وتمتد حتى الضفة الشرقية لنهر النيجر . وأهل هذه البلاد يسمون أنفسهم الهاوزا ومعناه في لغتهم الضفة الشرقية من نهر النيجر ، وتوسع منطقة الحوسى حتى تصل إلى الحدود الغربية لبلاد البرنو .

وجبال العير تقع على الحدود الجنوبية للصحراء شمالي نهر النيجر ، وبينها وبين النهر منطقة صحراوية واسعة يسودها طوارق الصحراء ، والسفوح الشمالية للجبال قاحلة ، أما الجنوبية فتشققها وديان تنحدر منها نهيرات تتلقى مياه الأمطار ، وتنحدر تلك النهيرات جنوباً ، فإما تبددت في الرمال أو وصلت إلى نهر النيجر وصارت فروعاً منه ، ولهذا فإن الجزء الجنوبي من هذه الجبال خصب وعامر بالحضرة والناس والماشية والحياة .

والتاريخ الأسطوري الذي يقصه الحوسى عن أنفسهم يقول أن بعض قبائل الصحراء غزت جبال العير في القرن الحادي عشر الميلادي ، ففر أمامهم من استطاع الفرار من أهل الجبال والوديان واستقروا في ناحية جويير من نواحي جنوبي الصحراء الكبرى شمالي نهر النيجر وشرقه . وربما كانت تلك الغزوة من نتائج دخول العرب الهلالية المغرب ابتداء من سنة ١٠٤٦ ميلادية ، فإن بني هلال بن عامر بن صعصعة ومن صاحبهم من قبائل سليم بن منصور اجتاحتوا نواحي المغرب قادمين من مصر إلى جنوبي برقة وطرابلس واندفعوا غرباً ، فتهاربت أمامهم قبائل البربر الصحراوية إلى

باسم نوباديا أو نباته ، ثم وقعت فتنة بين عرب ربيعة أنفسهم قتل فيها رئيسهم أبو مروان بشر بن اسحق فخلفه ابن عمه أبو عبد الله محمد بن علي المعروف باسم أبي يزيد اسحق ، فسكنت الفتنة ، ومد أبو يزيد بن اسحق سلطانه حتى خضعت له كل النوبة القديمة ، وفي حكمه اختلط النوبيون بالعرب وأصبحت النوبة عربية نوبية . وتحالف آل أبي يزيد اسحاق سيد ربيعة النوبة مع الفاطميين وعاونهم في القبض على أبي ركة وهو أمير أموي أندلسي هاجر إلى برقة واجتذب حوله أنصاراً كثيرين فأراد الانفراد ببرقة فبادر الفاطميون لحربه واستعانوا في ذلك بأحد أحفاد أبي يزيد ويسمى أبا المكارم في القبض على أبي ركة وقتله سنة ١٠٠٩م فلقبته الخليفة الحاكم بكنز الدولة وأصبح هو وأفراد بيته يسمون ببي الكنز أو الكنوز وهم من ربيعة ولا زالوا إلى الآن في منطقة أسوان ومنازلهم تمتد إلى كيرشكو .

فلما قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية وأقام الدولة الأيوبية سنة ١١٧١م سارت علاقاته أول الأمر سيراً طبيعياً مع الكنوز ، ثم طمع في أرضهم ووقعت حروب بين الكنوز وصلاح الدين وانتهى الصراع بتزويج الكنوز نهائياً عن أسوان واستقرارهم في بلاد النوبة واختلاطهم بأهلها اختلاطاً تاماً ، ويعتبر هذا إيذاناً بتحول النوبة كلها إلى أرض عربية بالفعل . وكان ذلك أيام السلطان العادل أخي صلاح الدين الأيوبي ووارث سلطته .

— المسلمون يقضون على مملكة مقرة المسيحية :

تقع فرضة عيذاب تجاه مدينة قسطل الواقعة على النيل في أرض مريس إلى شمال النوبة ، وميزتها الكبرى أنها تقع قبالة جدة من أرض الحجاز .

ويرجع السبب الأكبر في انتعاش عيذاب في ذلك الوقت ، وهو النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي إلى توافد الناس إلى أرض المعادن في وادي

والجزائر، ولكنهم لم يسعفوه ، ثم استعان بالبرتغاليين سنة ١٤٨١ م ، فلم يكن حظه معهم بأحسن ، ولكنه فتح أبواب بلاده للبرتغاليين ، فعرفوا طرقها وأحوالها ، مما كان له أثر سيء بعد ذلك في تيسير مهمة الاستعمار .

وعلى أي حال فقد ضعف أمر مالي ضعفاً شديداً ابتداء من القرن السادس عشر تحت ضربات صُنُغَى التي حلت محلها في الرياسة السياسية في غرب إفريقيا المدارية .

السلطان ركن الدين بيبرس نجد دولة المماليك تصل جنوباً حتى تصل إلى سواكن سنة ١٢٦٤هـ/١٢٦٥م وتصبح هذه المنطقة كلها جزءاً من سلطنة مصر والشام . ونتيجة لسيطرة المماليك على هذا الميناء - عيذاب - ووصول سلطانهم إلى سواكن أصبحت مملكة مقره تحت رحمة المماليك والمسلمين .

وقد حاول داوود ملك جنوب النوبة - أي مَقْرَة - الفكاك من ضغط الإسلام على بلاده فقام في سنة ١٢٧١هـ/١٢٧٢م أيام السلطان بيبرس بالإغارة على ثغر عيذاب فتحركت السلطنة المملوكية لدرء هذا الخطر ، وأرسل بيبرس جيشاً قوياً سنة ١٢٧٤هـ/١١٧٦م للرد على عدوان داوود وتمكنت القوات المملوكية من احتلال دنقلة وطرده داوود وتعيين رجل آخر من بيته يسمى سكندره أو شكندر (وهو اسكندر) ملكاً على بلاد النوبة ووقع سكندر مع ممثلي السلطنة المملوكية وثيقة أقر فيها أنه تابع لسلطان مصر وأن مملكته جزء من سلطنة المماليك وقبل شكندر كذلك أن يؤدي لسلطان مصر نصف دخل بلاده من الجبايات ، ولهذا فإن هذا التاريخ (١٢٧٤هـ/١١٧٦م) يعتبر حاسماً في تاريخ وادي النيل وتحوله إلى الإسلام . ومن ذلك الحين أيضاً نجد أن التقاسيم الإدارية المملوكية تشمل بلاد النوبة على اعتبار أنها جزء من مصر .

وقد حاول بعض ملوك النوبة بعد وفاة بيبرس استعادة استقلالهم = ولكن السلطان قلاوون واصل تقليد بيبرس وأولى بلاد النوبة كل اهتمامه . وطال الصراع بين قوات المماليك وملوك دنقلة وخاصة سمamon المسمى أيضاً كامون ، وفي سنة ١٢٨٥هـ/١٢٧٨م أرسل قلاوون حملة كبرى ضم إليها محاربين من قبائل العرب النازلة في إقليم قوص وما يليه جنوباً وأهمها أولاد أبي بكر وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيان وأولاد الكثر وبني هلال = وتولى قيادة الحملة رجل من أكابر قواد قلاوون وهو الأمير سنجر المسروري المعروف بالخياط يساعده الأمير عز الدين أيوب السيفي السلاح دار متولي قوص أي

والجزائر، ولكنهم لم يسعفوه ، ثم استعان بالبرتغاليين سنة ١٤٨١ م ، فلم يكن حظه معهم بأحسن ، ولكنه فتح أبواب بلاده للبرتغاليين ، فعرفوا طرقها وأحوالها ، مما كان له أثر سيء بعد ذلك في تيسير مهمة الاستعمار .

وعلى أي حال فقد ضعف أمر مالي ضعفاً شديداً ابتداء من القرن السادس عشر تحت ضربات صُنُغَى التي حلت محلها في الرياسة السياسية في غرب إفريقيا المدارية .

عندما وفد على « الأبواب السلطانية » طالباً تعيينه والياً على النوبة ، ولكن المماليك كانوا لا يثقون في بني الكتر ففضلوا مرشحهم لأنه كما قالوا « تربية أيديهم » . وهكذا تربع على عرش النوبة أول ملك مسلم سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧ م .

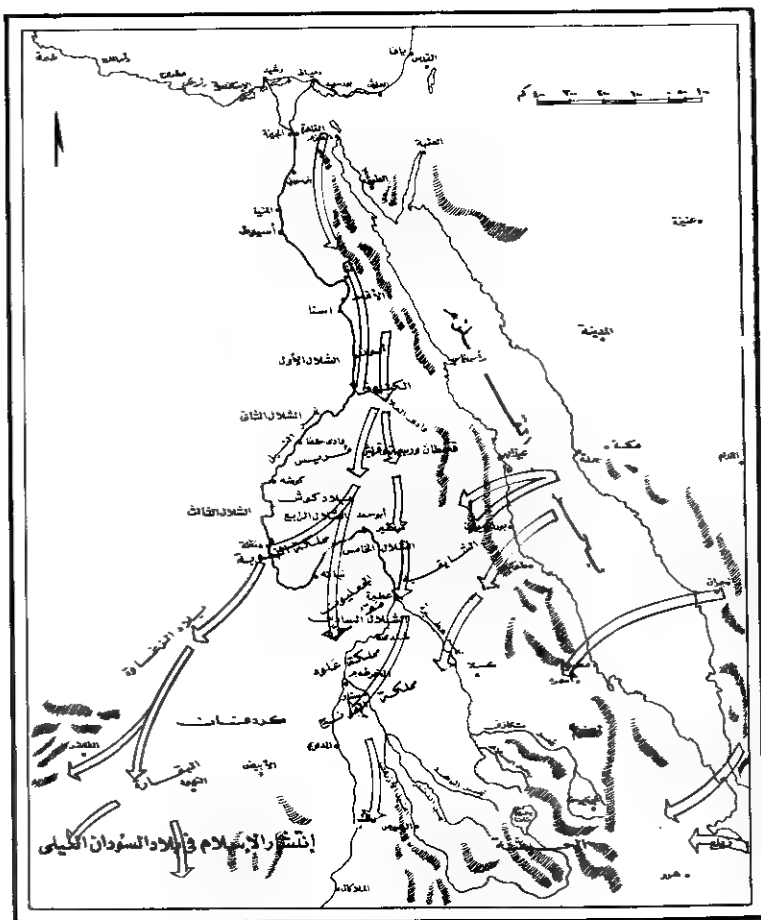
ولكن عبد الله برشمبو لم يحسن الاستفادة من الظروف المواتية التي أتت له . فأساء معاملة النوبيين « وتعاطى نوعاً من الكبر لم تجر عليه عادة ملك النوبة ، وعامل أهل البلاد بشدة وغلظة فكرهوا ولايته » (١) .

وبعد ذلك بقليل عاد إلى البلاد كتر الدولة قادماً من القاهرة ، فلما وصل إلى بلدة الدوّ (الدّر) سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧ م التف حوله النوبيون ونادوا به ملكاً ، فتقدم والتحم رجاله برجال عبد الله برشمبو وهزموه وقتل برشمبو في القتال ، وتولى كتر الدولة المُلْك « وقد حاول رجال الملك الناصر محمد بن قلاوون التخلص من كتر الدولة لأن المماليك عامة كانوا يكرهون العرب ويخافونهم » وقد انتصر عليهم أول الأمر ولكنهم تمكنوا من عزله سنة ٧٢٣هـ / ١٣٣٢ م وإجلاس مرشح لهم على العرش ، وأخيراً سنة ٨٢٣هـ / ١٤٣١ م تمكن كتر الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكتر من الفوز بالعرش بصورة نهائية . ووقف إلى جانبه عرب النوبة جميعاً وكانوا هم الفئة السائدة في البلاد من زمن طويل ، وإلى هؤلاء العرب يرجع الفضل في نشر الإسلام في مقرة فأصبحت هي الأخرى بلداً إسلامياً ، ورغم استقلال كتر الدولة بملك النوبة إلا أنه من الناحية الواقعية كان تابعاً لمصر . وكانت بلاده جزءاً من مصر وسلطتها . وقد أنشأ كتر الدولة بعد استقراره في العرش أول مسجد جامع

(١) النويري ، نهاية الارب ، ج ٣ ورقة ٩٩ نقلا عن د. مصطفى محمد مسعد في كتابه «الاسلام في النوبة في العصور الوسطى» القاهرة ١٩٦٠ م ، ص ١٦٧ .

والجزائر، ولكنهم لم يسعفوه ، ثم استعان بالبرتغاليين سنة ١٤٨١ م ، فلم يكن حظه معهم بأحسن ، ولكنه فتح أبواب بلاده للبرتغاليين ، فعرفوا طرقها وأحوالها ، مما كان له أثر سيء بعد ذلك في تيسير مهمة الاستعمار .

وعلى أي حال فقد ضعف أمر مالي ضعفاً شديداً ابتداء من القرن السادس عشر تحت ضربات صُنُغَى التي حلت محلها في الرياسة السياسية في غرب إفريقيا المدارية .



● بلاد الحوسى

الحوسى هو الصيغة العربية لاسم يطلق على مجموعة من البلاد تقع فيما بين جبال العير Air التي تقوم إلى الغرب من إقليم كوار وعاصمته بلما وتمتد حتى الضفة الشرقية لنهر النيجر . وأهل هذه البلاد يسمون أنفسهم الهاوزا ومعناه في لغتهم الضفة الشرقية من نهر النيجر ، وتوسع منطقة الحوسى حتى تصل إلى الحدود الغربية لبلاد البرنو .

وجبال العير تقع على الحدود الجنوبية للصحراء شمالي نهر النيجر ، وبينها وبين النهر منطقة صحراوية واسعة يسودها طوارق الصحراء ، والسفوح الشمالية للجبال قاحلة ، أما الجنوبية فتشققها وديان تنحدر منها نهيرات تتلقى مياه الأمطار ، وتنحدر تلك النهيرات جنوباً ، فإما تبددت في الرمال أو وصلت إلى نهر النيجر وصارت فروعاً منه ، ولهذا فإن الجزء الجنوبي من هذه الجبال خصب وعامر بالخضرة والناس والماشية والحياة .

والتاريخ الأسطوري الذي يقصه الحوسى عن أنفسهم يقول أن بعض قبائل الصحراء غزت جبال العير في القرن الحادي عشر الميلادي ، ففر أمامهم من استطاع الفرار من أهل الجبال والوديان واستقروا في ناحية جويير من نواحي جنوبي الصحراء الكبرى شمالي نهر النيجر وشرقه . وربما كانت تلك الغزوة من نتائج دخول العرب الهلالية المغرب ابتداء من سنة ١٠٤٦ ميلادية ، فإن بني هلال بن عامر بن صعصعه ومن صاحبهم من قبائل سليم بن منصور اجتاحتوا نواحي المغرب قادمين من مصر إلى جنوبي برقة وطرابلس واندفعوا غرباً ، فتهاربت أمامهم قبائل البربر الصحراوية إلى

علوة كانت قد انقطعت منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، فلم تعد مصر ترسل أساقفة أو قساوسة إلى النوبة ، فخلت الكنائس من القسس وهجرها الناس وأخذت تتداعى ، وقد قرر سائح برتغالي زار النوبة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي وقال « ان هؤلاء النوبيين يجهلون ديانتهم ، فلا هم بالمسيحيين ولا هم بالمسلمين ولا باليهود ، ويقال أنهم كانوا على النصرانية » غير أنهم فقدوا دينهم ، ولم تبق لهم عقيدة ويأملون أن يكونوا مسيحيين (١) .

وإذا كانت مملكة علوة سائرة في طريق الاضمحلال والتفكك من أوائل القرن الرابع عشر الميلادي فإن القضاء عليها تم في أوائل القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) وكان الذين أجهزوا عليها هم العرب والفونج حلفاؤهم .

ذلك أن سقوط مملكة علوة ونحوها إلى بلاد إسلامية يسكنها عرب ونوبيون مسلمون يختلط بعضهم ببعض شيئا فشيئا فتح الباب أمام هجرة عربية ضخمة تشبه هجرة قبائل المالكية إلى المغرب في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي تلك هي هجرة قبائل جهينة . ولم تكن كلها من الجهنيين ، بل غلب هذا الإسم على مجموع ضخم من القبائل العربية انسابت من صعيد مصر إلى أرض البطانة (أي النوبة) واستمرت في سيرها حتى استقرت في أرض الجزيرة بين النيلين الأزرق والأبيض واتخذت مواطن لها على ضفاف النيل الأزرق حول موقع مدينة سنار . وكما تدافعت قبائل البربر من لوانه وهواره وفقوسة

(١) كانت جزر دهلك قد دخلت في الاسلام من زمن بعيد ، ففسد كانت معبودة من قوايع بلاد العرب ، وكانت تتبع في الغالب صاحب السلطان في اليمن ، وفي العصر العباسي كانت دهلك منفى للمغضوب عليهم من الخلفاء . وكان الاسم يطلق على الجزر وشاطئ افريقية المقابل لها .

إلى الغرب أمام موجة الهلالية فكذلك تهارب أهل النوبة وعلوة إلى الجبال أمام الموجة الجهنية وطلبوا الأمان في جبال حوزا وكاجا وشمال كردفان . ولم يصدق ابن خلدون عندما حمل على الجهنين وأتهمهم بتخريب البلاد في طريقهم ، لأن الذي ثبت بعد البحث أنهم كانوا قوماً مسالمين يزحفون طلباً للأرض الخصبة والمرعى ، وأنهم أصبحوا سادة هذه البلاد عن طريق المصاهرات مع النوبيين والعلاقات الطيبة معهم . وإذا كانت الفوضى قد سادت عقب استقرارهم في البلاد ودامت وقتاً طويلاً فقد كان سببها الحروب بين العرب أنفسهم — لا الصراع بينهم وبين أهل البلاد ، بالضبط كما فعل الهلالية في المغرب .

وقد انتشرت هذه القبائل في أرض الجزيرة كلها ، وكان بعضها من عرب الشمال أي العدنانية ، وبعضها من عرب الجنوب أي القحطانية ، ومن سلائل العدنانية في الوقت الحاضر الكواهلة (بنو كاهل) والمجموعة الجُعَلِيَّة والرشيدة (هؤلاء هاجروا إلى السودان عبر البحر الأحمر من الحجاز والباقون أتوا من مصر) أما القحطانيون فيمثلهم الجهنيون .

ويتنسب إلى الكواهلة البشاريون (من البجة) وبنو عمار ، من البجة أيضاً ويسكنون من أحواز سواكن إلى أريتريا . ولهذا فالأغلب أن الكواهلة (من العدنانيين) نزلوا في أول الأمر في بلاد البجة على ساحل البحر الأحمر ، ثم ثم انساحوا غرباً في حين سارت بقية الجهنين مع النيل حتى ملتقى النيلين وأرض الجزيرة ومناطق النيل الأزرق ، وكان الكواهلة يتزلون الأرض بإذن من أهلها ويدفعون لأهلها مالا أشبه بالإيجار ، فإذا كثرت أعدادهم وثبتت أقدامهم وضعوا اليد على الأراضي وادعوا ملكيتها .

أما المجموعة الجُعَلِيَّة فتجعت حول النيل الأبيض جنوبي الخرطوم الحالية وامتدوا شمالاً حتى دققة وجنوبها ، وتكاثروا في أرض الجزيرة والنوبة

وانجھوا إلى الغرب نحو كردفان . وكانوا في كل مكان يختلطون بمن يعاونونهم من عرب قدامى ونوبيين وسودانيين .

وينسب الجعليون أنفسهم إلى إبراهيم الملقب بجعل « وهو من نسل العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم . ومن الواضح أن الجعليين لم يكونوا من أول الأمر قبيلة واحدة » بل كانوا قبائل شتى تجمع بعضها إلى بعض كما كان الحال مع الجهنيين « ويغلب على الظن أنهم بدأوا الزحف من صعيد مصر إلى الجنوب من أوائل القرن العاشر الميلادي ولكن جماعاتهم لم تتعاضد إلا في القرن الرابع عشر ، وعندما سقطت دولة مَمَرَّة اندفعوا إلى الجنوب في القرن الخامس عشر .

والراجح أن الجعليين ساروا مع الجهنيين ، فلما وصلوا إلى جنوبي ملتقى النيلين افترقوا ، فأما الجعليون فقد اتجهوا شمالا بشرق حتى دنقلة ، وكانوا عرباً حضرا فاستقروا ونشروا الثقافة العربية واختلطوا بالناس وذابوا فيهم حيث وصلوا ، وأما الجهنية — وهم مقاربون للجعليين في الأعداد — فقد اتجهوا إلى حوض النيل الأزرق و أرض البجة سائرين في أعقاب أجدادهم ممن كانوا يعيشون في الأصل في منطقة ينبع في جزيرة العرب ثم عبروا النيل إلى أرض البجة أرسلوا من وقت مبكر يصعب تحديده ، ثم أخذوا يتوسعون حتى وصلوا سواكن في القرن الثالث عشر ، ثم لحقت بهم الموجة الكبرى من بني جنسهم ، وهم جهنيون هاجروا إلى صعيد مصر وتكاثروا فيه وانضمت إليهم قبائل أخرى أهمهم بنو رفاعة ثم انساحوا نحو الجنوب كما ذكرنا .

والخلاصة أن الجهنيين ومن انضم إليهم من الجعليين وبني رفاعة أزالوا مملكة علوة المسيحية وأزالوا أثر هذه الديانة من وادي النيل وانتشروا في بلادها من النيل الأزرق إلى كردفان في حين قام عرب الكنوز ومن انضم إليهم بإتمام إسلام بلاد النوبة وشمال السودان إلى ملتقى النيلين وبعض أرض الجزيرة .

إلى الغرب أمام موجة الهلالية فكذلك تهارب أهل النوبة وعلوة إلى الجبال أمام الموجة الجهنية وطلبوا الأمان في جبال حوزا وكاجا وشمال كردفان . ولم يصدق ابن خلدون عندما حمل على الجهنين وأتهمهم بتخريب البلاد في طريقهم ، لأن الذي ثبت بعد البحث أنهم كانوا قوماً مسالمين يزحفون طلباً للأرض الخصبة والمرعى ، وأنهم أصبحوا سادة هذه البلاد عن طريق المصاهرات مع النوبيين والعلاقات الطيبة معهم . وإذا كانت الفوضى قد سادت عقب استقرارهم في البلاد ودامت وقتاً طويلاً فقد كان سببها الحروب بين العرب أنفسهم — لا الصراع بينهم وبين أهل البلاد ، بالضبط كما فعل الهلالية في المغرب .

وقد انتشرت هذه القبائل في أرض الجزيرة كلها ، وكان بعضها من عرب الشمال أي العدنانية ، وبعضها من عرب الجنوب أي القحطانية ، ومن سلائل العدنانية في الوقت الحاضر الكواهلة (بنو كاهل) والمجموعة الجُعَلِيَّة والرشيدة (هؤلاء هاجروا إلى السودان عبر البحر الأحمر من الحجاز والباقون أتوا من مصر) أما القحطانيون فيمثلهم الجهنيون .

ويتنسب إلى الكواهلة البشاريون (من البجة) وبنو عمار ، من البجة أيضاً ويسكنون من أحواز سواكن إلى أريتريا . ولهذا فالأغلب أن الكواهلة (من العدنانيين) نزلوا في أول الأمر في بلاد البجة على ساحل البحر الأحمر ، ثم ثم انساحوا غرباً في حين سارت بقية الجهنين مع النيل حتى ملتقى النيلين وأرض الجزيرة ومناطق النيل الأزرق ، وكان الكواهلة يتزلون الأرض بإذن من أهلها ويدفعون لأهلها مالا أشبه بالإيجار ، فإذا كثرت أعدادهم وثبتت أقدامهم وضعوا اليد على الأراضي وادعوا ملكيتها .

أما المجموعة الجُعَلِيَّة فتجعت حول النيل الأبيض جنوبي الخرطوم الحالية وامتدوا شمالاً حتى دنقلة وجنوبها ، وتكاثروا في أرض الجزيرة والنوبة

فإن الذي نعرفه من حقائق التاريخ هو أن العرب دخلوا بلاد عمران وحضارة
قديمة قائمة في العراق والشام ومصر ، فما هدموا مدينة ولا نقضوا بناء ، ولا
أخذوا أحجار الأبنية ليتخذوها أثافي للطبخ ، ولا انتزعوا سقوف البيوت
لإيقاد النار ، وإنما الذي نعرفه أن عمران العراق والشام ومصر زاد بدخول
العرب ، وزادت فيها المباني واتسعت خطة الزروع ، وفي البلاد التي كانت
قبليّة قبلهم استقر الناس وأنشأوا المدن ، فما كان في هضبة إيران قبل الفتح
العربي مدينة تسمى مدينة شرقي همدان ونهاوند ، وإنما كانت كلها محلات
وقرى صغيرة تتناثر مثل الواحات أو جزائر الصحراء حتى جبال طخارستان
فمدنت القرى وتحولت محلات الواحات إلى مدن كبرى بما استنبط العرب
من أساليب تجميع المياه وتخزينها تحت الأرض في الجباب وجمعها فوق الأرض
في الصهاريج وشقّ الترع ليجري فيها الماء ويروي الأراضي الواسعة ، ولفظ
« قناة » الذي انتقل إلى لغات العالم كلها عربي ، لأنهم كانوا أول من أجرى
القنوات بنظام محكم ، ونقلوا إلى كل بلد دخلوه نظام حفر القنوات التحتية
على نظام الكيظانات التي كانت معروفة عندهم في بلادهم ، وكانت الكيظانات
تحفر في باطن الأرض لتوصيل مياه العيون بعضها ببعض حتى يمكن حفر
آبار بين العين والعين لري الأرض وعرفوا هذه القنوات التحتية باسم المجاري ،
وبفضل شبكات المجاري العربية نشأت مدن كبرى مثل مراكش ومجريط
في الجناح الغربي لعالم الإسلام ، ومرو ومرو الروذ وهراة وبلخ وما
إليها في الجناح الشرقي .

وحقيقة الأمر أن كلام ابن خلدون لا يصدق إلا على جماعات قليلة من
الأعراب ممن انسلخوا عن جماعات القبائل الكبرى وشنوا عنها وعاشوا على
حافات بلاد العمران والأرياف ممن لا يقاس عليهم ولا تصدر الأحكام بناء
على تصرفاتهم .

إلى الغرب أمام موجة الهلالية فكذلك تهارب أهل النوبة وعلوة إلى الجبال أمام الموجة الجهنية وطلبوا الأمان في جبال حوزا وكاجا وشمال كردفان . ولم يصدق ابن خلدون عندما حمل على الجهنين وأتهمهم بتخريب البلاد في طريقهم ، لأن الذي ثبت بعد البحث أنهم كانوا قوماً مسالمين يزحفون طلباً للأرض الخصبة والمرعى ، وأنهم أصبحوا سادة هذه البلاد عن طريق المصاهرات مع النوبيين والعلاقات الطيبة معهم . وإذا كانت الفوضى قد سادت عقب استقرارهم في البلاد ودامت وقتاً طويلاً فقد كان سببها الحروب بين العرب أنفسهم — لا الصراع بينهم وبين أهل البلاد ، بالضبط كما فعل الهلالية في المغرب .

وقد انتشرت هذه القبائل في أرض الجزيرة كلها ، وكان بعضها من عرب الشمال أي العدنانية ، وبعضها من عرب الجنوب أي القحطانية ، ومن سلائل العدنانية في الوقت الحاضر الكواهلة (بنو كاهل) والمجموعة الجُعَلِيَّة والرشيدة (هؤلاء هاجروا إلى السودان عبر البحر الأحمر من الحجاز والباقون أتوا من مصر) أما القحطانيون فيمثلهم الجهنيون .

ويتنسب إلى الكواهلة البشاريون (من البجة) وبنو عمار ، من البجة أيضاً ويسكنون من أحواز سواكن إلى أريتريا . ولهذا فالأغلب أن الكواهلة (من العدنانيين) نزلوا في أول الأمر في بلاد البجة على ساحل البحر الأحمر ، ثم ثم انساحوا غرباً في حين سارت بقية الجهنين مع النيل حتى ملتقى النيلين وأرض الجزيرة ومناطق النيل الأزرق ، وكان الكواهلة يتزلون الأرض بإذن من أهلها ويدفعون لأهلها مالا أشبه بالإيجار ، فإذا كثرت أعدادهم وثبتت أقدامهم وضعوا اليد على الأراضي وادعوا ملكيتها .

أما المجموعة الجُعَلِيَّة فتجعت حول النيل الأبيض جنوبي الخرطوم الحالية وامتدوا شمالاً حتى دنقلة وجنوبها ، وتكاثروا في أرض الجزيرة والنوبة

من بقى في بلاد المسلمين من القوط ، وكانوا هم الأعداء الذين أزالهم العرب من الطريق ليوصلوا الإسلام إلى أهل البلاد ، حتى أولئك القوط استعربوا وصاهروا العرب وصار أبنائهم عرباً بالروح ، وظهر من بينهم علماء وأدباء يزدان بهم تاريخ الإسلام من أمثال أبي بكر بن القوطية الفقيه المؤرخ ، وهو حفيد سارة القوطية من بنات الملوك ، وعبد الملك بن بشكوال ، وجده بشكوال كان أسبانياً نصرانياً .

ولا حاجة بنا إلى الكلام على ما كان من تقارب وتأخر بين العرب الأول وأهل البلاد حتى أن رجال القبائل كانوا يتنافسون على العرب ، فتجهتد كل قبيلة في أن يتزل بها عربي ، فيبدأ معلماً لأفرادها وينتهي رئيساً لها ، ويتزوج منها ويسرع بإسلامها ، وخاصة إذا كان آل البيت العربي من آل إدريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأخيه سليمان .

ولم يكن الهلاليون مكروهين من أهل المغرب ولا مخربين لديارهم وإنما هم دخلوا بلاداً تسودها القوضى فأدلوها بيد لوهم فيها ، وخاضوا معركة بقاء انتهت باختلاطهم بالناس وإسراعهم بإسلامهم ، ولولا (إرادة الله) ثم الهلالية لما تم إسلام أهل المغرب وتعريبهم على النحو الذي نراه اليوم ، وهذا هو السبب في كراهة المستشرقين الفرنسيين لهم وحملتهم عليهم مستعنيين بكلام ابن خلدون ، والسبب في الكراهة أن الهلالية هم الذين أكلوا استعراب المغرب ، فلما دخل الفرنسيون وحاولوا زحزحة الناس عن الإسلام استحال عليهم ذلك ، وظل أهل المغرب عرباً مسلمين وهزموا الفرنسيين في النهاية .

هناك أيضاً في السودان نجد أن ماكايكل MacMaickel وغيره من الباحثين الانجليز يكرهون بني رفاعه وجهينة وبني الكتر ، ويزعمون أنهم نهبوا البلاد وخربوها ، والسبب في تلك الحملة أنهم يعرفون أنه لولا الجهنيين

إلى الغرب أمام موجة الهلالية فكذلك تهارب أهل النوبة وعلوة إلى الجبال أمام الموجة الجهنية وطلبوا الأمان في جبال حوزا وكاجا وشمال كردفان . ولم يصدق ابن خلدون عندما حمل على الجهنين وأتهمهم بتخريب البلاد في طريقهم ، لأن الذي ثبت بعد البحث أنهم كانوا قوماً مسالمين يزحفون طلباً للأرض الخصبة والمرعى ، وأنهم أصبحوا سادة هذه البلاد عن طريق المصاهرات مع النوبيين والعلاقات الطيبة معهم . وإذا كانت الفوضى قد سادت عقب استقرارهم في البلاد ودامت وقتاً طويلاً فقد كان سببها الحروب بين العرب أنفسهم — لا الصراع بينهم وبين أهل البلاد ، بالضبط كما فعل الهلالية في المغرب .

وقد انتشرت هذه القبائل في أرض الجزيرة كلها ، وكان بعضها من عرب الشمال أي العدنانية ، وبعضها من عرب الجنوب أي القحطانية ، ومن سلائل العدنانية في الوقت الحاضر الكواهلة (بنو كاهل) والمجموعة الجُعَلِيَّة والرشيدة (هؤلاء هاجروا إلى السودان عبر البحر الأحمر من الحجاز والباقون أتوا من مصر) أما القحطانيون فيمثلهم الجهنيون .

ويتنسب إلى الكواهلة البشاريون (من البجة) وبنو عمار ، من البجة أيضاً ويسكنون من أحواز سواكن إلى أريتريا . ولهذا فالأغلب أن الكواهلة (من العدنانيين) نزلوا في أول الأمر في بلاد البجة على ساحل البحر الأحمر ، ثم ثم انساحوا غرباً في حين سارت بقية الجهنين مع النيل حتى ملتقى النيلين وأرض الجزيرة ومناطق النيل الأزرق ، وكان الكواهلة يتزلون الأرض بإذن من أهلها ويدفعون لأهلها مالا أشبه بالإيجار ، فإذا كثرت أعدادهم وثبتت أقدامهم وضعوا اليد على الأراضي وادعوا ملكيتها .

أما المجموعة الجُعَلِيَّة فتجعت حول النيل الأبيض جنوبي الخرطوم الحالية وامتدوا شمالاً حتى دققة وجنوبها ، وتكاثروا في أرض الجزيرة والنوبة

● مملكة الفونج

هذه أول دولة إسلامية ذات قواعد سياسية وإدارية ونظام قائم تظهر في السودان النيلي جنوب مصر . وعلى الرغم من أن ألقاب ملوكها تبدو أحياناً غير عربية ، إلا أن الفونج أنفسهم يقولون أنهم عرب ، وكانوا يدونون وثائقهم بالعربية ■ وكانوا ينسبون أنفسهم إلى نبي أمية . ولا بد لهذا أن نعتبرهم دولة عربية إسلامية كما اعتبروا هم أنفسهم .

وقد اختلفت الآراء في الطريق الذي دخلوا به منطقة ما بين النيلين ، فيقول بعض المؤرخين أنهم دخلوا وادي النيل من الغرب وأنهم فرع من ملوك البُرْفُو ■ وهناك من يقولون أنهم كانوا في الأصل فرعاً من قبائل الشُّلُك . أما هم فيقولون أنهم من نسل أمراء من أمية الذين فروا من العباسيين : ذهبوا إلى الحبشة ثم صعدوا مع النيل الأزرق حتى منطقة سنار . ويؤيد هذا الرأي المسعودي والمقريري .

وعلى أي حال فقد كان الفونج يعتبرون أنفسهم دولة عربية إسلامية ، وعلى هذا الأساس ينبغي أن نأخذهم ، وقد ظهوروا في وقت اشتدت فيه الحاجة في وسط السودان إلى دولة قوية تقرر النظام وتؤمن الناس ، لأن دولة علوة وتسمى في النصوص السودانية بدولة العَنَج كان أمرها قد ضعف تماماً وتكاثرت القبائل العربية في بلادها وقامت الحروب بينها حتى أصبح حوض النيل الأوسط مقسماً إلى ممالك ومشيخات كثيرة لا تكف عن الحرب بين

بعضها وبعض ، وكانت تسود كل منطقة قبيلة قوية تتمكن من إشعار البقية بقوتها ، ورئيسها يسمى شيخ المشايخ ويلقب بالمل أو المانجل . وكانت نتيجة هذه القوضى أن تعطلت التجارة ، بل نلاحظ أن التجارة مع مصر اضطربت تماماً في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي ، وظهرت الحاجة إلى إقامة نظام سياسي يشمل هذه المنطقة كلها ويقر الأمن فيها .

في هذه الظروف ظهر رجل قوي موهوب هو عمارة دقنس من بين قبائل الفونج التي استقرت في منطقة سِتَار على النيل الأزرق ، وكان مركزهم في جبل مويّا على بعد ٢٠ كيلومتراً تقريباً إلى غرب سنار الحالية ، فجمع رجاله وقرر القيام بالقضاء على بقايا دولة العنج وإقامة نظام إسلامي جديد ، ثم تحالف مع عبد الله جَمَاع شيخ عرب القواسمة من جُهينة وحلفائه الكثيرين ، وكانوا يسودون المنطقة الواقعة عند ملتقى النيلين وما يليه شمالاً . وفي سنة ١٥٠٥/١١٠٠م التقى الحلفاء مع قوات العنج عند بلدة تسمى أريجيجي كان قد أسسها عربي يسمى حجازي بن معين حوالي سنة ١٤٤٧ وانتصروا على العنج وفرت بقاياهم إلى جبال فازو علي وكردقان ، واختفت بقيتهم في سكان البلاد من المسلمين ودخلو الإسلام .

وعقب ذلك قامت دولة الفونج وحدودها من سواكن شرقاً إلى النيل الأبيض غرباً ، ومن أقصى جبال فازو علي جنوباً إلى الشلال الثالث شمالاً أي أنها شملت معظم أراضي مملكتي مَقْرَة وعلَوَة السابقتين .

وقد انفرد عبد الله جماع بالقسم الشمالي من المملكة وجعل عاصمته مدينة قِيرِي (قرب خانق سَبْلُوقة) أما عمارة دقنس فقد بسط سلطانه على الجنوب واتخذ مدينة سنار عاصمة له ، ويقال إنه هو الذي أنشأها . وكانت حدود المملكة من الشمال بلدة حَنَك ، وعندها تبدأ الحدود الجنوبية لمصر المملوكية في ذلك العصر . وحَنَك تقع عند الشلال الثالث ،

ويذهب نَعُوم شقير (١) إلى أن مدينة أريحي (قرب المسلمية) أصبحت الحد الفاصل بين منطقة نفوذ عمارة دنقس ومنطقة نفوذ عبد الله جماع . وكان كلاهما لا يحكم مباشرة بل عن طريق المُكوك أي شيوخ القبائل . ويقال أن إنفراد عبد الله بهذه المنطقة الشمالية تم في أواخر أيام عمارة دنقس .

وعندما قامت دولة الأتراك العثمانيين مدت حدودها من مصر جنوباً حتى سواكن ومصوع فقد احتلتهما ووضعت فيهما حاميتين عسكريتين ، وذلك بعد ثلاث سنوات من استيلاء العثمانيين على مصر أي سنة ١٥٢٠م وعرف عمارة دنقس كيف يقنع سلطان العثمانيين بأنه ملك مسلم وأن سكان بلاده عرب مسلمون وألا داعي لأن تخشاهم الدولة العثمانية على سلطانها .

وقد تعاقب على مملكة الفونج بعد عمارة دنقس ثلاثة ملوك أقوياء ثم أخذت تضعف . وفي أيام الملك عدلان وداي الذي انتهى سنة ١٦١١م قامت الحرب بين بلاد عبد الله جماع (العَبْدِلَاء) ومملكة الفونج . وكان شيخ العبدلاب يسمى عجيب ، وقد انهزم الشيخ عجيب وقتل وفرت عائلته إلى دنقلة ، فقام رجل صالح هو الشيخ إدريس ود الأرباب وتوسط بين الجانبين ، وتم الصلح بينهما وأذن عدلان لعُجَبِيل بن عجيب بأن يعود إلى منطقة سلطان أبيه ، وكان عجيب الذي ذكرناه ذا عناية كبيرة بالدين والثقافة فكان يكرم العلماء والصالحين وقد أنشأ رواقاً للسنارية في الأزهر وآخر في مسجد المدينة المنورة .

ومع أن عدلان ود أي أثبت كفاية في عمله إلا أن أهل مملكة الفونج

(١) تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية (القاهرة ١٩٠٤م) ج ٢

عزلوه وأقاموا مكانه بادي سيد القوم فسلط مع العبدلاب سياسة عنف وقوة وانزع السلطان على الأقاليم الشمالية من يد الشيخ عجيب ووضع يده على دنقلة وكانت مركز الحدود والجمارك بين المنطقتين . وفي أواخر سنوات حكم الفونج إستقلت قبائل الشايقيه التي كانت تسكن منطقة حلغا في منطقة العبدلاب وكان هذا مظهراً من مظاهر تفكك مملكة سنار فقد انقسمت إلى مشيخات قبائلية كل منها مستقلة في ناحيتها ومن أقوى لهذه المشيخات العبدلا ، والجلالين والمجاذيب والمرافاب والشايقيه وكانت هذه الأخيرة تسكن أبعد هذه المناطق إلى الشمال وكانوا قبائل شتى لا تنقطع الحرب بينها وكانوا يسيطرون على منطقة وادي حلغا كلها ويملكون أكبر مدن المنطقة مثل أبي حمد ومروي وكورتي .

وكانت كل هذه الجماعات القبلية السودانية التي نشأت عن تفكك دولة الفونج تعتبر نفسها قبائل عربية ، وكان دينها الإسلام ، وكان أفرادها يتمسكون به تمسكاً شديداً ولكن على طريقتهم . فقد كان العلماء والفقهاء من مصر قد تكفلوا بتعريف أهل السودان بالإسلام ، وأتم هذه المهمة طلاب السودان الذين رحلوا لطلب العلم في مصر أو في الحجاز وعادوا فقهاء وشيوخاً أجلاء ، ومن هؤلاء أولاد جابر الأربعة : إبراهيم وعبد الرحمن وإسماعيل وعبد الرحيم « وهم أولاد جابر بن عون بن سليم بن رباط بن غلام الله والد السادة الركابية ، وكلهم درسوا في الأزهر وعادوا إلى مواطن الشايقية ونفع الله بهم خلقاً كثيرين ، وقد هاجر أيضاً إلى بلاد الفونج نفر من علماء الأزهر أشهرهم الشيخ محمد القناوي ، وقد علم في بربر وأريجي وسنار ولكنه استقر في بربر وأنشأ فيها مسجداً يصلي ويلقي دروسه فيه ، ونخرج على يديه الكثيرون من أوائل علماء السودانيين .

وكانت أولى علائم دخول السودان ميدان التاريخ محاولة محمد علي صاحب

مصر فتح السودان ابتداء من سنة ١٨٠٧م وتوسيع حدود مصر حتى تشمله «
وقد بدأت العملية سنة ١٨٢٠م ، ومهما قيل في محاولة محمد علي فتح السودان ،
فهي في الحقيقة كانت نداء قوياً أيقظ السوادن ونبه أهله إلى أنه قد أصبح
عضواً في أسرة الإسلام والعروبة الكبرى وأن عليه أن يأخذ نصيبه من آلام
هذه الأسرة ومسراتها .

والسودان ، ذلك البلد العربي العزيز من البلاد التي دخلها الإسلام دون
حرب « دخلها بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة » فدون تدخل من أي دولة
إسلامية كان الإسلام يسري في بلاد السودان في هدوء وعمل القلوب حتى
أصبحت الدول المسيحية هناك مظهراً لا ينطوي على مخبر ، ولم يكن يتمسك
بالمسيحية هناك إلا البيوت الحاكمة ونفر من القساوسة علمهم بالإسلام قليل .
ولم يكن ما فعل بنو رفاعه والجهنيون أكثر من إتمام عملية كانت تسير في
في طريقها في هدوء .

وقد كان ولا بد أن يتحول السودان النيلي إلى بلد إسلامي بسبب قربه
الشديد من جزيرة العرب واستمرار هجرات العرب إلى بلد السودان عبر
البحر الأحمر ولكن العملية تأخرت بعض الشيء ، لأنه لا بد لسيادة الإسلام
الفعلية في أي بلد ما من تنظيم يتولى العمل ورجال يسألون عنه ، وهذا هو
الذي قام به بنو رفاعه وعرب جهينة ودولة الفونج « ثم واصلت العمل مصر
أيام محمد علي وإن كانت أساليب الإدارة المصرية أيام محمد علي لم تكن
منصفة لا لأهل السودان ولا لأهل مصر . ومع ذلك فقد كانت وحدة مصر
والسودان أيام محمد علي وما بعدها إلى أواخر أيام إسماعيل من أكبر العوامل
في إتمام إسلام السودان ، ولولا أن إسماعيل الخديوي عهد في إدارة السودان
لربانية الاستعمار من أمثال السير صمويل بيكر ثم تشارلس غوردون لأصبح

السودان كله من شماله بجنوبه إسلاماً خالصاً ، بل لامتدت دولة الإسلام حتى شملت وادي النيل كله « فقد أنشأت مصر أيام إسماعيل مديرية خط الاستواء أو أكواتوريا ، ووضعت سياسة ثابتة لنشر الإسلام في مناطق منابع النيل ، وتوافد العلماء والفقهاء من مصر إلى هناك . وما أفسد هذا العمل الجليل كله إلا الانجليز ، وهم وراء متاعب العالم العربي كله من السودان إلى فلسطين .

● الاسلام فى بقية شرق افريقية

يبدو للنظر من بعيد أن انتشار الإسلام في شرق إفريقيا أمر لا يحتاج إلى طويل بحث نظراً لموقعه الجغرافي على الضفة الغربية للبحر الأحمر في مواجهة الحجاز ، وهو مهد الإسلام ، واليمن وهو أيضاً مركز رئيسي من مراكز الدعوة إلى الإسلام ثم نظراً للعلاقات الوثيقة التي ربطت شرق إفريقيا بالجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده .

ولكن شرقي إفريقيا وخاصة فيما يتعلق بما يقع منه إلى الجنوب من السودان النيلي معقد التركيب الجغرافي والبشري ، وأبسط ما يدل على ذلك أن مصر والسودان الشمالي والأوسط قد تمّ تعريبهما من قرون بعيدة بينما لم تعرب السنة سكان الصومالات بعد . وهذا يبدو غريباً ، لأن شرقي إفريقيا المواجهة لجزيرة العرب — بما في ذلك الحبشة — تلقى من جزيرة العرب لغاته السامية وعناصر حضارته الأولى قبل الإسلام بزمان طويل . وكان الذين أقاموا مملكة أقشوم أو أكسوم القديمة مهاجرين من اليمن إلى إقليم تيجراي .

أما المسيحية فقد وصلت إلى نفس هذه المنطقة (الحبشة) وافدة من مصر وقد حملها إلى هناك راهبان مصريان اسكندرانيان في قصة معروفة . ونحن إذا شككنا في القصة فإننا لا نستطيع الشك في نتائجها وهي أن مملكة أقشوم أصبحت بلاداً قبطية الديانة أي مسيحية على المذهب المونوفيزي أي مذهب الطبيعة الواحدة الذي سمي فيما بعد بالمذهب اليعقوبي ، وأصبحت أقشوم والحبشة تابعتين للكراسة المرقسية أي الكنيسة المصرية المنسوبة إلى الحواري مرقس ، ومن الاسكندرية كان — ولا يزال — يفد على الحبشة أسقف كنيستها ،

إذ أنها كانت أسقفية تابعة للاسكندرية ، ولم يصبح أسقف الحبشة مطراناً إلا فيما بعد . وإلى هذا المحيط الرفيع الذي يربط الحبشة إلى الاسكندرية يرجع السبب في بقاء المسيحية في الحبشة بعد أن قطعها الإسلام قطعاً تاماً عن مراكز المسيحية في أوروبا . وإذا كان الإسلام قد استطاع أن يغزو ممالك السودان القبطية فلأن أراضيها سهول استطاع العرب اكتساحها شيئاً فشيئاً ، فإن نواة الحبشة — أي نواة مسيحيتها — كانت في الأقاليم الجبلية المرتفعة ، فلم يصل إليها الإسلام والمسلمون في سهوله . ويعلل بعض الباحثين الغربيين بقاء المسيحية في الحبشة بأن المسلمين عجزوا عن قهر الأحباش المتعلقين بقمم الجبال وسطوح الهضاب ، والحقيقة أن المسلمين لم يحاولوا فتح الحبشة في عصر اندفاعهم الأول .

والحق كذلك أن المرتفعات مهما كانت لم تقف قط حائلاً بين العرب وبين فتح أي إقليم إذا شاموا ذلك ، وجبال الحبشة ليست أمتع من جبال أفغانستان التي اقتحمها العرب وأدخلوا أهلها رحاب الإسلام ، ولا هي أمتع من جبال الأطلس ولا كان الأحباش بأشجع من البربر . ولكن العرب الذين استولوا على جزيرة دهلك ومدينة مصوع الواقعة على الساحل القريبة منها لم يهتموا كثيراً بالتوغل في الداخل ، ربما لأنه لم يوجد في دفعة الفتح الأولى رجل يلفت نظر الخلافة إلى ضرورة توجيه قوي كافية نحوها . وكانت انتباهات الفتوح تتوقف كثيراً على وجود رجال أفذاذ من القادة نجحوا في تنبيه دولة الإسلام إلى أهمية فتوح البلاد التي تلي ولاياتهم ، ولولا قتيبة ابن مسلم لما بذل المسلمون كل ذلك الجهد لفتح بلاد الترك ، ولولا محمد ابن القاسم لما وثب المسلمون إلى حوض السند هذه الوثبة الباسلة . ولولا عقبة بن نافع ما اهتمت الدولة الإسلامية بأمر المغرب الاهتمام الذي جعل بلاد المغرب كلها بلاد إسلام ، كذلك الأمر مع طارق بن زياد وموسى

ابن نصير بالنسبة للأندلس ، ومسلمة بن عبد الملك ومحاولات الاستيلاء على القسطنطينية .

وعلى الرغم من ذلك فقد تكفلت القبائل العربية المهاجرة عبر البحر الأحمر أو الزاحفة من مصر بغزو بلاد البجة ثم بلاد عفر والدناقل ، وإلى هذا يرجع الفضل كما رأينا في ظهور أهمية ثغر عيذاب كرأس معبر من الحجاز إلى إفريقيا واستولى أولئك العرب أيضاً على زيلع وسيطروا منها على طريق هَرَر التجاري المؤدي إلى أعالي الحبشة ، وكثر استعمال تجار العرب لهذا الطريق ، وكالعادة سار الإسلام مع التجار وطرق التجار ونشأت على طول هذا الطريق المؤدي إلى قلب الحبشة إمارات أو مشيخات صغيرة إسلامية مثل رافات وأدلّ ومُورة وهُبُط وجداية جنوبي نهر هَوَش ، وانتشر الإسلام بين قبائل سِدَامة الحبشية المستقرة وما حوّلها من قبائل البدو . ودخل في الإسلام كذلك ملوك بلاد كوش وأهمها فنجِر ودواره وهديه وبلي ، وأصبحت مدينة هَرَر في بلاد مملكة دواره مركزاً إسلامياً هاماً وإن تكلم أهلها لغة سامية خاصة بهم . وقد أصبحت هذه الممالك الإسلامية الصغيرة نطاقاً حال بين امتداد الحبشة نحو الجنوب والجنوب الشرقي . وكان الصراع دائماً وعنيفاً بين هذه الممالك وملوك الحبشة . وفي أوائل القرن السادس عشر ، وفي سنة ١٥٢٧ م على وجه الدقة ظهر بين المسلمين زعيم قوي هو الإمام أحمد جرافي الذي تمكن من فتح الحبشة وأزال ملك النجاشي ، لكن هذا الرجل لم يعيش طويلاً إذ قتل في المعارك سنة ١٥٤٢ م ، وتفرق رجاله .

ولكن الاتجاه إلى إدخال الحبشة في الإسلام تجدد مرة أخرى عندما هاجرت قبائل الجالو الوثنية إلى داخل الحبشة في موجات متعاقبة ابتداء من سنة ١٥٣٧ م تقريباً - وقد هاجرت هذه القبائل إلى منطقة سدّامه شرقي بحر الغزال ، وكانت فيها جماعات إسلامية كثيرة فازالتها فلم يبق الإسلام

إلا في هرر وما تبعها من الأراضي وبلاد عَقَر والصومال . وتوسعت قبائل الجالو واحتلت هضاب الحبشة . وقد أسلم بعضهم وتنصر البعض الآخر . وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت الحبشة تعاني من مصاعب داخلية أتاحت للجالين المسلمين أن يضعوا يدهم على الكثير من أراضي الحبشة ، ووجد الكثير من قبائلهم مثل الوكَلُو وراية وييجو في الإسلام وسيلة تمكنهم من العيش متميزين عن الأمهريين ، وقد حاولت قبائل الجالو المسلمة أن تسيطر على النجاشية وهي نواحي المرتفعات .

وخلال القرن التاسع عشر كمل إسلام قبائل الجالو على يد تجار المسلمين ودعاتهم ، فأصبحت كل أراضيهم إسلامية ، وبفضل هؤلاء جميعاً أصبحت كل القبائل الساكنة في حوض نهر جيبه إسلامية وأهمها قبائل جُمّا وجيرة ، ولیمو وجيمه وأبا جفار فيما بين سنتي ١٨٢٠ و ١٨٧٠ م .

وخلال القرن التاسع عشر أيضاً تحولت معظم قبائل أريتريا إلى الإسلام وكانت قبل ذلك مسيحية . ومن بين هذه القبائل التي أسلمت مجموعة القبائل المتكلمة بلغة التيجري والقبائل الثلاثة المسماة ببيت أسجيدي و قبيلة ماريا وقبيلة ييلين أبو بوغوص المشتغلة بالزراعة ثم قَبِيلَتَا مانسا ويوك .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي عادت الحبشة فتعاسكت واستعادت وحدتها فنهضت من جديد واستطاعت إيقاف تقدم الإسلام في أراضيها وقام على رأسها أباطرة أقوياء مثل تاووضروس Theodore ويوحنا ثم مَنِيلِيك الذي استعان على المسلمين بمعونات أوروبية وقد حكم مَنِيلِيك من سنة ١٨٨٩ إلى ١٩١٣م وتمكن هؤلاء الثلاثة من توسيع رقعة الحبشة حتى ضمت داخل حدودها أعداداً كبيرة من المسلمين والوثنيين .

وعلى الجملة فهناك أربع مناطق ينتشر فيها الإسلام في هذا الجزء من شرقي افريقية المجاور لمدخل البحر الأحمر هي :

١ - يمتد الإسلام بطول ساحل البحر الأحمر ، وهنا يسكن خليط من السكان من أصل حامي (مثل الزَيْلَعَوِي) وثقافتهم عربية الطابع تتجدد باستمرار نتيجة لتوالي الهجرات العربية من اليمن وعسير .

ويتبع هذه المنطقة الساحل الذي يمتد جنوب القرن الإفريقي وما فيه من البنادر أي المدن بعد أن تم إدماجها في الصومال . وثقافة أهل هذه المنطقة سواحلية (أي بانسو) .

٢ - مناطق المضارب العليا والوسطى التي تسيطر عليها سياسياً دولة الحبشة المسيحية . وثقافة أهل هذه المنطقة ليست إفريقية . وهنا تسكن جماعات الحبشيتية وهم أحباش مسلمون أصلاً ، وأهل الجبال الشماليين مثل اليجو والرايا والوالو (وهؤلاء مسلمون) .

٣ - السهول الشرقية والشرقية الجنوبية وكذلك أهل هرر ، وهنا منازل قبائل البدو من عَقَر (أو الدناقل) والصوماليين . وقد احتلت قبائل الجلالا بعض هذه المناطق . وهذه المنطقة إسلامية كلها الآن . ولم تَسِرِ العروبة إلى جانب الإسلام بين أهل هذه النواحي الحاميين (البجه وعَقَر وساهو والصومال والجلال) فظلت لغاتهم وتقاليدهم حامية كما كانت .

٤ - ورابع هذه المناطق الإسلامية هي منطقة جنوب غربي الحبشة (منطقة الجيه) حيث دخلت في الإسلام جماعات من سكان سدامة والميشاجاللو .

ولأنه لمن الغريب أن المسلمين سهوا عن فتح الحبشة خلال العصور الإسلامية الأولى مع أن الحبشة كانت متجراً للعرب في الجاهلية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف الحبشة وملكها على أيامه معرفة طيبة ، وقد اختارها لتكون مهجراً أميناً للمستضعفين من أصحابه عندما ثقلت عليه أيدي كفار قريش ، فكان من الطبيعي نتيجة لذلك كله أن يستكمل العرب فتح اليمن بفتح الحبشة ، لأن الحبشة واليمن كانتا دولة واحدة خلال حقب طويلة قبل

الإسلام ، ولو أن المسلمين فصلوا الحبشة في عصر الفتوح الأولى لما وجدوا أي صعوبة في فتحها ، فقد كانت مسيحية أهلها سطحية جداً ، وكان التقارب بين المذهب اليعقوبي الذي سادها والإسلام ظاهراً ، وبالفعل يظهر أن النطاقين الأول والثاني من مرتفعات الحبشة وهما نطاق الديبسا والدوايتانديما دخلا في الإسلام ، ولم يبق على المسيحية إلا أهل المرتفعات العالية ، وكانوا من القلة بحيث لم تشعر دولة الخلافة بضرورة توجيه جيش خاص لفتح هذه المرتفعات ويبدو كذلك أن المسلمين لم يخلدوا من التجاشي أي معارضة للإسلام فقد كان التجاشي المعاصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً متسامحاً لا يضع العراقيل أمام الإسلام ، وما دام متسامحاً فلم يعد هناك ما يدعو لحربه جرياً على سنة الإسلام . وقد أطمع ناسهل المسلمين قسس الأحباش فتمسكوا بعقيدتهم وحرصوا الناس على البقاء عليها ، ومرت السنين وانكسرت حدة موجة الفتوح الأولى فسكت المسلمون عن الحبشة فظلت المسيحية على حالها فيها على الرغم من انقطاع الحبشة عن بقية العالم المسيحي ، فإن المسيحية ظلت متمسكة فيها بفضل اهتمام كنيسة الاسكندرية بها ، وقد غابت الحبشة عن أنظار العالم كله قروناً متطاولة ، حتى المسيحية الأوروبية نسيته ، وتحولت الحبشة المسيحية عند الأوروبيين خلال العصور الوسطى إلى بلد أسطوري يقع في آسيا أو إفريقية ويعمل فيه أسقف أسطوري يسمى القس يوحنا أو Prester Jones كما يقال في اللغات الأوروبية ، وقد أشرنا إلى الراهب البرتغالي الذي زار الحبشة في القرن الثامن عشر ، ونقير مما رآه ، ووصف الأحباش بأنهم غاية في الجهل والبعد عن المسيحية .

وقد تذكرت أوروبا بلاد الحبشة المسيحية أثناء حركة الاستعمار ، فحاول البرتغاليون الوصول إلى الحبشة ، ووصل إليها بعضهم وعاد إلى أوروبا ببعض أخبارها .

وتنبت البابوية في القرن الثامن عشر إلى أهمية الحبشة كنقطة ارتكاز للدعوة المسيحية في إفريقية ، وأخذت ترسل العيون والجواسيس خلال البحر الأحمر متنكرين في هيات مسلمين ، وقد وقع الكثيرون من هؤلاء الجواسيس في أيدي المسلمين فعاقبوا بعضهم وأطلقوا سراح البعض الآخر ، وقد أقامت حكومة الممالك مركزاً للرقابة في القصير وآخر في برقيق عند رأس بناس ، وكان الذين نبهوا الممالك إلى ذلك الخطر هم حلفاؤهم البنادقة ، لأن أولئك الجواسيس كانوا يخرجون إلى مصر من البندقية في زى التجار . وقد كتب الكثيرون من أولئك الجواسيس كتباً عن رحلاتهم . ولكن الحبشة لم تتحرك وتنهض من جديد إلا مع حركة الاستعمار ، وكان أول ملوكها الذين حاولوا الإفادة من حركة الاستعمار هو تاو وروس الذي ذكرناه أوتودور ، وكان ملكاً غريب الأطوار عنيفاً في عدائه للإسلام . وقد كتب عنه ألان مورهد فصلاً كبيراً في كتابه عن النيل الأزرق .

وملاحظة أخيرة قبل أن نختم هذه الإشارة القصيرة إلى الحبشة وهي أننا نحن العرب أهملنا البحر الأحمر إهمالاً مريعاً على طول تاريخنا ، فهذا هو البحر الوحيد على الأرض الذي يعتبر بجزءاً عربياً حقاً ، فالبلاد المطلة عليه كلها عربية ، وقد انفردت سفن العرب بالملاحة فيه عصوراً متطاولة ، ولكننا أهملناه ولم ننشئ فيه المواني والمرافئ مع أن ذلك حيوي لنا ، وقد كتبنا في هذه الناحية بشيء من التفصيل في مقدمة الكتاب الجامع الذي تنشره دار المعارف بمصر بالتعاون مع منظمة اليونسكو .

● انتشار الاسلام فى جنوب القرن الافريقى

كان شرق إفريقية دائماً من المناطق الغنية بمنتجاتها التي تلقى في بلاد الغرب قبولاً واسعاً ، ولهذا كثرت هجرة العرب إليه واستقراهم على سواحلهم من قديم الزمان لممارسة التجارة ونقلها إلى الشام وبلاد الروم ، وكان مضيق باب المندب معبراً مألوفاً إلى إفريقية قروناً كثيرة قبل الإسلام وعندما ظهر الإسلام ودخلت فيه بلاد اليمن بدأ اليمانيون يحملون الإسلام إلى إفريقية في كل سواحل الصومالات ، وكذلك فعل الحضارمة والعمانيون بعدهم ، وكلهم أدخلوا الإسلام معهم إلى الساحل الإفريقي شمال القرن وجنوبه . وبعد قليل من الزمن أصبح الإسلام الدين السائد على السواحل ومضى يشق طريقه إلى دواخل القارة .

وقد قسم العرب الساحل الافريقى الذى افغوا الوفود عليه الى اربع مناطق :

- ١ - ساحل البريرة عند قرن إفريقية وإلى غربه وجنوبه وأهله كوشيون . وجنوبي مقدشو تلقى سكاناً هم خليط من الكوش والزنج .
- ٢ - بلاد الزنج أو ساحل الزنج ، وكانوا وثنيين في جملتهم وقد أنشأوا مدناً تجارية ساحلية ، وكانوا يخضعون للملك لهم في ممسة .
- ٣ - ساحل سَفَّالة وهي أرض الذهب ولهم ملك قاعدته صبونة .
- ٤ - أرض الوقواق وهي ما يلي ذلك من الساحل جنوباً ، وهي أرض مجهولة لا نعرف عنها إلا القليل .

وكان المسيطرون على تلك المدن التجارية كوشيين في حين أن السكان أنفسهم من البانتو . وكان هؤلاء الأخيرون يتحركون نحو الشمال مع الزمن حتى نجدهم في جنوب ساحل البربرة بين سنتي ٥٠٠ و ٨٠٠ ميلادية .

وعندما كتب المسعودي كتاب (مروج الذهب) سنة ٩٣٤م كان هذا الساحل جنوبي القرن لا يزال وثنيًا ، ولكن الإدريسي الذي كتب بعد ذلك بقرنين (سنة ١١٥٣ م) يؤكد أنهم دخلوا الإسلام وأن كل مواقع ساحل البربرة قد دخلوا في الدين ، أما الزنج جنوبهم فيذكر الإدريسي أنهم كانوا ما يزالون كفاراً فيما عدا سكان جزيرة لم يذكر اسمها والغالب أنها زنجبار . وبعد ذلك بقرن من الزمان (سنة ١٢٥٤) يذكر علي بن سعيد المغربي في كتابه « بسط الأرض في طولها والعرض » أنهم أصبحوا مسلمين وخاصة قادتهم ورؤساؤهم ، وأن مدن الساحل الإفريقي الشرقي قد أصبحت مدناً إسلامية .

وهذه المدن الساحلية هي مقدشو وبراو و مركة و لمشروباته و مكندي وما فيه و كلوه ، كانت لها كلها علاقات تجارية منتظمة مع جزيرة العرب والخليج العربي والهند وما يليها شرقاً . وكان الكثير من هذه المدن الساحلية يقوم على جزر قرب الشاطئ .

وفي الشمال من ذلك الساحل الإفريقي الشرقي نجد أن الإسلام أوغل في الداخل حتى غلب على أهل إقليم سيدامه . وإلى الداخل من ذلك الإقليم كانت تسكن قبائل بادية لا تشجع الناس على الدخول في أرضها ، ولكن الإسلام أوغل فيها برفق وهذه القبائل من شعب البانتو وهم لم يكتروا للدخول في الإسلام أول الأمر ولهذا كان إسلامهم بطيئاً .

أما الإفريقيون السواحليون ومعظمهم من البانتو فقد كانوا مسلمين ، وكان اهتمامهم بالتجارة عظيماً ولكن الخلافات والمنازعات كانت قائمة بينهم على الدوام ، وقد شغلهم هذا عن الاهتمام بنشر الإسلام في الداخل

ورائهم . وقد تحولوا نتيجة لاختلاطهم بالعرب إلى جماعة بشرية قائمة بذاتها تميزت بخليط ثقافي إسلامي بانتوي . ونشأ عندهم طراز ثقافي يسمى عادة بالشيرازاي فيما بين سنتي ١١٥٠ و ١٥٠٠ م .

والشيرازية منسوبون إلى علي بن سلطان بن الحسن بن علي ابن أحد سلاطين شيراز من جارية سوداء ، وقد نفر من إخوته من أمهات يضاوات فأخرجوه من البلاد سنة ٩٧٥م ، فذهب إلى إفريقية مع أولاده الستة وبضع مئات من المهاجرين ، واشترى جزيرة صغيرة سميت كلوة واستقل هو وأصحابه بالتجارة وتبعهم في ذلك أولادهم ومن دخل الإسلام معهم ونشأت منهم جماعة الشيرازية .

وقد أنشأ الشيرازية مراكز تجارية كثيرة على الشواطئ الإفريقية ، وفي القرن الثاني عشر كانوا قد سيطروا على التجارة على الساحل الإفريقي من ماليندي إلى موزمبيق ، وفي القرن الثالث عشر ضرب سلطان كلوة عملة نحاسية هي أول عملة تضرب في إفريقية جنوب خط الاستواء ، وقد زار ابن بطوطة كلوة سنة ١٣٣٢م وقال إن سكان سلطنة كلوة كلهم سود مسلمون . وقد نشر الشيرازية الإسلام داخل البلاد ونشأت هناك حضارة متميزة تسمى حضارة الزنج ازهرت لإزهاراً عظيماً في القرن الرابع عشر الميلادي ، ولقد امتد مجال الحضارة الشيرازية حتى سقالة ، واتسع نطاق تجارتهم حتى الهند بل إلى الصين ، فكانت لها وكالة تجارية في بكين ، وكان حجم تجارتهم ضخماً إلى درجة أن علماء الآثار وجدوا مقادير عظيمة جداً من قطع الخزف الصيني إلى جوار كلوة . وفي سنة ١٤١٥م أرسلت كلوة سفارة إلى بكين خرجت من ماليندي ولقيت كل إكرام في بلاط بكين ، وأعادها الأميرال الصيني تشينج-هو بسفنه إلى ماليندي .

وقد اختفت هذه الثقافة خلال فترة سيادة البرتغاليين على تلك السواحل

وبعد ذلك أخذ يسود طراز جديد من الثقافة الإفريقية العربية يسمى بالسواحلي وهو يحمل طابعاً حضرموتياً ظاهراً .

وقد أضرب البرتغاليون بتطور هذه الثقافة الإسلامية ضرراً بليغاً مع أنهم لم يحتلوا إلا نقطاً قليلة على الساحل الإفريقي ، ولكنهم كانوا قوماً مغربين منهومين إلى المكاسب والمغانم سريعين إلى استخدام النار مع الناس . فكان أذاهم بليغاً من أواخر القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر بالإسلام وأهله حين تمكن العمانيون من طرد بقاياهم وتخريب قواعدهم . وكان لسلطين عمان علاقات نشيطة مع ساحل إفريقية ومواقع العمانيين على الساحل الإفريقي وخاصة زنجبار . وكان أهل هذه المواقع خوارج إباضيين ولكنهم لم يقوموا بأي جهد لنشر مذهبهم في إفريقية .

وفي خلال هذه الفترة أيضاً « من أواخر القرن السادس عشر إلى أواخر الثامن عشر » شهد الساحل الإفريقي موجات متصلة من مهاجري اليمن وكان في جملة المهاجرين نفر من الفقهاء ، فأدخلوا المذهب الشافعي بين أهل السواحل ، وعنى هؤلاء الفقهاء بكتابة السواحلية بحروف عربية ، وكانت قبل ذلك لغة غير مكتوبة ، وأدخلوا فيها أيضاً موضوعات الشعر العربي وأوزانه . ومن اختلاط العناصر الحضارية الإسلامية مع بقايا الحضارة الشيرازية والبستوية (١) تكون نسيج الحضارة السواحلية المعروفة لنا اليوم ، وهي حضارة غلب عليها آخر الأمر الطابع الإسلامي .

وكان سلطان العمانيين قليلاً على مراكزهم التجارية على الساحل الإفريقي

(١) تسمية الى شعب البانتو Bantous وهو اسم يطلق على جماعات كبيرة من الافارقة تسكن شرق القارة جنوبى خط الاستواء ، وهم يتكلمون لغة واحدة وان كانت أجناسهم وأصولهم شتى .

حتى تولى السلطان سعيد بن سلطان سنة ١٨٥٦م ، وقد تمكن هذا السلطان القوي من تثبيت نفوذه في مسقط ثم اتجه باهتمامه إلى الساحل الإفريقي ، وأنشأ في جزيرة زنجبار قاعدة لسلطانه هناك . وعصر هذا السلطان يعني تاريخاً حاسماً في تاريخ الساحل الشرقي الإفريقي . فإن نشاط المسلمين التجاري بدأ يوغل خلاله في داخل القارة ، ومع أن المسلمين وصلوا في أيامه إلى داخل القارة عند تنجانيقا والكونغو ونياسا ، وأنشأوا محطات تجارية في عمق القارة إلا أن اهتمامهم بالتجارة كان أشد من اهتمامهم بالدعوة . فلم يدخل على أيديهم في الإسلام إلا نفر قليل ممن ربطتهم بالعرب روابط تجارية مباشرة في ذلك الحين . والحقيقة أنه لم يتسع أمامهم الوقت للقيام بعمل حاسم من أعمال الدعوة ، لأن الاستعمار كان يتوغل إذ ذاك في داخل القارة ، وقد وقف حائلاً دون انتشار الإسلام . ومع ذلك فيمكن القول أنهم فتحوا الأبواب للإسلام ، فلم يلبث الدعاة أن أوغلوا في القارة ولم يلبث الإسلام أن أخذ ينتشر في إفريقية الاستوائية .

ونتيجة لهذا نجد أن الذين دخلوا الإسلام من البانتو في المنطقة الاستوائية أو جنوبها هم الذين كانت لهم علاقات تجارية وثيقة مع العرب والسواحليين أول الأمر . أما انتشار الإسلام على نطاق واسع في تنجانيقا فيرجع إلى سنة ١٨٨٠م بعد احتلال الألمان لتلك المنطقة . ويذهب أهل الاستعمار من الألمان إنهم ساعدوا على انتشار الإسلام في إفريقية لأنهم فيما يقولون سهلوا طرق المواصلات وأقروا الأمن في البلاد ولم يقوموا بأي عمل يوقف سير الإسلام . ويقولون أنهم تركوا الإسلام ينتشر لأنهم رأوا فيه نوعاً معقولاً من التنظيم الاجتماعي يساعدهم على الحكم ، وكذلك يقولون أنهم وجدوا في الشريعة الإسلامية نوعاً من النظام القانوني المفيد في إقرار السلام ، والحقيقة أن أمم الغرب المستعمرة كانت مهمته في المكان الأول بالاستيلاء على الموارد

واستغلال الثروات ، وفي أحيان كثيرة ظنوا أن إنشغال الأهالي بالدين يصرفهم عن التنبيه إلى النهب الذي كان يصيب ثروات بلادهم القومية . ولتنصف إلى ذلك أن شعب البياو الذى يسكن المناطق الساحلية الممتدة من كلوة إلى موزمبيق وجعلوا في الإسلام تشريفاً لهم وارتفاعاً بمستواهم عن غيرهم فأقبلوا عليه ونالوا به الصدارة والوجاهة ، وبلادهم الآن تتميز عن غيرها بالمساجد الجميلة الطابع الإفريقي المتميز . وإليهم يرجع الفضل في إطلاق اسم دار السلام على موضع فرصه صغيرة مقابل جزيرة زنجبار ، وقد ازدهرت المدينة وأصبحت عاصمة تنجانيقا ثم تنزانيا اليوم .

ولقد ترك السواحليون أثراً عميقاً في جماعات السود في قلب إفريقيا ونشروا الإسلام بين قبائل كثيرة تسكن اليوم تنزانيا وكينيا مثل الزرمو وماثومبي في دلتا نهر روفينجي ، فدخلت القبائل النازلة هناك الإسلام ولم يتمكن الإسلام بعد من الانتشار الواسع بين البانتو ولكنه يتشرب بينهم بسرعة أما عدم انتشاره بصورة حاسمة في جنوب السودان فيرجع إلى السياسة المعادية للإسلام التي انتهجها الانجليز بعد انقراضهم به .

محاولة إنشاء الوطن المصري السودانى في القرن التاسع عشر وأثره فى انتشار الاسلام فى وادى النيل :

ويكمل الكلام عن تاريخ الإسلام في إفريقية المدارية والاستوائية بالإشارة إلى محاولة إنشاء وطن مصري سوداني على يد حكام مصر في القرن التاسع عشر ، وهذا هو الاسم الذي ينبغي أن يطلق على ما يسمى خطأ بفتح مصر للسودان أو امبراطورية مصر في السودان أيام محمد علي وإسماعيل . إنما الحقيقة كما يقول المؤرخ الجليل شفيق غربال هي أن القرن التاسع عشر كان عصر إنشاء القوميات الكبرى كالقومية الإيطالية والألمانية والروسية

وغيرها ، وكلها محاولات توحيد بلاد تشترك في ظروف جغرافية وتاريخية وحضارية ولغوية ودينية واحدة . ومحمد علي في محاولته فتح السودان كان يرمي دون أن يشعر إلى إيجاد وطن مصري سوداني يشمل وادي النيل كله ، واستمر في المحاولة ابنه عباس وأحفاده سعيد وإسماعيل ومن شاركهم في ذلك العمل » والعملية مهما كانت دوافعها في أيام محمد علي إلا أنها كانت إكمالاً لما تم على يد عرب جهينة ورفاعة المهاجرين من مصر من نشر الإسلام في شمال السودان ووسطه وتحويله إلى بلاد عربية إسلامية ، ثم جاءت الخطوة الثانية عندما استقلت مصر في القرن التاسع عشر وشعرت أن كيانها السياسي لا يستقيم إلا إذا كانت عضواً في أسرة قومية كبيرة تشمل وادي النيل كله بالضبط كما كان رجال الوحدة الألمانية يعملون على خلقها من الإمارات والممالك الألمانية المتناثرة من الراين إلى الدنير .

وليس هنا مجال تفاصيل الأعمال العسكرية التي قامت بها مصر في السودان أيام محمد علي وأولاده ، ولكن يكفي أن نذكر أن هذه الأعمال مهما قيل في نقدها فقد كانت السبب الرئيسي في تثبيت قواعد الإسلام في وادي النيل حتى بحر الغزال ، وهي صاحبة الفضل في إصعاله إلى منابع النيل ، فلو لم تقم مصر بهذه الأعمال لكان مصير السودان جنوبي سنار والدويم هو نفس مصير بقية بلاد إفريقية الاستوائية وما يليها جنوباً : كانت قد تحولت إلى بلاد مسيحية أو ذات أقلية إسلامية . وليس إلى الشك مسيل في أن هذه الجهود المصرية هي التي رسمت الحدود السياسية للسودان كما نراه اليوم ، فالمصريون هم الذين مدوا حدود بلد السودان النيل حتى خط الاستواء ، بل كانت بحيرات منابع النيل جزءاً من دولة مصر والسودان وسميت بمديرية خط الاستواء أو اكواتوريا وإلى المصريين يرجع الفضل بعد إرادة الله في إصعال الإسلام إلى منابع النيل بصورة منتظمة ومتصلة ، فمنذ سنة ١٨٢١م وهي السنة التي دخلت السودان فيها أول حملة مصرية حتى سنة ١٩٢٤م وهي السنة التي نجح الانجليز

فيها بأساليبهم المعروفة في فصل السودان عن مصر والانفراد به على أمل تحويله إلى مزرعة انجليزية يستغلونها لحسابهم ، خلال تلك الفترة الطويلة عمل المصريون على نشر الإسلام وإرسال الشيوخ وإنشاء المعاهد الدينية والمدارس في كل بلاد السودان مما ربط شعوب السودان النيلي بعضها ببعض وجعلها شعباً سودانياً واحداً لغته العربية وديانته الإسلام ، وهذا أعظم كسب حققه الإسلام والعروبة في إفريقية منذ قرون طويلة ، فقد أصبح أكبر أقطار القارة الإفريقية وهو السودان بلداً إسلامياً عربياً يتصل بعدد كبير جداً من البلاد الإفريقية ويفتح أبوابها للإسلام ■ فالسودان مفتوح الأبواب على تشاد وجمهورية إفريقية الوسطى وزائير وكينيا وأوغندا وتنزانيا وبوروندي ورواندا والحبشة وعفر والصومال وارثيريا ، فهو على ذلك قاعدة إسلامية كبرى في القارة الإفريقية ، وذلك يفرض عليه مسئوليات كبرى حيال الإسلام والعروبة .

ولكي تتبين لنا أهمية الدور الإسلامي العربي الذي قامت به مصر في السودان فلنتنظر إلى ما فعله الانجليز في السودان الجنوبي بعد أن انقردوا به وأخرجوا المصريين منه ■ فقد اتجهت همهم إلى صبغ السودان الجنوبي بصبغة إنجليزية غير إسلامية وأنشأوا للسودان بذلك العمل مشكلة كبيرة . ولو لم يبادر المصريون إلى التدخل في السودان لحماية وادي النيل من أن تبتلعه الموجة الاستعمارية لكان لبلاد السودان اليوم تاريخ آخر .

وإننا لنفخر اليوم بالصحة المهدية ونعتبر محمد أحمد المهدي من كبار زعماء العروبة والإسلام ، مع أن الانجليز كانوا قد شوها سمعته بعد أن قضوا على حركته بالطريقة البشعة التي قام بها رجال مثل اللورد كشر ، وهذا مثل صغير من أمثلة تصرف الانجليز في السودان ، ولا نزاع في أن حركة المهدية كانت بعيدة الأثر في نشر الإسلام في السودان وتعميقه وتحويله إلى قاعدة كبرى من قواعد الإسلام والعروبة في القارة الإفريقية .

خاتمة

وبعد فقد آن أن نقف بهذا الحديث المستطاب عن الإسلام الفاتح ، الإسلام الذي تفتتح له القلوب وتشرح به الصدور إذا مسها نسيمة وخالطتها بشاشته . كانت رحلة طويلة ولكنها ممتعة ، قد رأينا فيها الإسلام يتقل من قم لقلب ، ويظهر من بلد لبلد ويملاً الدنيا بتوره بفضل الله سبحانه ، وبما أودعه فيه الحق من خفة على القلوب وقرب من النفوس الظامئة إلى نور الله وعدله وأمانه وثوابه .

ولو نظرنا إلى مصدر جغرافى لراينا أن ما فتحه الإسلام بنفسه أضعاف ما فتحه المسلمون ، ولا زال الإسلام فاتحاً مظفراً إلى يومنا هذا والحمد لله •

ولكن الظروف تتغير والدنيا تتبدل ، وفي القارة الآسيوية تقف للإسلام اليوم الشيوعية الشوها ، وفي إفريقية تحاول بعض الحكومات الجديدة وعلى رأسها غير مسلمين ومن ورأهم التبشير والمبشرون ، فيلجأون إلى إغلاق الطرق في وجه الإسلام حتى البلاد التي ساعدها ويساعدها المسلمون على كسب استقلالها وحل مشكلاتها تلجأ إلى هذه السياسات ، ومن واجب أمم الإسلام أن تفتح عيونها وأن تضع صالح الإسلام فوق كل صالح ، فلا صداقة إلا على أساس إطلاق الحرية للإسلام ليسير في الناس ، ولا معاونة إلا على قدر موقف هذه الدولة أو تلك من الإسلام .

لقد أكرمنا الله بالإسلام ، فلا أقل من أن نكرم نحن أنفسنا بالمقيام بحقه فهو البداية وهو النهاية ، وهو صاحب الفضل علينا جميعاً ، فما من خير فى حياتنا إلا ومصدره الإسلام • وما من شئء نفخر به إلا وأصله الإسلام • ومهما بذلنا فى سبيله من جهود قلن تكون إلا بعض ما له علينا من حقوق •

محتويات الكتاب

بين يدي الكتاب ٣

(الباب الاول)

مداخل الاسلام ومسالكه ٥

- أولاً : مداخل الإسلام ١٠
- نظام الولاة وأثره في انتشار الإسلام ١١
- الإسلام يتشرب بفصائله وقوته الذاتية ١٤
- الإسلام دين طيار ١٧
- ثانياً : مسالك الإسلام ٢٠
- ثالثاً : لا يخلو بلد من بلاد الله من إسلام ٢٥
- الإسلام في برمانيا وشبه جزيرة الهند الصينية ٢٩
- انتشار الإسلام في جزر المهر اج (أندونيسيا) ٣٩
- سومطرة ٤١
- جاوة ٤٣
- يورينو (كليمتان) ٤٥
- انتشار الإسلام في شبه جزيرة الملايو أو ملقا ٥٤
- الإسلام في جزر الفلبين ٥٨
- الإسلام في كشمير والتبت ٦٣
- الإسلام في الصين ٦٥
- ازدهار الإسلام في الصين ثم اضمحلاله ٦٨

- الإسلام في روسيا ٧٦
- الإسلام بين تارسبيريا ووسط آسيا ٨٢
- إنتشار الإسلام في إفريقيا المدارية والاستوائية... ٨٤
- إسلام مملكة غانة ٩٤
- مدينة أودغشت بين المسلمين وملوك مملكة غانة .. ٩٦
- دخول المرابطين أودغشت وإسلام مملكة غانة ٩٨
- دولة مالي الإسلامية ١٠٦
- دولة صُنغَي أو صَنغاي ١١٥
- غزو سلاطين المغرب لبلاد السودان الغربي ١٢٥
- فترة الركود ١٣٥
- نهضة الإسلام في السودان بزعامة الفولانيين والتكاررة ١٣٧
- دولة الفولانيين السنغاليين في إقليم فوتاتورو ١٣٧
- دولة الفولانيين في منطقة جبال الفوناجالون وهي غينيا ١٣٩
- الفولانيون في إقليم الماسينا ١٤٠
- حمادو الشيخ ١٤٤
- الحاج عمر ١٤٧
- ساموري الطوري ١٤٩
- الإسلام في السودان الأوسط ، الكانم والبرنو ١٥٣
- بلاد الحَمَوى..... ١٦٠
- الطوارق ١٦١
- انتشار الإسلام في السودان الشرقي أو النيل ١٦٦

- ١٧١ بلاد البجة جزء من دولة الإسلام
- ١٧٥ المسلمون يقضون على مملكة مَقْرَه المسيحية
- نهاية مملكة عكوة المسيحية وامتداد نطاق الإسلام والعروبة
- جنوبي موقع الخرطوم الحالي واقتراح بقية وادي النيل
- ١٨٠ للإسلام

(الباب الثاني)

- ١٨٦ العرب وانتشار الاسلام
- ١٩١ مملكة القونج
- ١٩٧ الإسلام في شرق إفريقية
- ٢٠٤ انتشار الإسلام جنوبي القرن الإفريقي
- محاولة إنشاء الوطن المصري السوداني في القرن التاسع عشر
- ٢٠٩ وأثره في انتشار الإسلام في وادي النيل
- ٢١٢ خاتمة
- ٢١٦ كشف بأسماء الأعلام

موارد مختارة

(اصول ومراجع)

أولا : موارد عربية

إبراهيم علي طرخان ، مملكة غانة ومملكة مالي ومملكة صنغاي . الخرطوم .
ابن الأثير ، علي بن أحمد بن أبي الكرم ، الكامل في التاريخ . طبعة بيروت
سنة ١٩٦١م وما بعدها ٦ ، ٧ ، ٨ .

أحمد بابا التنبكي ، تكملة الديباج المذهب لابن فرحون .
نشرة المستشرحه شيربونو بقسطنطينة بالجزائر سنة ١٩١٠م .

الإدريسي ، أبو عبد الله محمد ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، الطبعة
الكاملة للكتاب بعناية نفر من العلماء . نشرة معهد الدراسات
الشرقية بجامعة نابولي في إيطاليا ابتداء من سنة ١٩٧١م .

بارتولد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، القاهرة ١٩٣٣م .
ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ، رحلة ، ابن بطوطة ، طبعة
بيروت ١٩٨٥م .

البكري ، أبو عبيد عبد العزيز : المغرب في وصف إفريقية والمغرب (جزء
المسالك والممالك) بتحقيق البارون ماك - جوكين دي سلان
باريس ١٩١١م .

البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان ، بتحقيق د. صلاح المنجد
القاهرة ١٩٥٨م ثلاثة أجزاء .

البروني : أبو الريحان محمد بن أحمد : الآثار الباقية عن القرون الخالية «
بتحقيق إدوارد سخاو لايزج ١٨٧٨ - ١٨٧٩م وأعادت
طبعه مطبعة المثنى في بغداد بالأوقست .

الحرثاني ، أبو الحسن علي ، زهرة الآسي في بناء فاس « فاس ١٩٢٢م .
حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي .
الجزآن الثاني والثالث ، الطبعة الثامنة ، القاهرة ١٩٧٦م :
- الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة « القاهرة ١٩٦٤م .
- إنتشار الإسلام في شرقي إفريقيا « الطبعة الثانية القاهرة
١٩٦٤م .

الحسن بن محمد الوزان الزياتي ، (لبو الإفريقي) ، وصف إفريقيا ، نقله
إلى العربية عبد الرحمن حميدة الرياض ١٩٧٩م .

ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن ، المقدمة ، طبعة دار الشعب في القاهرة
بدون تاريخ .

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر « ٧ أجزاء القاهرة
١٢٨٤ هـ .

ابن خرداذبة ، كتاب المسالك والممالك ، بتحقيق دي خوية ، لايدن ١٨٨٩م .
ابن أبي ديفار القيرواني ، المؤنس في أخبار إفريقية تونس ، وتونس ١٢٨٨ هـ .
ابن أبي زرع ، أبو الحسن بن عبد الله أو صالح بن عبد الحليم : الأنيس
المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة
فاس ، طبعة الرباط ١٩٣٨م .

سعد الدين الزبير « امبراطورية رابع الزبير ، القاهرة ١٩٥٣ م .
السعدني ، عبد الرحمن ، تاريخ السودان — نشرة المستشرق هوداس في
باريس سنة ١٨٩٨ م .

السلامي الناصري ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد : كتاب الاستقصا
لأخبار دول المغرب الأقصى ، الطبعة الثانية الدار البيضاء
١٩٥٤م في ١٠ أجزاء .

الطبري ، محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك ، بتحقيق محمد أبي الفضل
إبراهيم دار المعارف بالقاهرة ، الجزء ٩ ، ١٠ القاهرة .

د. عبد الرحمن زكي ، تاريخ انتشار الإسلام في غرب إفريقيا القاهرة ١٩٨٨ م .

عثمان دان نوديو : الفرق بين ولاية أهل الإسلام وولاية أهل الكفر بتحقيق
م . هيكت ، نشر في مجلة الدراسات الشرقية الإفريقية
التي تصدرها مدرسة الأبحاث الشرقية الإفريقية التابعة
لجامعة لندن ، مجلد ٢٣ عدد ٢ سنة ١٩٦٠ م .

ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار المغرب . أربعة أجزاء
بإشراف د. إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٢ م .

العتي ، تاريخ علي هامش الفتح الرهبي ، القاهرة ١٢٨٦ هـ .
فيصل السامر « الإسلام في أندونيسيا ، عالم الفكر مجلد ١٠ عدد ٢ سنة ١٩٧٩ م .
ص ٤٧٩ وما بعدها .

القلقشندي ، شهاب الدين أحمد ، صبح الأعشي ، طبعة دار الكتب المصرية ،
الجزء الثامن .

محمد فؤاد شكري ، السنوسية دين ودولة القاهرة ١٩٦٢ م .
عمود كعت ، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس »

نشره مع ترجمة فرنسية المستشرق هوداس . باريس ١٨٦٣ م .
المسعودي ، أبو الحسن علي ، مروج الذهب ، طبعة القاهرة في ٤ أجزاء ١٩٥٣ م .
مظهر بن طاهر المقدسي ، كتاب البدء والتاريخ ، ٦ أجزاء ، باريس
١٨٩٩ - ١٩٥٧ م .

المقدس ، شمس الدين أبو عبد الله محمد ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،
لندن ١٩٠٦ م ، وأعيد طبعه بالأوفست في بغداد .

مؤلف مجهول ، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ، نشره مع ترجمته
فرنسية هوداس لي باريس ١٩٠١ م .

اليقوباني ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ، كتاب البلدان مع كتاب
« الاعلان النفيسة » لابن رُسته . نسخة بالأوفست دون
تحقيق أوسنة طبعة .

ثانيا : موارد أجنبية :

Amadou Hamate Baot Dogeb, L'Empire peul du Macina. Paris 1956.

Amir. Aly, Sayed, A short History of the Soracens London, 1953.

A.J. Arberry, ex. The Legocy of Persia. Oxford, 1953.

' Arkell, History of the Sudan to 1921.

Arnold, Sir. Thomas, the Preaching of Islam 3 ed. revised by Reynold O. Nicholson. London, 1935.

Bertaux, Pierre, L'Afrique de la préhistoire à l'époque contemporaine. Paris, 1973.

Beroud Vilfars, L'Empire de Gao. Paris, 1942.

Bovill, E.W., Coravans of the Old Sahara. London - Oxford, 1933.

Browne, Edward G., A Litirary History of Persia from the earliest times until Firdawsi. London, 1919.

R. Capot Rey, Le Sohare Français. Paris, 1933.

Charles Monteil, Les Banbara de Segou et du Kaarta. Paris, 1924.

Cornevin, Histoire de l'Afrique des Origins à nos jours. Paris, 1964.

Crawford, O.S.G., The Fung Kingodm of Eennar 1951.

Urvoy, Y., Histoire des populations du Sudan Central. Paris, 1936.

— Histoire de l'Empinre du Bornou. Paris 1949.

Fage, J.D., Ghana. A Historical Interpretation. London, 1969.

Ferrand, Gabriel, Relations des Voyages et textes géographiques arabes, persans et turques relatifs à l'extrême Orient du VII au XVIII siècles (2 vols). Paris, 1912.

De Gobineau, Religion et philosophie dans l'Asie Centrale. Paris, 1866.

Groaf, A History of Indonesia. 1960.

Heyd, W., Histoire du commerce du Levant au Moyen Age. Leipzig, 1925.

History of East Africa :

Vol 1 by R. Olivier and G. Mathew;

Vol 2 by V. Harlow and E.M. Shilver;

Vol 3 by Mangery Perham and R.E. Robinson Oxford, from 1963 to 1966.

Hurgronje, Smouck, Politique Musulmane de la Hollande. Paris, 1980.

Hurgronje, Snouck, Collected Writings. Vol. IV Leiden, 1962.

Lewis, Bernard, The Arabs in History. London, 1954.

Mauny, Tableau géographique de l'Ouest Africain du Moyen Age, d'après les oeuvres écrites, la tradition et l'archéologie. Dakar, 1961.

Nadi Hassan, History of Persian Navigation. London, 1962.

Niven, C.R., A Short History of Nigeria. London, 1949.

R. Oliver and J.D. Fage, A short History of Africa. London, 1962.

Richard Molard, Histoire de l'Afrique Française. Paris, 1952.

Rouch, J., Les Songhay. Paris, 1957.

J. Spenser Trimingham, A history of Islam in West Africa. London - Oxford, 1969.

Trimingham, Spencer, Islam in the Sudan. London, 1956.

Van Denberg, Le Hadramawt et les colonies Arabes dans l'Inde. Paris, 1948.

Vlekke, Bernard, Nusantara, A History of Indonesia. Bruxelles, 1961.

Westermann, Geschichte Afrikas Koeln 1952.

Wertheim, W.F., Indonesian Society in Transition. London, 1956.

Wingfield, R.J., The History of Old Ghana, Mali and Songhai. Cambridge, 1957.